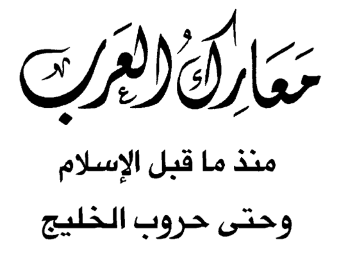

مَعَارِكُ العَرَب
منذ ما قبل الإسلام حتى حرب الخليج

معارك العرب (10)

اسم الموسوعة : معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب : الخلافة العبّاسيّة (1) - العصر العبّاسي الأول
المؤلف : العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب : 20x28 سم
عدد الصفحات : 232
عدد صفحات الموسوعة : 5920
مكان النشر : بيروت - لبنان
دار النشر والتوزيع : دار نوبليس
تلفاكس : 961 1 58 34 75
هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ



معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (10)

الخلافة العباسيّة (1)

العصر العبّاسي الأول

NOBILIS
2007

المقدمة

تابعت الدولة الإسلاميّة مسيرتها الحضاريّة مع بداية الحكم العباسي رغم التغييرات التي سبق الحديث عنها في الجزء السابق من هذه الموسوعة.

وتميّز الحكم العباسي بالمساهمة في تمازج الشعوب الإسلاميّة، رغم أنها كانت تشكّل نماذج متنوّعة من الحضارة، ورغم اختلافات هذه الشعوب العرقية والجغرافية والقبلية.

من ناحية أخرى يبدو أن التفاعل الحضاري مع ثقافات الشعوب التي سبقت التاريخ الإسلامي نشط في العصر العباسي في شكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي. لقد اطّلع العرب خلال هذا العصر على ثقافات هذه الشعوب، بحيث جرت عملية نقل الناتج الفكري والعلمي والحضاري عن لغات تلك الشعوب إلى اللغة العربية. وحفظ هذا الناتج في اللغة العربية، فيما فُقِدَ الأصل في اللغات الأخرى. لذلك، وعند الرغبة في درس الحضارة الإسلاميّة في عصرها الذهبي، ينبغي دراستها خلال العصر العباسي الأول، أي عصر سيطرة الخلفاء على الحكم.

فقد اصطلح المؤرّخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى أربعة عصور:

– العصر العبّاسي الأول أو دور النفوذ الفارسي (١٣٢-٢٣٢هـ) (٧٤٩-٨٤٧م).

- العصر العباسي الثاني أو دور النفوذ التركي (٢٣٢-٣٣٤هـ) (٨٤٧-٩٤٥م).

- العصر العباسي الثالث أو دور النفوذ البويهي الفارسي (٣٣٤-٤٤٧هـ) (٩٤٥-١٠٥٥م).

- العصر العباسي الرابع أو دور النفوذ السلجوقي التركي (٤٤٧-٦٥٦هـ) (١٠٥٥-١٢٥٨م).

ومن المؤرّخين من درج على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى مرحلتين، الأولى سيطر خلالها الخلفاء ووزراؤهم على الإدارة التي بقيت مركزية وقوية ومُهابة، خاصة في عهد الخلفاء الأوائل. أما المرحلة الثانية فكانت مرحلة تحكّم ضباط القصر بالحكم، بدءاً بالأتراك، مروراً بالبويهيين، فالسلاجقة. وقد انتهت هذه المرحلة بقيام الدول المستقلّة عن الخلافة العبّاسية في الشرق والغرب، وحتى الأندلس، وصولاً إلى انهيار الدولة العباسية وسقوط بغداد.

كتب ابن خلدون عن مراحل الدولة الإسلاميّة:[1]

«لم يزل أمر الإسلام جميعاً دولة واحدة أيام الخلفاء الأربعة وبني أمية من بعدهم لاجتماع عصبية العرب. ثم ظهر من بعد ذلك أمر الشيعة وهم الدعاة لأهل البيت، فغلب دعاة بني العباس على الأمر واستقلوا بخلافة الملك، ولحق الفلّ من بني أمية الأندلس، فقام بأمرهم فيها من كان هنالك من مواليهم ومن هرب، فلم يدخلوا في دعوة بني العباس. وانقسمت لذلك دولة الإسلام بدولتين لافتراق عصبية العرب. ثم ظهر دعاة أهل البيت بالمغرب والعراق من العلوية ونازعوا خلفاء بني العباس واستولوا على القاصية من النواحي كالأدارسة بالمغرب الأقصى والعُبَيديين بالقيروان ومصر والقرامطة بالبحرين والدواعي بطبرستان والديلم والأطروش فيها من بعده. وانقسمت دولة الإسلام بذلك دولاً متفرقة».

(١) موسوعة العلاّمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، جزء ٥، ص٣٦٢-٣٦٤.

وكتب جرجي زيدان عن الموضوع نفسه:[1]

«مهما قيل في دولة بني أمية، فهي تمتاز عن دولة العباسيين بأنها عربية حقيقية، لأن عمّالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عرباً، إلاّ بعض الكتبة والأطباء ونحوهم. وأما بنو العباس، فقد غلب في العصر الأول من دولتهم العنصر الفارسي لأن الفرس هم الذين سلّموا إليهم مقاليد الأحكام، فاتخذوا منهم الوزراء، وهم أول من اتخذ الوزراء، اقتبسوا هذا المنصب عن الفرس».

أوّل الخلفاء أبو العباس السفاح لم يحكم سوى بضع سنين، خلفه أخوه أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٧ هـ)، وكان من أعظم رجالات الإسلام دهاءً وسياسة وشجاعة. وهو الذي بنى مدينة بغداد التي أصبحت أشهر عواصم المسلمين، وقضى على أبي مسلم الخراساني بعد أن أصبح مركزه يشكّل خطراً على الخلافة نفسها.

خَلَفَ المنصور ابنه الهادي، فهارون الرشيد، ثم ابنا الرشيد الأمين فالمأمون. وفي أيام الرشيد بلغت الدولة أوج ازدهارها وعظمتها في مختلف النواحي. وبعدما تزايدت أهمية الفرس في القصر، لا سيما في الوزارة التي اعتبرت أرفع مناصب الدولة، قام الرشيد بضرب البرامكة وإنهاء سيطرتهم على مقدرات الدولة.

بعد المأمون جاء المعتصم بالله السنة ٢١٨هـ، فأكثر من استخدام الأتراك، إذ وثق بهم وقرّبهم، فدخلوا في الإسلام وتثقفوا وظهرت مواهبهم، فولاّهم الخلفاء المناصب المهمة في الدولة حتى وصلوا إلى أعلى مراتب الإدارة والجند، وأمست مقاليد السلطة تتنازعها قوتان: الفرس والترك.

وبعد المعتصم اصطنع الخلفاء أشخاصاً من أمم أخرى، فتعددت العناصر الأجنبية المتعارضة في القصر، ما أدّى إلى ضعف الخلفاء واستبداد ضبّاط القصر وحكّام الولايات.

(١) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة، دار نوبِليس، بيروت، ٢٠٠٤، جزء ٣١، ص١٠٢.

ومع دخول القرن الرابع للهجرة انحصرت سلطة الخلفاء في بغداد فقط، فقامت فروع للمملكة الإسلاميّة منذ عهد الراضي بالله (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ). ومما زاد في صعوبة الأمر أن الخدم والجند أصبحوا أقوياء في القصر، الأمر الذي جعلهم يتحكمون في أعمال الخلفاء، وصولاً إلى خلعهم وقتلهم وتنصيب غيرهم.

ومع تدخّل الضباط والجند في السياسة، دخلت السياسة إلى الجيش الذي تضخّم وأصبح يضم عدداً من الأسلحة، كالرجّالة والخيّالة وحملة الرماح والنبّالة أو الرماة. وتخصّصت في كل سلاح جماعات قادمة من إحدى الأمم التابعة للدولة الإسلاميّة، فقام صراع بين فئات الجيش، غذّاه رجال السياسة والمطامع الشخصية. وهذا ما جعل الوضع في حال من عدم الاستقرار السياسي، فكثرت الانقلابات داخل الجيش وتحكم الترك بالوضع ثم الديلم فالسلاجقة الأتراك.

أخيراً، جاء التتر فافتتحوا بغداد السنة ٦٥٦ هـ وأنهوا وجود الخلافة الإسلاميّة فيها التي انتقلت إلى مصر، حيث أصبحت تحت حماية المماليك. وبقيت كذلك حتى قدوم الأتراك العثمانيين بعد أن فتح السلطان سليم مصر السنة ٩٢٣هـ مصطحباً الخليفة معه إلى الآستانة.

الفصل الأول

العمليات العسكرية في مطلع العصر العباسي

أوضح أبو العباس السفّاح في خطبته الأولى بعد مبايعته بالخلافة في ربيع الأول السنة ١٣٢ هـ أن الهدف الذي قامت من أجله الثورة العباسية هو تطبيق مبادئ الإسلام التي انحرف عنها الأمويون، مشيراً إلى حق العباسيين بالخلافة وصراع آل البيت الطويل من أجل استعادتها من الذين انتزعوها عنوة منهم.

ووجّه أبو العباس جهده خلال خلافته القصيرة إلى تثبيت أركان الدولة العباسية، ونجح في ذلك فقضى على المعترضين على انتقال الحكم إلى العباسيين، وقام بتصفية منافسه السياسي أبا سلمة الخلاّل. إلاّ أن العباس لم يستطع توجيه جيوشه إلى الخارج للتوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية أو غيرها من أعداء الإسلام، تاركاً هذه المهمة إلى شقيقه أبي جعفر المنصور الذي تسلّم حكماً مستتباً.

في هذا الفصل سنتعرض للعمليات العسكرية التي خاضتها جيوش الخلافة العباسية في أول عهدها، هذه الجيوش التي اختلفت في تشكيلها عن الجيوش الأموية. فالثانية كانت جيوشاً عربية مجندة من المناطق العربية التابعة للخلافة، خاصة من بلاد الشام. أما الجيوش التي بدأت الدولة العباسية بتجنيدها فكانت القوات الخراسانية بقيادة أبي مسلم الخراساني.

وفي هذه الحقبة ظهر تياران عسكريان متنافسان يحاول كل منهما السيطرة، التيار الأول هو التيار الخراساني بقيادة

أبي مسلم أقوى شخصيات الدولة بعد الخليفة. أما التيار الثاني فكان عربياً يقوده عبد الله بن علي عم الخليفة أبي العباس، المنتصر في معركة الزاب الأعلى ضد الخليفة الأموي مروان بن محمد، والطامح إلى الخلافة.

١ - عمليات متفرقة:

في السنة الثالثة والثلاثين بعد المائة خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم في بخارى وقال:(١)

«ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق».

وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفاً.

وجّه أبو مسلم إليه زياداً بن صالح الخزاعي الذي قاتله قتالاً طويلاً قتل في نهايته شريك.

وفيها اختلف أخشيد فرغانة وملك الشاش، فطلب أخشيد مساعدة ملك الصين فأمده بمائة ألف مقاتل حاصروا ملك الشاش الذي نزل على حكم ملك الصين، فلم يتعرض له ولأصحابه بما يسوءهم.

وبلغ الخبر أبا مسلم فوجّه إلى حربهم زياداً بن صالح فالتقوا على نهر طراز واقتتلوا قتالاً طويلاً انتصر فيه المسلمون وقتلوا من أعدائهم زهاء خمسين ألفاً وأسروا نحو عشرين ألفاً وهرب الباقون إلى الصين.(٢)

ملاحظة: بالنسبة لأعداد القتلى والأسرى، يجب أخذها بالحذر كون المؤرخين العرب درجوا على المبالغة في هذه الأعداد.

وفيها أيضاً غزا الصائفة إلى بلاد الروم سعيد بن عبد الله.

٢ - إرسال الولاة إلى الأقاليم:

في السنة الثالثة والثلاثين بعد المائة وجّه أبو العباس ولاته إلى الأقاليم. كتب الطبري عن هؤلاء:(٣)

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٤، ص٣٦٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٥، ص٩٠.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٦٧.

«كان على الكوفة وأرضها عيسى بن موسى، وعلى قضائها ابن أبي ليلى، وعلى البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين وعمان ومهرجانقذق سليمان بن علي، وعلى قضائها عبّاد بن منصور، وعلى الأهواز إسماعيل بن علي، وعلى فارس محمد بن الأشعث، وعلى السّند منصور بن جمهور، وعلى خراسان والجبال أبو مسلم، وعلى قنّسرين وحمص وكور ودمشق والأردن عبد الله بن علي، وعلى فلسطين صالح بن علي.

وعلى مصر عبد الملك بن يزيد أبو عون، وعلى الجزيرة عبد الله بن محمد المنصور، وعلى الموصل إسماعيل بن علي، وعلى أرمينية صالح بن صبيح، وعلى أذربيجان مجاشع بن يزيد.

وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك».

٣ - خلع بسام بن إبراهيم للسفاح:

في السنة الرابعة والثلاثين بعد المائة للهجرة انتفض على السفاح بسام بن إبراهيم، وكان من فرسان أهل خراسان، وسار مع جماعة له سراً إلى المدائن.

كتب ابن خلدون عن توجيه جيش لقتاله بقيادة خازم بن خريمة والمعارك التي خاضها هذا الجيش:[١]

«انتقض بسام بن إبراهيم بن بسام من فرسان أهل خراسان، وسار من عسكر السفّاح وجماعة على رأيه سرّاً إلى المدائن، فبعث السفاح في أثرهم خازم بن خُزَيْمة فقاتلهم وقتل أكثرهم واستباحهم. وبلغ ماه وانصرف، فمرّ بذات المطامير وبها أخوال السفاح من بني عبد المُدان في نحو سبعين من قرابتهم ومواليهم.

وقيل له: إن المغيرة من أصحاب بَسّام عندهم. فسألهم عنه فقالوا: مرّ بنا مجتازاً. فهدّدهم إن لم يأخذه، فأغلظوا له في القول، فقتلهم أجمعين، ونهب أموالهم، وهدم دورهم. وغضبت اليمانية لذلك ودخل بهم زياد بن عبيد الله الحَرْثي على السفاح

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٨٠-٣٨١.

وشكوا إليه ما فعل بهم فهمّ بقتله. وبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطيّة فدخلا على السفاح، وذكّراه سابقة الشيعة وطاعتهم، وإنهم آثروكم على الأقارب والأولاد وقتلوا من خالفكم، فإن كان لا بدّ من قتله فابعثه لوجه من الوجوه، فإن قتل هو الذي تريد، وإن ظفر فلك. بعثه إلى الخوارج الذين بجزيرة ابن كاوان من عُمان، مع شَيبان بن عبد العزيز اليَشكُري، فبعث معه سبعمائة رجل. فحملهم سليمان بن علي من البصرة في السفن، وقد انضم إليه من أهله وعشيرته ومواليه وعدة من بني تميم من البصرة. فلما أرسوا بجزيرة ابن كاوان قدّم حازم فضَلَة بن نعيم المِنْشَلّي في خمسمائة إلى شيبان، فانهزم هو وأصحابه وكانوا صُفْريّة. وركبوا إلى عمان فقاتلهم الجَلَنْدي في الأباضيّة، فقتل شيبان ومن معه كما مرّ. وشيبان هذا غير شيبان بن سلمة الذي قتل بخراسان، فربما يشتبهان.

ثم ركب خازم البحر إلى ساحل عمان، فنزل وقاتل الجَلَنْدي أياماً، أمر خازم أصحابه في آخرها أن يجعلوا على أطراف أسنّتهم المشاقة، ويدوّروها بالنفط، ويشعلوها بالنيران، ويرموها في بيوت القوم، وكانت من خشب. فلما اضطرمت فيها النار شغلوا بأهاليهم وأولادهم عن القتل، فحمل عليهم خازم وأصحابه فاستلحموهم. وقتل الجلندي وعشرة آلاف، فبعث خازم برؤوسهم إلى البصرة فبعثها سليمان إلى السفاح».

٤ - غزوة كش:

في السنة الرابعة والثلاثين بعد المائة للهجرة غزا خالد بن إبراهيم (أبو داود) أهل كش، فقتل ملكها الأخشيد، واستباح أهلها. وأخذ منهم الأواني الصينية المنقوشة بالذهب، ومن الديباج والسروج ومتاع الصين الشيء الكثير، وحمله إلى أبي مسلم بسمرقند[١].

وقتل أبو داود العديد من دهاقين كش، وجعل ملكاً عليها طازان شقيق الأخشيد،

(١) ابن الكثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٩٤.

كما استخلف على بخارى وسمرقند زياداً بن صليح، ثم عاد إلى بلخ.

٥ - قتال منصور بن جمهور:

بلغ السفاح أن منصوراً بن جمهور انتفض بالسند في اثني عشر مقاتل، فأرسل صاحب شرطته موسى بن كعب واستخلف مكانه على الشرطة المسيّب بن زهير.

سار موسى إلى ابن جمهور فلقيه في تخوم الهند، فاقتتلوا قتالاً شديداً انتصر فيه المسلمون وانهزم ابن جمهور الذي مضى بمن معه فمات عطشاً في الرمال. وسمع خليفته على السند بهزيمته فرحل عن السند بعياله إلى بلاد الخزر[١].

٦ - انتفاضة زياد بن صالح:

في السنة الخامسة والثلاثين بعد المائة للهجرة خرج زياد بن صالح على السلطة في منطقة ما وراء النهر.

نقل الطبري تفاصيل القتال ضد زياد، فكتب[٢]:

«فمما كان فيها من ذلك خروج زياد بن صالح وراء نهر بلْخ، فشخص أبو مسلم من مَرْو مستعداً للقائه. وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصر بن راشد إلى الترْمذ، وأمره أن ينزل مدينتها، مخافة أن يبعث زياد بن صالح إلى الحصن والسفن فيأخذها. ففعل ذلك نصر، وأقام بها أياماً، فخرج عليه ناس من الراوندية من أهل الطالقان مع رجل يكنى أبا إسحاق، فقتلوا نصراً. فلما بلغ ذلك أبا داود بعث عيسى بن ماهان في تتبع قتلة نصر، فتتبعهم فقتلهم. فمضى أبو مسلم مسرعاً؛ حتى انتهى إلى آمُل، ومعه سباع ابن أبي النعمان الأزديّ، وهو الذي كان قدم بعهد زياد بن صالح من قِبَل أبي العباس، وأمره إن رأى فرصة أن يثِبَ على أبي مسلم فيقتله، فأخبِر أبو مسلم بذلك. فدفع سباع بن النعمان إلى الحسن بن الجُنيد عامله على آمُل، وأمره بحبسه

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٦٩-٣٧٠.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص٣٧١.

عنده. وعبَر أبو مسلم إلى بخارى، فلما نزلها أتاه أبو شاكر وأبو سعد الشرويّ في قُوّاد قد خلعوا زياداً، فسألهم أبو مسلم عن أمر زياد ومَن أفسده، قالوا: سباع بن النعمان، فكتب إلى عامله على آمُل أن يضرب سباعاً مائة سوط، ثم يضرب عنقه، ففعل.

ولما أسلم زياداً قوّاده ولحقوا بأبي مسلم لجأ إلى دِهقان بارْكَث، فوثب عليه الدهقان، فضرب عنقه، وجاء برأسه إلى أبي مسلم. فأبطأ أبو داود على أبي مسلم لحال الراوندية الذين كانوا خرجوا، فكتب إليه أبو مسلم: أما بعد فليُفرِج رَوْعك، ويأمن سِربك، فقد قتل الله زياداً، فأقدم. فقدم أبو داود كسّ، وبعث عيسى بن ماهان إلى بسام، وبعث ابن النجاح إلى الإصبهبذ إلى شاوَغَر، فحاصر الحصن فأما أهل شاوغر فسألوا الصلح، فأجيبوا إلى ذلك. وأما بسام فلم يصل عيسى بن ماهان إلى شيء منه؛ حتى ظهر أبو مسلم بستة عشر كتاباً وجدها من عيسى بن ماهان إلى كامل بن مظفّر صاحب أبي مسلم، يعيب فيها أبا داود، وينسبه فيها إلى العصبية وإيثاره العرب وقومه على غيرهم من أهل هذه الدعوة، وأن في عسكره ستة وثلاثين سُرداقاً للمستأمنة. فبعث بها أبو مسلم إلى أبي داود، وكتب إليه: إنّ هذه كتب العِلْج الذي صيّرته عِدْل نفسك، فشأنَك به. فكتب أبو داود إلى عيسى بن ماهان يأمره بالانصراف إليه عن بسّام، فلما قدم عليه حبسه ودفعه إلى عمر النغم؛ وكان في يده محبوساً. ثم دعا به بعد يومين أو ثلاثة فذكّره صنيعته به وإيثاره إياه على ولده، فأقرّ بذلك. فقال أبو داود: فكان جزاء ما صنعتُ بك أن سعيتَ بي وأردتَ قتلي، فأنكر ذلك، فأخرج كتبه فعرفها، فضربه أبو داود يومئذ حدّين: أحدهما للحسن بن حمدان. ثم قال أبو داود: أما إني قد تركت ذنبَك لك؛ ولكن الجند أعلم. فأخرج في القيود، فلما أخرج من السرداق وثب عليه حرب بن زياد وحفص بن دينار مولى يحيى بن حصين، فضرباه بعمود وطبرزين، فوقع إلى الأرض. وعدا عليه أهل الطالقان وغيرهم، فأدخلوه في جوالق، وضربوه بالأعمدة حتى مات. ورجع أبو مسلم إلى مرو».

وقد روى ابن خلدون وابن الأثير رواية مشابهة[(١)].

٧ - وفاة أبي العباس وبدء خلافة أبي جعفر المنصور:

في السنة السادسة والثلاثين بعد المائة للهجرة، توفي أبو العباس السفاح لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة، فصلى عليه عمه عيسى بن علي ودفنه بالأنبار العتيقة.

وكان السفاح قد أوصى بالخلافة لأخيه أبي جعفر المنصور، ومن بعده لابن أخيه عيسى ابن موسى بن محمد بن علي.

فلما توفي السفاح كان أبو جعفر في مكة المكرمة، فأخذ البيعة له عيسى بن موسى، وكتب إليه يعلمه بوفاة السفاح والبيعة له.

استدعى أبو جعفر أبا مسلم الخراساني الذي وجده خائفاً، فسأله عن السبب، فقال: «أتخوف شرّ عمي عبد الله بن علي، وشيعة علي»[(٢)].

فقال السفاح: «لا تخفه، فأنا أكفيكه إن شاء الله. إنما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان، وهم لا يعصونني»[(٣)].

وقد بايع أبو مسلم للمنصور، لكن عبد الله بن علي رفض البيعة له، وبايع لنفسه[(٤)].

٨ - خروج عبد الله بن علي وهزيمته:

في السنة السابعة والثلاثين بعد المائة للهجرة، وبعد وفاة أبي العباس السفاح ومبايعة أبي جعفر المنصور، أرسل عيسى بن موسى إلى عمه عبد الله بن علي يخبره بذلك ويأمره بالبيعة لأبي جعفر المنصور. فلما قدم الرسول على عبد الله بذلك أمر منادياً فنادى للصلاة فاجتمع الناس فقرأ

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٨٢-٣٨٣.
ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٩٦.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٨٤.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٧٥.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٠٠.

عليهم الكتاب بوفاة السفاح ودعا الناس بالبيعة له.

وحجة عبد الله التي أعلمها للناس هي أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد دعا بني أبيه فأرادهم على المسير فقال: «من انتدب منكم فسار إليه، فهو ولي عهدي»[1].

وكان عبد الله هو الذي سار إلى مروان وانتصر عليه في موقعة الزاب الأعلى، فاعتبر أنه الأحق بالخلافة بعد السفاح.

كتب ابن خلدون عن هذه الأحداث ما يأتي:[2]

«كان عبد الله بن عليّ قدم على السفاح قبل موته، فبعثه إلى الصائفة في جنود أهل الشام وخراسان، فانتهى إلى دلوك. ولم يدر حتى جاءه كتاب عيسى بن موسى بوفاة السفاح، وأخذ البيعة لأبي جعفر وله من بعده كما عهد به السفاح. فجمع عبد الله الناس، وقرأ عليهم الكتاب، وأعلمهم أن السفاح حين أراد أن يبعث الجنود إلى حرّان تكاسل بنو أبيه عنها، فقال لهم: من انتدب منكم فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري. وشهد له أبو غانم الطائي وخفاف المروزي وغيرهما من القواد وبايعوه، وفيهم حميد بن حكيم بن قحطبة وغيره من خراسان والشام والجزيرة. ثم سار عبد الله حتى نزل حرّان».

وتسلّم عبد الله بن علي حرّان من نائب المنصور مقاتل بن حكيم العتكي بعد محاصرته أربعين يوماً.

وصف ابن كثير رد فعل المنصور وإرساله أبي مسلم الخراساني لقتال عبد الله بن علي والمعارك التي جرت وصولاً إلى مقتل عبد الله بن علي وصفاً دقيقاً إذ كتب:[3]

«فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه بعث إليه أبا مسلم الخراساني ومعه جماعة من الأمراء وقد تحصّن عبد الله بن علي

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٧٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٨٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ١٠، ص٦٤-٦٥.

بحرّان، وأرصد عنده مما يحتاج إليه من الأطعمة والسلاح شيئاً كثيراً جداً. فسار إليه أبو مسلم الخراساني وعلى مقدمته مالك بن هيثم الخزاعي. فلما تحقق عبد الله ابن علي قدوم أبي مسلم إليه خشي من جيش العراق أن لا يناصحوه، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً، وأراد قتل حميد بن قحطبة فهرب منه إلى أبي مسلم. فركب عبد الله بن علي فنزل نصيبين وخندق حول عسكره، وأقبل أبو مسلم فنزل ناحية وكتب إلى عبد الله: إني لم أؤمر بقتالك، وإنما بعثني أمير المؤمنين والياً على الشام فأنا أريدها. فخاف جنود الشام من هذا الكلام فقالوا: إنا نخاف على ذرارينا[1]، وديارنا وأموالنا، فنحن نذهب إليها نمنعهم منه. فقال عبد الله ابن علي: ويحكم! والله إنه لم يأتِ إلاّ لقتالنا. فأبوا إلاّ أن يرتحلوا نحو الشام، فتحول عبد الله من منزله ذلك وقصد ناحية الشام. فنهض أبو مسلم فنزل موضعه وغوّر ما حوله من المياه (وكان موضع عبد الله الذي تحوّل منه موضعاً جيداً جداً). فاحتاج عبد الله وأصحابه فنزلوا في موضع أبي مسلم فوجدوه منزلاً رديئاً. ثم أنشب أبو مسلم القتال فحاربهم خمسة أشهر، وكان على خيل عبد الله أخوه عبد الصمد بن علي، وعلى ميمنته بكار بن مسلم العقيلي، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي. وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيمة. وقد جرت بينهم وقعات وقتل منهم جماعات في أيام نحسات. وكان أبو مسلم إذا حمل يرتجز ويقول: (الرجز)

مَنْ كانَ يَنْوي أَهْلَهُ فَلا رَجَعْ
فَرَّ مِنَ المَوْتِ وَفِي المَوْتِ وَقَعْ

وكان يعمل له عرش فيكون فيه إذا التقى الجيشان فما رأى في جيشه من خلل أرسل فأصلحه. فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، فمكر بهم أبو مسلم! بعث إلى الحسن بن قحطبة أمير الميمنة فأمره أن يتحول بمن معه إلاّ القليل إلى الميسرة. فلما رأى ذلك أهل الشام

(١) ذرارينا: نسلنا.

انحازوا إلى الميمنة بإزاء الميسرة التي تعمرت. فأرسل حينئذ أبو مسلم إلى القلب أن يحمل بمن بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحطموهم. فجال أهل القلب والميمنة من الشاميين، فحمل الخراسانيون على أهل الشام وكانت الهزيمة. وانهزم عبد الله بن علي بعد تلوم، واحتاز أبو مسلم ما كان في معسكرهم من الأموال والحواصل. وأمّن أبو مسلم بقية الناس فلم يقتل منهم أحداً، وكتب إلى المنصور بذلك، فأرسل المنصور مولاه أبا الخصيب ليحصي ما وجدوا في معسكر عبد الله بن علي، فغضب من ذلك أبو مسلم الخراساني. واستوسقت الممالك لأبي جعفر المنصور، ومضى عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد على وجهيهما، فلما مرا بالرصافة أقام بها عبد الصمد. فلما رجع أبو الخصيب وجده بها فأخذه معه مقيداً في الحديد فأدخله على المنصور فدفعه إلى عيسى بن موسى فاستأمن له المنصور، وقيل بل استأمن له إسماعيل بن علي. وأما عبد الله بن علي فإنه ذهب إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة فأقام عنده زماناً مختفياً. ثم علم به المنصور فبعث إليه فسجنه في بيت بني أسامة على الملح، ثم أطلق عليه الماء فذاب الملح وسقط البيت على عبد الله فمات».

هكذا توفي القائد الكبير عبد الله بن علي المنتصر على آخر خلفاء بني أمية في وقعة الزاب ومرتكب مجزرة أبي فطرس.

٩ - مقتل أبي مسلم الخراساني:

كان أبو مسلم الخراساني رجل الثورة العباسية الذي خرج بدعوتها عن سريّتها في الحميمة ووصل بها إلى دور التنفيذ وانتصر على والي خراسان للأمويين نصر بن سيار، وتفانى في الإخلاص للخليفة العباسي الأول. كما وقف الموقف نفسه من الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور فحارب الخارجين على سلطته وخاصة عمه عبد الله بن علي. ورغم كل ذلك استدرجه الخليفة المنصور إليه وقتله.

أما أسباب نقمة المنصور عليه فقد كتب الطبري عنها:[١]

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٨٠.

«حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا عليّ بن محمد، قال: حدّثنا سلمة بن محارب ومسلم بن المغيرة وسعيد بن أوس وأبو حفص الأزديّ والنعمان أبو السريّ ومحرز بن إبراهيم وغيرهم، أن أبا مسلم كتب إلى أبي العباس يستأذنه في الحجّ، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة، وإنما أراد أن يصلي بالناس. فأذن له، وكتب أبو العباس إلى أبي جعفر وهو على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان: إن أبا مسلم كتب إليّ يستأذن في الحجّ وقد أذنتُ له؛ وقد ظننتُ أنه إذا قدم يريد أن يسألني أن أوليّه إقامة الحجّ بالناس، فاكتب إليّ تستأذنني في الحج؛ فإنك إذا كنتَ بمكة لم يطمع أن يتقدّمك. فكتب أبو جعفر إلى أبي العباس يستأذنه في الحجّ فأذن له، فوافى الأنبار، فقال أبو مسلم: أما وجد أبو جعفر عاماً يحجّ فيه غيرَ هذا! واضطغنها عليه.

قالوا: لما صدر الناس عن الموسم، نفر أبو مسلم قبل أبي جعفر، فتقدمّه. فأتاه كتاب بموت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر، فكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر يعزّيه بأمير المؤمنين؛ ولم يهنئه بالخلافة، ولم يقم حتى يلحقه، ولم يرجع. فغضب أبو جعفر فقال لأبي أيوب: اكتب إليه كتاباً غليظاً. فلما أتاه كتاب أبي جعفر كتب إليه يهنئه بالخلافة، فقال يزيد بن أسيد السُّلميّ لأبي جعفر: إني أكره أن تجامعه في الطريق والناس جنده؛ وهم له أطوع، وله أهيب، وليس معك أحد. فأخذ برأيه، فكان يتأخر ويتقدم أبو مسلم، وأمر أبو جعفر أصحابه فقدموا، فاجتمعوا جميعاً وجمع سلاحهم؛ فما كان في عسكره إلاّ ستة أذرع. فمضى أبو مسلم إلى الأنبار، ودعا عيسى بن موسى إلى أن يبايع له؛ فأتى عيسى، فقدم أبو جعفر فنزل الكوفة».

علاوة على ذلك فإن تعاظم نفوذ أبي مسلم في خراسان إلى درجة أصبح معها كأنه حاكمها المستقل، والخوف من ظهور تكتل فارسي حوله في الولايات الشرقية قد يؤدي إلى انفصالها عن الخلافة؛ كانا من أهم الدوافع التي جعلت المنصور يقوم بتصفية قائده.

وهكذا، وعندما أرسل أبو جعفر قائده أبا مسلم لقتال عمه عبد الله بن علي، وبعد انتصار أبي مسلم، بعث الخليفة مولاه أبا

الخصيب يقطين لتعداد ما أصيب من معسكر عبد الله من الأموال والجواهر الثمينة، فغضب أبو مسلم فشتم أبا جعفر وهم بقتل أبي الخصيب.

وعندما علم أبو جعفر بالأمر غضب وكتب إلى أبي مسلم أنه قد ولاّه الشام ومصر. وذلك بهدف إبعاده عن خراسان حيث مركز قوته. لكن أبا مسلم ولى غيره الشام ومصر ورجع باتجاه خراسان وهو عازم على مخالفة المنصور[١].

عند هذا الحد انتقل أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن واستدعى أبا مسلم إليه. لكن هذا الأخير كتب إليه يستأذن بعدم الحضور فلم يقبل المنصور، وأرسل إليه جماعة من الأمراء على رأسهم جرير بن يزيد البجلي، وكلفهم بإقناعه بالقدوم إليه[٢].

وقدم الأمراء على أبي مسلم وهو بحلوان وأعلموه برسالة المنصور، فسأل إخصاءه فنهوه عن الذهاب إلى الخليفة ونصحوه بأن يبقى في الري فتكون خراسان تحت حكمه.

وكان المنصور قد ولّى خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد فكتب إلى أبي مسلم ينصحه بالشخوص إلى المنصور. أرسل أبو مسلم أحد أخصائه واسمه أبو اسحق فأكرمه المنصور، فعاد إلى أبي مسلم فقال له: «رأيتهم يعظمونك»، فغرّه ذلك وعزم على الذهاب إلى الخليفة وكتب إليه يعلمه بقدومه عليه[٣].

أما نهاية الرواية وصولاً حتى مقتل أبي مسلم، فننقلها عن ابن كثير الذي كتب:[٤]

«فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والأمراء أن يتلقوه، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم. وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخر قتله في ساعته هذه إلى الغد، فقبل ذلك منه. فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي أظهر له الكرامة والتعظيم، ثم قال: اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام، فإذا كان الغد فأتني.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٠٦.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٦٧.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٨١.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٦٨-٦٩.

فخرج من عنده وجاءه الناس يسلمون عليه. فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له: كيف بلائي عندك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها. قال: كيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم؟ قال: فوجم ساعة ثم قال أبو أيوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال قولة ضعيفة: أقتله. ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرضهم على قتله، وقال لهم: كونوا من وراء الرواق،(١) فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه. ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلاً تترى(٢) يتبع بعضها بعضاً. فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم. فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة، فيعتذر عن ذلك كله. ثم قال: يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قد طابت علي. فقال المنصور: أما والله ما زادني هذا إلاّ غيظاً عليك. ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى فخرج عثمان وأصحابه فضربوه بالسيوف حتى قتلوه ولفّوه في عباءة ثم أمر بإلقائه في دجلة، وكان آخر العهد به. وكان مقتله في يوم الأربعاء لأربع بقين من شعبان السنة سبع وثلاثين ومائة.

وكان من جملة ما عاتبه به المنصور أن قال: كتبت إليّ مرات تبدأ بنفسك، وأرسلت تخطب عمتي أمينة، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس إلى غير ذلك. فقال أبو مسلم: يا أمير المؤمنين لا يقال لي هذا وقد سعيت في أمركم بما علمه كل أحد. فقال: ويلك! لو قامت في ذلك أمة سوداء لأتمه الله لجدنا وحيطتنا. ثم قال: والله لأقتلنك. فقال: استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك. فقال: وأي عدو لي أعدى منك. ثم أمر بقتله وقتل كما ذكرنا. فقال له بعض الأمراء: يا أمير المؤمنين الآن صرت خليفة. ويقال إن المنصور أنشد عند ذلك:

فَأَلْقَتْ عَصاها وَاسْتَقَرَّ بها النَّوى(٣)
كَما قَرَّ عَيْناً بِالإِيابِ(٤) المُسافِرِ»

(١) الرواق: سقف في مدخل البيت.
(٢) تترى: متتابعة.
(٣) النوى: البعد.
(٤) الإياب: الرجوع.

هكذا قتل القائد الكبير أبو مسلم الخراساني الذي كانت له اليد الطولى في وصول العباسيين إلى الخلافة. قتل بالحيلة، كما سيقتل غيره من الوزراء الذي نجحوا في القيام بواجباتهم، لكن خوف الخلفاء من نجاحهم دفعهم إلى الفتك بهم، وأبرزهم البرامكة الذي صدف أيضاً أنهم ينتمون إلى الأصل الفارسي.

١٠ - خروج سنباذ بخراسان:

لمّا بلغ خبر قتل أبي مسلم خراسان وغيرها من الجبال، اضطربت الخرمية[١]، وهي طائفة كانت تدعى بالمسلمية القائلين بإمامة أبي مسلم. وقد تنازعوا في أمر وفاته، فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر ويملأ الأرض عدلاً. ومنهم من قالوا إنه مات ونادوا بإمامة ابنته فاطمة فدعوا «الفاطمية»[٢]. كتب المسعودي عن الخرمية:[٣]

«وأكثر الخرمية ببلاد خراسان والريّ وأصبهان وأذربيجان وكرخ أبي دلف والبرج، ثم الورسنجان والصيروان والصيمرة وأريوجان من بلاد ماسبذان وغيرها من الأمصار، وأكثر هؤلاء في القرى والضياع».

وحين علمت الخرمية بقتل أبي مسلم، اجتمعت بخراسان فخرج رجل يقال له سنباذ من نيسابور يطالب بدم أبي مسلم. وكان سنباذ مجوسياً فكثر أتباعه عندما ظهر مطالباً بثأر أبي مسلم.

نقل ابن الأثير تفاصيل خروج سنباذ والقتال بينه وبين الجيش العباسي الذي أرسله المنصور بقيادة جمهور العجلي، فكتب:[٤]

«وفي هذه السنة[٥] خرج سنباذ بخراسان يطالب بدم أبي مسلم (وكان

(١) الخرمية: طائفة من أتباع بابك الخرمي.
(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٣، ص٣٥٩.
(٣) المسعودي، المرجع نفسه.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١١٣-١١٤.
(٥) سنة ١٣٧ هـ.

مجوسياً من قرية من قرى نيسابور يقال لها: أهروانه)، كان ظهوره غضباً لقتل أبي مسلم لأنه كان من صنائعه. وكثر أتباعه، وكان عامتهم من أهل الجبال، وغلب على نيسابور، وقومس، والري، وتسمى فيروز اصبهبذ. فلما صار بالري أخذ خزائن أبي مسلم، وكان أبو مسلم خلفها بالري حين شخص إلى أبي العباس، وسبى الحرم، ونهب الأموال ولم يعرض للتجار، وكان يظهر أنه يقصد الكعبة ويهدمها. فوجه إليه المنصور جمهور بن مرارٍ العجلي في عشرة آلاف فارس فالتقوا بين همذان والري على طرف المفازة وعزم جمهور على مطاولته. فلما التقوا قدّم سنباذ السبايا من النساء المسلمات على الجِمَال، فلما رأين عسكر المسلمين قمن في المحامل ونادين: وامحمداه ذهب الإسلام. ووقعت الريح في أثوابهن فنفرت الإبل وعادت على عسكر سنباذ فتفرق العسكر، وكان ذلك سبب الهزيمة. وتبع المسلمون الإبل ووضعوا السيوف في المجوس ومن معهم فقتلوهم كيف شاءوا.

وكان عدد القتلى نحواً من ستين ألفاً. وسبى ذراريهم، ونساءهم. ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس، وكان بين مخرج سنباذ وقتله سبعون ليلة. وكان سبب قتله أنه قصد طبرستان ملتجئاً إلى صاحبها فأرسل إلى طريقه عاملاً له اسمه طوس فتكبر عليه سنباذ فضرب طوس عنقه، وكتب إلى المنصور بقتله وأخذ ما معه من الأموال. وكتب المنصور إلى صاحب طبرستان يطلب منه الأموال فأنكرها فسيّر الجنود إليه فهرب من الديلم».

وكان خروج سنباذ ومقتله في السنة السابعة والثلاثين ومائة للهجرة.

١١ - خلع جمهور بن مرار الخليفة المنصور:

في السنة الثامنة والثلاثين بعد المائة خلع جمهور(١) بن مرار المنصور بالري بعد أن كان قد أخضع سنباذ. نقل ابن الأثير تفاصيل القتال بين جيش العباسيين بقيادة

(١) في الطبري وابن كثير: جهور.

محمد بن الأشعث وجمهور والذي انتهى بمقتل هذا الأخير، فكتب:[1]

«وكان سبب ذلك أن جمهور لما هزم سنباذ حوى ما في عسكره وكان فيه خزائن أبي مسلم فلم يوجهها إلى المنصور فخاف فخلع. ووجه إليه المنصور محمد بن الأشعث في جيش عظيم نحو الري ففارقها جمهور نحو أصبهان، ودخل محمد الري. وملك جمهور أصبهان؛ فأرسل إليه محمد عسكراً وبقي في الري. فأشار على جمهور بعض أصحابه أن يسير في نخبة عسكره نحو محمد فإنه في قلة فإن ظفر لم يكن لمن بعده بقية فسار إليه مجداً. وبلغ خبره محمداً فحذر واحتاط وأتاه عسكر من خراسان فقوي بهم فالتقوا بقصر الفيروزان بين الري وأصبهان، فاقتتلوا قتالاً عظيماً ومع جمهور نخبة فرسان العجم، فهزم جمهور وقتل من أصحابه خلق كثير وهرب جمهور فلحق بأذربيجان. ثم إنه بعد ذلك قتل «باسباذروا»، قتله أصحابه وحملوا رأسه إلى المنصور».

١٢ - وقعة الراوندية:

الراوندية هم قوم من خراسان على رأي أبي مسلم صاحب الدعوة، يقولون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك، وأن ربهم الذي يسقيهم ويطعمهم هو المنصور، وأن جبرائيل هو الهيثم بن معاوية. فلما ظهروا أتوا قصر المنصور فقالوا: هذا قصر ربنا، فأخذ المنصور رؤساءهم وحبس منهم مائتين[2].

نقل الطبري بداية تحركهم، فكتب:[3]

«قال: وأتوا قصر المنصور، فجعلوا يطوفون به، ويقولون: هذا قصر ربنا؛ فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فصغب أصحابهم وقالوا: علام حُبسوا! وأمر

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١١٦.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٩٥.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٩٥.

المنصور ألاّ يجتمعوا، أعدّوا نعشاً وحملوا السرير، وليس في النّعش أحد. ثم مروا في المدينة، حتى صاروا على باب السجن، فرموا بالنعش، وشدّوا على الناس، ودخلوا السجن، فأخرجوا أصحابهم. وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل، فتنادى الناس، وغلّقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد. فخرج المنصور من القصر ماشياً، ولم يكن في القصر دابة، فجعل بعد ذلك اليوم يرتبط فرساً يكون في دار الخلافة معه في قصره».

وقد تكاثرت الراوندية على المنصور حتى كادوا يقتلونه، إذ جرى قتال شديد أمام القصر، ذكره ابن الأثير الذي كتب مفصلاً:(١)

«وجاء معاوية بن زائدة الشيباني وكان مستتراً من المنصور بقتاله مع ابن هبيرة كما ذكرناه والمنصور شديد الطلب له وقد بذل فيه مالاً كثيراً. فلما كان هذا اليوم حضر عند المنصور متلثماً وترجل وقاتل قتالاً شديداً وأبلى حسناً. وكان المنصور راكباً على بغلة ولجامها بيد الربيع حاجبه، فأتى معن وقال: تنحّ فأنا أحق بهذا اللجام منك في هذا الوقت وأعظم غناءً، فقال المنصور: صدق فادفعه إليه، فلم يزل يقاتل حتى تكشفت الحال وظفر بالراوندية. فقال له المنصور: من أنت؟ قال: طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة. فقال: آمنك الله على نفسك، ومالك، وأهلك مثلك يصطنع. وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم فوقف على باب المنصور قال: أنا اليوم بواب. ونودي في أهل السوق فرموهم وقاتلوهم، وفتح باب المدينة فدخل الناس، فجاء خازم بن خزيمة فحمل عليهم حتى ألجأهم إلى الحائط ثم حملوا عليه فكشفوه مرتين. فقال خازم للهيثم بن شعبة: إذا كروا علينا فاستبقهم إلى الحائط، فإذا رجعوا فاقتلهم. فحملوا على خازم فاطرد لهم وصار الهيثم من ورائهم فقتلوا جميعاً. وجاءهم يومئذ عثمان بن نهيك فكلمهم فرموه بسهم عند رجوعه فوقع بين كتفيه فمرض أياماً ومات منها. فصلى عليه المنصور، وجعل على حرسه بعده

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٢٩-١٣٠.

عيسى بن نهيك فكان على الحرس حتى مات»[١].

١٣ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - لم يتمكن الخليفة العباسي الأول من إرسال الجيوش الإسلاميّة إلى الخارج بهدف التوسع ومد حدود الدولة، وذلك بسبب عدم استتباب الوضع الداخلي في دولته.

فتوسع الدول وإرسال الحملات العسكرية إلى خارج حدودها ينبغي أن يترافق مع هدوء الجبهة الداخلية وتوحّد البلاد وعدم قيام تحركات عسكرية مناوئة للحكم. لقد لاحظنا أن المراحل التي تمكنت خلالها الخلافتان الأموية والعباسية من متابعة الفتوحات وتحقيق إنجازات عسكرية ملموسة هي تلك التي شهدت ساحتها الداخلية خلالها استقراراً سياسياً وعسكرياً وأمنياً.

هذه الحقيقة ظهرت جلية في تواريخ الإمبراطوريات الكبرى. فخلال التاريخ العربي الإسلامي، وبعد وفاة النبي ﷺ، توقّف إرسال السرايا إلى خارج شبه الجزيرة العربية بسبب حركة ردة القبائل عن الإسلام التي أمضى الخليفة الأول أبو بكر

(١) كان معن متخفياً من المنصور لما كان منه من قتاله مع ابن هبيرة. وكان اختفاؤه عند أبي الخصيب حاجب المنصور، على أن يطلب له الأمان. فلما خرجت الراوندية جاء معن فوقف بالباب فسأل المنصور أبا الخصيب: من بالباب؟ فقال: معن بن زائدة. فقال المنصور: رجل من العرب شديد النفس عالم بالحرب كريم الحسب أدخله. فلما دخل قال: إيه يا معن ما الرأي؟ قال: الرأي أن تنادي في الناس فتأمر لهم بالأموال، فقال: وأين الناس والأموال؟ ومن يقدم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج؟ لم تصنع شيئاً يا معن، الرأي أن أخرج فأقف للناس فإذا رأوني قاتلوا وتراجعوا إليّ، وإن أقمت تهاونوا وتخاذلوا. فأخذ معن بيده وقال: لا يا أمير المؤمنين إذاً والله تقتل الساعة فأنشدك الله في نفسك. فقال له أبو الخصيب مثلها، فجذب ثوبه منهما وركب دابته وخرج ومعن آخذ بلجام دابته وأبو الخصيب مع ركابه. وأتاه رجل فقتله معن حتى قتل أربعة في تلك الحالة حتى اجتمع إليه الناس فلم يكن إلاّ ساعة حتى أفنوهم. ثم تغيّب معن فسأل المنصور عنه أبا الخصيب فقال: لا أعلم مكانه، فقال المنصور: أيظن معن أن لا أغفر ذنبه بعد بلائه، أعطه الأمان وأدخله عليّ، فأدخله إليه فأمر له بعشرة آلاف درهم ثم ولاّه اليمن.

سنة كاملة في إنهائها. وخلال الفتنة الكبرى في الإسلام انشغلت الجيوش العربية في خوض المعارك الجانبية التي تواجه خلالها الخليفة علي بن أبي طالب والوالي معاوية بن أبي سفيان، فتوقفت الفتوحات إلى أن استتب الوضع لمصلحة معاوية.

وسنلاحظ في ما سيتبع من أجزاء هذه الموسوعة أن هذه الحقيقة تثبت أيضاً خلال العصور العباسية. فعندما كانت تطغى الصراعات بين المسلمين على الساحة الداخلية، كانت تتوقف حركة الفتوحات وينتقل العالم الإسلامي من استراتيجية الهجوم إلى استراتيجية الدفاع عن الثغور. وحين كان يسود المناطق الإسلاميّة سلام، ويتولى مقاليد الحكم خليفة مقتدر، كانت الجيوش الإسلاميّة تغزو المناطق المجاورة، فتتوسع وتخضع الثائرين وتوحّد الجهود في سبيل نشر الدين ورفع راية الإسلام.

ب - عندما أقدم القائد خازم بن خزيمة على قتل أنسباء للخليفة السفّاح، اعتمد هذا الأخير استراتيجية جديدة في معاقبته. فبدلاً من قتله وإغضاب الشيعة الذين قامت خلافته على أكتافهم، أرسله في مهمة شبه مستحيلة، على أن يعفو عنه في حال نجاحه في تنفيذها.

والسفّاح ليس أول من يرسل قائداً مُداناً في مهمة شبه انتحارية فيكون بذلك قد «ضرب عصفورين بحجر واحد»، وفق المثل الشعبي. فقد سبق وأبعد خلفاء آخرون قادة عسكريين عن مركز الخلافة عبر إرسالهم في مهمات صعبة بهدف التخلص منهم. وقد حقق بعض هؤلاء إنجازات عسكرية جاءت لمصلحة الدولة العامة.

ولم يكن الخلفاء العرب الوحيدين الذين طبّقوا استراتيجية إبعاد القادة العظام بهدف التخلص منهم. فقد سجلت حالات أخرى خلال عصور التاريخ العسكري نذكر منها الحالات الآتية:

١ - أبعدت الحكومة الفرنسية إثر ثورة ١٧٨٩ القائد الكبير نابوليون بونابرت خوفاً من سلطته النامية، أولاً إلى إيطاليا وثم إلى مصر حيث نجح في تحقيق إنجازات كبيرة. وقد صرّح أحد أركان الثورة بعد أن سارت الحملة باتجاه مصر قائلاً: «السيف يبتعد».

٢ - خلال الحروب البونية أبعدت قرطاجة القائد هنيبعل إلى إيطاليا.

٣ - اعتمد مجلس الشيوخ الروماني سياسة منع قادة جيوشهم من الدخول إلى مدينة روما مع فِرَقهم خوفاً من قيامهم بانقلابات عسكرية.

ج - اعتمد القائد خازم بن خزيمة، خلال حملته على الخوارج في ساحل عمان، استراتيجية مبتكرة إذ قام بنقل ساحة القتال من ميدان المعركة إلى منازل أخصامه التي رماها بسهام مشتعلة فاضطرمت النار فيها، فشُغل المقاتلون بإنجاد أهلهم وأولادهم عن قتال الجيش العباسي. وهكذا تمكن خازم من تحقيق مبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل» منتصراً بذلك على خصومه.

ويمكننا مقارنة هذه المعركة مع معركة بلاط الشهداء التي تواجه فيها مسلمو الأندلس، بقيادة عبد الرحمن الغافقي، والفرنجة بقيادة شارل مارتيل. فخلال تلك المعركة، وفيما كانت الحرب سجالاً بين الخصمين، أرسل الفرنجة مفرزة من فرسانهم نحو معسكر غنائم المسلمين. ولما كانت هذه الغنائم قيّمة جداً، فقد غادرت مجموعات قتالية إسلامية ساحة المعركة لحمايتها، فتضعضعت صفوف عبد الرحمن وخسر جيشه المعركة.

د - خلال حملة أبي مسلم الخراساني على الوالي العاصي زياد بن صالح في ما وراء نهر بلخ، نفذ أبو مسلم هجوماً وقائياً استباقياً لاحتلال حصن مدينة الترمذ خوفاً من سيطرة زياد عليه.

هذه الاستراتيجية العملانية يعتمدها القائد المتبصّر فيقوم باحتلال المراكز الاستراتيجية التي يساهم التحكم بها في ربح المعركة وذلك تأميناً لحرية عمله.

هـ - بدأ الصراع على السلطة في الدولة العباسية منذ عصرها الأول. فبعد وفاة الخليفة الأول أبي العباس السفاح واستخلاف أبي جعفر المنصور، خرج عليه عمّه عبد الله بن علي، بطل معركة الزاب الأعلى، بحجة تسميته من قبل السفاح ولياً لعهده.

رافق هذا الصراع على السلطة الخلافة العباسية طيلة عصرها الأول الذي شهد مجابهة عسكرية عنيفة وطويلة بين الأمين والمأمون ابنَيْ هارون الرشيد برزت خلالها الخلافات بين العرب والفرس المتجذرة في التاريخ العربي والفارسي.

فخلال العصور العباسية، انتشرت حركة مضادة للعرب دعيت بـ «الشعوبية»، وجمعت أعراقاً وإثنيات مختلفة كانت قد اعتنقت الإسلام وانضوت تحت لواء دولته. وقد تمكنت بعض الفئات القائمة بهذه الحركة من السيطرة على مقدرات الخلافة والعالم الإسلامي، ومن هذه الفئات نذكر الفرس والترك وآل بويه وزنكي.

و - أبدى القائد عبد الله بن علي، ومنذ بدء صراعه ضد جيش الخلافة في حرّان، اهتماماً خاصاً باللوجستية فأمّن كل ما يحتاج إليه جيشه من أطعمة وأسلحة وتموين لمدة طويلة من الزمن. أما على الصعيد العملاني، فإنه عمل على تنقية جيشه من العملاء والمشككين فقتل، وفق ابن كثير، سبعة عشر ألفاً من هؤلاء.

إلاّ أن عدم انصياع عناصره لأوامره أجبره على الانتقال بجيشه من المركز المحصّن الذي كان قد حضّره، والذي دخله أبو مسلم وتحصن بداخله. وهكذا فَقَدَ عبد الله حليفاً مهماً في قتاله ضد أبي مسلم وهو الأرض التي سبق القول إنها «حليفة من يحسن استغلالها».

في المقابل أحسن أبو مسلم بالانتقال إلى الموقع المحصّن متقيداً بمبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل». كما أحسن باختيار مكان مرتفع يراقب منه جيشه فيصلح الخلل الذي يكتشفه في إدارته خلال المعركة تطبيقاً لمبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل».

وخلال القتال، لجأ أبو مسلم إلى الخدعة إذ أوهم خصمه بأنه يعزّز ميسرته، الأمر الذي دفع بعبد الله بن علي إلى نقل قسم كبير من قواته إلى ميمنته. ثم أمر أبو مسلم قلب جيشه بتعزيز ميمنته التي شنّت هجوماً صاعقاً على ميسرة ابن علي فسحقتها وهزمت جيشه.

ز- بعد مقتل عبد الله بن علي خاف أبو جعفر المنصور من أطماع أبي مسلم، فعمل

على تصفيته. وهكذا يكون المنصور قد تخلّص من بطَلَيْ الثورة العباسية اللذين خاضا المعارك العنيفة ضد الأمويين محققين نجاحها. وذلك تمشياً مع مبدأ مكيافيل في كتاب «الأمير» الذي ينص على أن الذي يصل إلى الحكم يعمل على تصفية الذين ساعدوه في بلوغ مرماه متخلصاً منهم كونهم سيشكلون عبئاً على حكمه.

ويرى كثيرون أن قيام الخليفة بتصفية أبي مسلم يندرج ضمن مسلسل الصراع بين العرب والفرس الذي بدأ منذ عصور الجاهلية واستمر متأججاً حتى أواخر العصور العباسية. فخوف الخليفة كان مبرّراً إذ إن أبا مسلم تمكن من تأليب تكتل فارسي قوي حوله في الولايات الشرقية للدولة، الأمر الذي نبّه الخليفة إلى إمكانية انفصال هذه الولايات عن ملكه.

وبالفعل، وبعد مقتل أبي مسلم، ثارت الخرمية في خراسان وخرج المجوسي سنباذ على الحكم مطالباً بدم أبي مسلم، فاستولى على نيسابور وقومس والري، ونهب الأموال التي كان قد خلّفها أبو مسلم في الري.

وكان أبو مسلم قد رفض الانتقال إلى مصر التي عيّنه الخليفة والياً عليها، وانتقل إلى خراسان حيث مركز قوته مهدداً بالخروج عن طاعة المنصور. لكنه عاد وخُدع بعد أن أرسل أحد أخصائه إلى المنصور الذي كرّمه وأظهر احترامه لأبي مسلم. وهكذا استعمل الخليفة الخدعة للإيقاع بأبرز ولاته تمشياً مع قاعدة أن «الحرب خدعة».

أما أبو مسلم، فقد تخلّى عن حمايته في بلاده وانتقل إلى بغداد، ففقد حرية عمله ومصادر قوته وأصبح دون حماية أمام خليفة متعطش للقضاء عليه.

ويمكننا السؤال: ماذا لو أن أبا مسلم رفض الانصياع والشخوص إلى بغداد؟

إنما، ومهما قيل، فإن أبا مسلم قتل غيلة رغم كل ما أبداه من حماس واندفاع في سبيل المصلحة العباسية.

الفصل الثاني
متابعة العمليات العسكرية في عهد المنصور

بعد أن تسلّم المنصور الخلافة وقتل أبا مسلم الخراساني وعمّه عبد الله بن علي وأخضع المنتفضين على خلافته، تمكن من تثبيت الحكم العباسي في شكل دائم، فانطلق في عملية تطويره نحو الأفضل. واختلفت نظرية الحكم لدى العباسيين عنها لدى الأمويين. ففيما كان الخليفة الأموي يحكم منفرداً وكأنه رئيس قبيلة كبيرة ويستمد سلطته من رؤساء القبائل الذين يخضعون له مع قبائلهم، أصبح الخليفة العباسي يستمد سلطته من الله ويتربّع سعيداً على رأس إدارة نقل العباسيون تفاصيلها عن المملكة الساسانية. وقد عاون الخليفة وزير له المركز الثاني بعد الخليفة، رغم أن هذا المنصب كان غير معروف عند العرب، وصولاً إلى العصر الأموي.

علاوة على الوزير، عرفت الإدارة العباسية مفهوم الجيش النظامي الذي أنشأه في البداية أبو مسلم الخراساني، والذي أصبح خلال العصر العباسي من أهم ركائز الدولة. كما عرفت ديوان الجند وديوان الخزانة، وغيرها من التنظيمات التي ساهمت في ترسيخ الوجود العباسي وفي تمكين الدولة من القيام بالإنجازات العسكرية التي سنتكلم عنها في هذا الفصل.

١ - انتفاض خراسان:

في السنة الحادية والأربعين بعد المائة وجّه الخليفة المنصور ولي عهده المهدي إلى خراسان لإخضاع انتفاضة عاملها عبد الجبار بن عبد الرحمن.

أسباب انتفاضة عبد الجبار شرحها ابن خلدون، فكتب:[١]

«كان السفّاح قد ولّى على خراسان أبا داود خالد بن إبراهيم الذهلي، بعد انتقاض بسّام بن إبراهيم ومهلكه. فلما كان سنة أربعين ثار به بعض الجند وهو بكَشْماهن وجاءوا إلى منزله، فأشرف عليهم ليلاً من السطح، فزلّت قدمه فسقط ومات ليومه. وكان عصام صاحب شرطته، فقام بالأمر بعده. ثم ولى المنصور على خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن، فقدم عليها وحبس جماعة من القواد اتهمهم بالدعاء للعلوية منهم مُجاشعُ بن حُريث الأنصاري عامل بُخارى، وأبو المعرة خالد بن كُثَيِّر مولى بني تميم عامل قَهَسْتان، والحُرَيْش بن محمد الذهلي ابن عم أبي داود في آخرين.

ثم قتل هؤلاء وألح على عمال أبي داود في استخراج المال، وانتهت الشكوى إلى المنصور بذلك».

تابع الطبري وصف تدابير المنصور في شأن هذه الشكوى فكتب:[٢]

«إنّ المنصور لما بلغه أن عبد الجبار يقتل رؤساء أهل خراسان، وأتاه من بعضهم كتاب فيه: قد نغِل الأديمُ، قال لأبي أيوب الخزاعيّ: إن عبد الجبار قد أفنى شيعتنا، وما فعل هذا إلاّ وهو يريد أن يخلع. فقال له: ما أيسر حيلته! اكتب إليه: إنك تريد غزو الرّوم؛ فيوجه إليك الجنود من خراسان، وعليهم فرسانهم ووجوههم. فإذا خرجوا منها فابعث إليهم مَن شئت؛ فليس به امتناع. فكتب بذلك إليه. فأجابه: إن الترك قد جاشت؛ وإن فرّقت الجنود ذهبت خراسان. فألقى الكتاب إلى أبي أيوب، وقال له: ما ترى؟ قال: قد أمكَّنك من قياده، اكتب إليه: إن خراسان أهم إليّ من غيرها، وأنا موجّه إليك الجنود من قبَلي. ثم وجّه إليه الجنود ليكونوا بخراسان؛ فإنْ هَمّ بخلع أخذوا بعنقه.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٩٦-٣٩٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٩٧.

فلما ورد على عبد الجبار الكتاب كتب إليه: إن خراسان لم تكن قط أسوأ حالاً منها في هذا العام؛ وإن دخلها الجنود هلكوا لضيق ما هم فيه من غلاء السعــر. فلما أتاه الكتاب ألقاه إلى أبي أيوب، فقال له: قد أبدى صفحته، وقد خلع فلا تناظره.

فوجّه إليه محمد بن المنصور، وأمره بنزول الرّيّ؛ فسار إليها المهديّ، ووجه لحربه خازم بن خزيمة مقدمة له، ثم شخص المهدي فنزل نيسابور. ولما توجه خازم بن خزيمة إلى عبد الجبار، وبلغ ذلك أهل مَرْو الرّوذ؛ ساروا إلى عبد الجبار من ناحيتهم فناصبوه الحرب، وقاتلوه قتالاً شديداً حتى هُزم، فانطلق هارباً حتى لجأ إلى مقطنة، فتوارى فيها. فعبر إليه المجشر بن مزاحم من أهل مَرْو الرّوذ؛ فأخذه أسيراً؛ فلما قدم خازم أتاه به، فألبسه خازم مدرّعة صوف، وحمله على بعير، وجعل وجهه من قِبَل عجُز البعير؛ حتى انتهى به إلى المنصور ومعه ولده وأصحابه. فبسط عليهم العذاب، وضُربوا بالسياط حتى استخرج منهم ما قدر عليه من الأموال. ثم أمر المسيّب بن زهير بقطع يدي عبد الجبار ورجليه وضرب عنقه؛ ففعل ذلك المسيّب. وأمر المنصور بتسيير وُلده إلى دَهْلك، وهي جزيرة على ضفة البحر ناحية اليمن. فلم يزالوا بها حتى أغار عليهم الهند، فسبوهم فيما سبوا حتى فودوا بعد، ونجا منهم من نجا. فكان ممن نجا منهم واكتتب في الديوان وصحِب الخلفاء عبد الرحمن بن عبد الجبار، وبقي إلى أن توفي بمصر في خلافة هارون، في سنة سبعين ومائة».

٢ - فتح طبرستان:

في السنة الواحدة والأربعين بعد المائة للهجرة تمّ فتح طبرستان من قِبَل جيشين إسلاميين، الأول بقيادة المهدي وفيه أبو الخصيب وخازم بن خزيمة، والثاني بقيادة عمر بن العلاء.

نقل ابن الأثير رواية القتال الذي انتهى بفتح بلاد الإصبهبذ صاحب طبرستان، فكتب:(١)

«ولما ظفر المهدي بعبد الجبار بغير تعب ولا مباشرة قتال كره المنصور أن تبطل تلك

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٣٢.

النفقات التي أنفق على المهدي فكتب إليه أن يغزو طبرستان وينزل الري ويوجه أبا الخصيب، وخازم بن خزيمة، والجنود إلى الإصبهبذ. وكان الإصبهبذ يومئذ محارباً للمصمغان ملك دنباوند معسكراً بإزائه، فلما بلغه دخول الجنود بلاده ودخول أبي الخصيب سايره فقال المصمغان للإصبهبذ: متى قهروك صاروا إليّ. فاجتمعوا على حرب المسلمين، فانصرف الإصبهبذ إلى بلاده فحارب المسلمين فطالت تلك الحروب. فوجه المنصور عمر بن العلاء إلى طبرستان، وكان عالماً ببلاد طبرستان فأخذ الجنود وقصد الرويان وفتحها وأخذ قلعة الطلق وما فيها. وطالت الحرب فألحّ خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر، وسار الإصبهبذ إلى قلعته فطلب الأمان على أن يسلّم القلعة بما فيها من الذخائر. وكتب المهدي بذلك إلى المنصور، فوجّه المنصور صالحاً صاحب المصلى فأحصوا ما في الحصن وانصرفوا، ودخل الإصبهبذ بلاد جيلان من الديلم».

وفي السنة التالية نكث الإصبهبذ العهد مع المسلمين وقتل من كان ببلاده منهم، فسيّر المنصور إليه جيشاً أعاد فتح بلاده، نقل الطبري أخباره، فكتب:[1]

«نقض إصبهبذ طبرستان العهد بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده من المسلمين. ذكر الخبر عن أمره وأمر المسلمين:

ذكر أن أبا جعفر لما انتهى إليه خبر الإصبهبذ وما فعل بالمسلمين، وجّه إليه خازم بن خزيمة وروْح بن حاتم ومعهم مرزوق أبو الخصيب مولى أبي جعفر. فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه في حصنه، وهم يقاتلونهم حتى طال عليهم المقام. فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه: اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي؛ ففعلوا ذلك به، ولحق بالإصبهبذ صاحب الحصن فقال له: إني رُكِب مني أمر عظيم، ضُرِبتُ وحُلِق رأسي ولحيتي. وقال له: إنما فعلوا ذلك بي تهمة منهم لي أن يكون هواي معك، وأخبره أنه معه، وأنه دليل له على

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٩٩-٤٠٠.

عورة عسكرهم. فقبل منه ذلك الإصبهذ، وجعله في خاصته وألطفه. وكان باب ميدنتهم من حجر يلقى إلقاء يرفعه الرجال، وتضعه عند فتحه وإغلاقه؛ وكان قد وكّل به الإصبهذ ثقات أصحابه، وجعل ذلك نوباً بينهم. فقال له أبو الخصيب: ما أراك وثقت بي، ولا قبلت نصيحتي! قال: وكيف ظننت ذلك؟ قال: لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك، وتوكيلي فيما لا تثق به إلاّ بثقاتك. فجعل يستعين به بعد ذلك، فيرى منه ما يحب إلى أن وثق به، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه؛ فتولى له ذلك حتى أنس به. ثم كتب أبو الخصيب إلى روْح بن حاتم وخازم بن خزيمة، وصيّر الكتاب في نشّابة، ورماها إليهم، وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة، ووعدهم ليلة، سمّاها لهم في فتح الباب. فلما كان في تلك الليلة فتح لهم، فقتلوا من فيها من المقاتلة، وسبوا الذراري».

٣ - ظهور محمد المهدي ومقتله:

في السنة الخامسة والأربعين بعد المائة ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب «المهدي» بالمدينة. وكان المنصور قد حمل معه بني الحسن إلى العراق، لكنه ردّ «رياحا» أميراً على المدينة. فألح هذا الأخير في طلب محمد وضيّق عليه حتى سقط ابنه فمات وتدلّى هو في بئر ماء بالمدينة وانغمس في الماء حتى حلقه(١).

ثم اشتدّ عليه الطلب من أصحابه بالخروج فخرج، فقام رياح بطلبه وطلب من قاضي المدينة محمد بن عمران بن إبراهيم ابن محمد أن يحضره، فأحضر القاضي عشيرة بني زُهرة في جمع كثير وأجلسهم بالباب للقبض على محمد(٢).

وبالفعل قدم محمد المهدي المدينة في مائة وخمسين رجلاً(٣) وقصد السجن فاستولى

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٤٧.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٠٤.
(٣) في الطبري ٢٥٠ رجلاً.

عليه وأخرج منه محمداً بن خالد القِسري والنذير بن يزيد. وجعل على الرجالة خوات بن بكير وولى عبد الحميد بن جعفر الحربة، وأتى دار الإمارة فقبض على رياح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة فحبسهم، ثم خرج إلى المسجد وخطب بالناس.

وهكذا سيطر محمد المهدي على المدينة فاستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، ولم يتخلف عنه من وجوه الناس إلاّ نفر قليل[١].

عند هذا الحد خرج المنصور إلى الكوفة وأرسل إلى يزيد بن يحيى أن يشحن الأهواز بالمقاتلة. ثم كتب إلى محمد المهدي كتاب أمان فأجابه عنه بالرد والتعريض بالأنساب، فأجابه المنصور على كتابه بمثل ذلك[٢].

ثم استعمل محمد المهدي على مكة الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فسار إليها في جمع من الجنود فتصدى له عاملها السري بن عبد الله فانهزم هذا الأخير، وملك محمد المهدي مكة[٣].

ثم بعث المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى إلى المدينة لقتال محمد المهدي فسار في جند كثير، فلما وصل إلى قرب المدينة كتب إلى نفر من أهلها يستدعيهم فقدم عليه بعضهم.

واستشار المهدي أصحابه في المدافعة عن المدينة فأشاروا عليه بالمدافعة حول الخندق اقتداءً برسول الله ﷺ. فحفر الخندق الذي حفره النبي ﷺ وسلّمه للأحزاب، ومنع الناس من الخروج منها، لكن غالبية أهلها خرجوا إلى الجبال فبقي في شرذمة يسيرة منهم[٤].

نقل ابن خلدون تفاصيل القتال الذي جرى حول المدينة بين المهدي وعيسى بن موسى القائد الذي أرسله المنصور والذي انتهى بمقتل المهدي، فكتب:[٥]

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٢٦.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٠٧.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٢٧-٤٢٨.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٠٩.
(٥) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٤٠٩-٤١١.

«ونزل عيسى الأعرض، وكان محمد قد منع الناس من الخروج فخيّرهم، فخرج كثير منهم بأهلهم إلى الجبال، وبقي في شرذمة يسيرة.

ثم تدارك رأيه وأمر أبا الغلمش بردّهم فأعجزوه. ونزل عيسى على أربعة أميال من المدينة، وبعث عسكراً إلى طريق مكة يعترضون محمداً إن انهزم إلى مكة، وأرسل إلى المهدي بالأمان والدعاء إلى الكتاب والسنة، ويحذّره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى بالجرف لاثنتي عشرة من رمضان سنة خمس وأربعين فقام يومين، ثم وقف على مسلم ونادى بالأمان لأهل المدينة، وأن يخلّوا بينه وبين صاحبه فشتموه. فانصرف وعاد من الغد، وقد فرّق القواد من سائر جهات المدينة وبرز محمد في أصحابه ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير وشعارهم أحد أحد.

وطلب أبو الغلمش من أصحابه البِراز، فبرز إليه أخو أسد فقتله، ثم آخر فقتلوا، وقال أنا ابن الفاروق. وأبلى محمد المهدي يومئذ بلاء عظيماً، وقتل بيده سبعين رجلاً. ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قَحْطَبة فتقدم في مائة من الرجال إلى حائط دون الخندق فهدمه، وأجازوا الخندق وقاتلوا من وراءه»، وصابرهم أصحاب محمد إلى العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فرموا الخندق بالحقائب، ونصبوا عليها الأبواب، وجازت الخيل واقتتلوا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنّط. ثم رجع فقال: اترك أهل المدينة والله لا أفعل أو أقتل، وأنت مني في سعة، فمشى قليلاً معه. ثم رجع وافترق عنه جل أصحابه، وبقي في ثلثمائة أو نحوها. فقال له بعض أصحابه نحن اليوم في عدة أهل بدر، وطفق عيسى بن حصين من أصحابه يناشده في اللحاق بالبصرة أو غيرها، فيقول والله لا تبتلون بي مرتين.

ثم جمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعهم. وجاء إلى السجن وقتل رياح بن عثمان وأخاه عباساً، وابن مسلم بن عقبة، وتوثق محمد بن القِسْريّ بالأبواب فلم يصلوا إليه. ورجع ابن حصين إلى محمد فقاتل معه، وتقدم محمد إلى بطن سَلَع، ومعه بنو شجاع من الخمس. فعرقبوا دوابهم، وكسروا جفون سيوفهم، واستماتوا وهزموا أصحاب

عيسى مرتين أو ثلاثة. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل، وانحدروا منه إلى المدينة. ورفع بعض نسوة إلى العباس خماراً لها أسود على منارة المسجد. فلما رآه أصحاب محمد وهم يقاتلون هربوا، وفتح بنو غفّار طريقاً لأصحاب عيسى، فجاءوا من وراء أصحاب محمد.

ونادى حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن حُضَيْن بالأمان فلم يصغ إليه، وكثرت فيه الجراح. ثم قتل وقاتل محمد على شلوه فهدّ الناس عنه هداً حتى ضرب، فسقط لركبته وطعنه ابن قحطبة في صدره. ثم أخذ رأسه وأتى به عيسى فبعثه إلى المنصور مع محمد بن الكرام عبدالله بن علي بن عبد الله بن جعفر، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن، وأرسل معه رؤوس بني شجاع، وكان قتل محمد منتصف رمضان. وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة للأمان، وصلب محمد وأصحابه ما بين ثَنية الوداع والمدينة، واستأذنت زينب أخته في دفنه بالبقيع. وقطع المنصور الميرة في البحر عن المدينة، حتى أذن فيها المهدي بعده».

هكذا قتل محمد المهدي الذي كان يحمل سيف الإمام على بن أبي طالب «ذو الفقار».(١)

٤ - ثورة السودان بالمدينة:

في السنة الخامسة والأربعين بعد المائة ثار الموالي من السودان في المدينة المنورة وسيطروا عليها بعد قتل جنودها. وكان والي المدينة يومذاك عبد الله بن الربيع الحارثي.

أما سبب الثورة فقد لخصه ابن الأثير، فكتب:(٢)

«إن المنصور استعمل عبد الله بن الربيع على المدينة، وقدمها لخمس بقين من شوال،

(١) كان مع المهدي سيف عليّ ذو الفقار، فأعطاه يومئذٍ رجلاً من التجار في دَيْن كان له عليه. فلما ولّي جعفر بن سليمان المدينة، أخذه منه وأعفاه من دَيْنه. ثم أخذه منه المهدي، وكان الرشيد يتقلّده وكان فيه ثمانِ عشرة فقرة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٦٤.

فنازع جنده التجار في بعض ما يشترونه منهم. فشكا ذلك التجار إلى ابن الربيع، فانتهرهم، وشتمهم، فتزايد طمع الجند فيهم، فعدوا على رجل صيرفي فنازعوه كيسه. فاستعان بالناس فخلّص ماله منهم؛ وشكا أهل المدينة ذلك منهم، فلم ينكره ابن الربيع. ثم جاء رجل من الجند، فاشترى من جزار لحماً يوم جمعة ولم يعطه ثمنه، وشَهَر عليه السيف فضربه الجزار بشفرة في خاصرته فقتله».

وتنادى السودانيون نهار الجمعة فاجتمعوا وهاجموا الجند بالعمد فقتلوهم فهرب ابن الربيع.

نقل الطبري تفاصيل ثورة السودان، فكتب:(١)

«وتنادى السودان عن الجند وهم يروحون إلى الجمعة فقتلوهم بالعمد في كل ناحية. فلم يزالوا على ذلك حتى أمسوا؛ فلما كان الغد هرب ابن الربيع.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: نفخ السودان في بوق لهم؛ فذكر لي بعضُ مَن كان في العالية وبعض من كان في السافلة، أنه كان يرى الأسود من سكانهما في بعض عمله يسمع نفْخ البوق، فيصغي له حتى يتيقنه ثم يوحش بما في يده، ويأتمّ الصوت حتى يأتيه. قال: وذلك يوم الجمعة لسبع بقين من ذي الحجة من سنة خمس وأربعين ومائة، ورؤساء السودان ثلاثة نفر: وثيق ويعقل ورمقة. قال: فغدوْا على ابن الربيع، والناس في الجمعة فأعجلوهم عن الصلاة، وخرج إليهم فاستطردوا له؛ حتى أتى السوق فمر بمساكين خمسة يسألون في طريق المسجد، فحمل عليهم بمن معه حتى قتلوهم. ثم مر بأُصَيْبِيَة على طَنَف دار، فظن أن القوم منهم؛ فاستنزلهم واختدعهم وآمنهم؛ فلما نزلوا ضرب أعناقهم. ثم مضى ووقف عن الحنّاطين، وحمل عليه السودان، فأجلى هارباً فاتّبعوه حتى صار إلى البقيع، ورهقوه فنثر لهم دارهم؛ فشغلهم بها،

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٥٥.

ومضى على وجهه حتى نزل ببطن نَخْل، عن ليلتين من المدينة.

قال: وحدّثني عيسى، قال: خرج السودان على ابن الربيع، ورؤساؤهم: وثيق وحدْيا وعُنقود وأبو قيس؛ فقاتلهم فهزموه، فخرج حتى أتى بطْن نخْل فأقام بها.

وحدّثني عمر بن راشد، قال: لما هرب ابن الربيع وقع السودان في طعام لأبي جعفر من سَويق ودقيق وزيت وقَسْب، فانتهبوه، فكان حِمْل الدقيق بدرهمين، وراوية زيت بأربعة دراهم.

وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق، قال: أغاروا على دار مروان ودار يزيد؛ وفيهما طعام كان حمل للجند في البحر، فلم يدعوا فيهما شيئاً. قال: وشخص سليمان بن فُليح بن سليمان في ذلك اليوم إلى أبي جعفر، فقدم عليه فأخبره الخبر.

قال: وحدّثني محمد بن يحيى، قال: حدّثني الحارث بن إسحاق قال: وقتل السودان نفراً من الجند، فهابهم الجند حتى أن كان الفارس ليلقي الأسود وما عليه إلاّ خرقتان على عورته ودرّاعة، فيولّيه دُبُره احتقاراً له، ثم لم ينشب أن يشدّ عليه بعمود من عُمُد السوق فيقتله. فكانوا يقولون: ما هؤلاء السودان إلاّ سَحَرَة أو شياطين!».

أما نهاية الثورة وعودة المدينة إلى الهدوء فكانت على يد بعض وجهاء المدينة بقيادة أبي بكر بن أبي سبرة عاملها السابق الذي كان واليها عبد الله بن الربيع قد ضربه وسجنه. فقد خرج ابن أبي سبرة من السجن وأرسل إلى محمد بن عمران ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما من وجهاء المدينة، فاجتمعوا عنده، فناشدهم التدخل لدى مواليهم.

ذهب هؤلاء إلى الموالي فكلموهم فقالوا: «مرحباً بموالينا، والله ما قمنا إلاّ أنفة مما عمل بكم، فأمرنا إليكم»(١). وأقبلوا بهم إلى المسجد فخطبهم ابن أبي سبرة وحثهم على الطاعة، فتراجعوا عن ثورتهم، كما ردوا ما انتهبوه من طعام الخليفة(٢). وعاد عامل

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٦٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٥٦.

المدينة إليها فقطع أيدي رؤساء الثوار وثيق ويعقل وغيرهما.

٥ - بناء مدينة بغداد:

في السنة الخامسة والأربعين بعد المائة بدأ المنصور ببناء مدينة بغداد وفرغ من البناء في السنة التالية.

أما سبب وتفاصيل بنائها فقد أورده ابن كثير الذي كتب:(١)

«وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرهم، بقيت منهم بقية فخشي على جنده منهم. فخرج من الكوفة يرتاد لهم موضعاً لبناء مدينة، فسار في الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موضعاً أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذي هي فيه الآن. وذلك بأنه موضع يُغدا إليه ويُراح بخيرات ما حوله في البر والبحر، وهو محصن بدجلة والفرات من ههنا وههنا. لا يقدر أحد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلاّ على جسر. وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالي فرأى الرياح ليلاً ونهاراً هوائها في تلك المحلة. وقد كان في موضعها قرى وديور لعباد النصارى وغيرهم، ذكر مفصلاً بأسمائه وتعداده أبو جعفر بن جرير رحمه الله. فحينئذ أمر المنصور باختطاطها فرسموها له بالرماد فمشى في طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك. ثم سلم كل ربع منها لأمير يقوم على بنائه، وأحضر من كل البلاد فعالاً وصناعاً ومهندسين، فاجتمع عنده ألوف منهم. ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيده وقال: بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال: ابنوا على بَرَكَة الله. وأمر ببنائها مدورة سمك سورها من أسفله خمسون ذراعاً، ومن أعلاه عشرون ذراعاً. وجعل لها ثمانية أبواب في السور البراني، ومثلها في الجواني، وليس كل واحد تجاه الآخر، ولكن جعله أزور(٢) عن الذي يليه، ولهذا سميت بغداد الزوراء،

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٠٠-١٠١.

(٢) أزور: مائل.

لازورار أبوابها بعضها عن بعض. وقيل سميت بذلك لانحراف دجلة عندها والله أعلم. وبنى قصر الإمارة في وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء، واختطّ المسجد الجامع إلى جانب القصر».

٦ - ظهور إبراهيم بن عبد الله بالبصرة ومقتله:

كان محمد المهدي قد أرسل أخاه إبراهيم بن عبد الله عاملاً على البصرة السنة ثلاثاً وأربعين ومائة حيث كان يدعو بالسر لأخيه. فلما قتل المهدي أظهر الدعوة إلى نفسه وراح يتنقل بين فارس وكرمان والجبل والحجاز واليمن والشام لأن الخليفة المنصور كان يلاحقه.[١]

وبايع عبد الله كثيرون من أهل البصرة واستفحل أمره فيها وبلغ خبره إلى الخليفة. وكان والي البصرة سفيان بن معاوية ممالئاً لإبراهيم في الباطن، لذلك لم يقم بأي جهد لخنق تحركه في مهده. وكان المنصور قد أمدّ سفيان بأميرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل. وتحول المنصور من بغداد إلى الكوفة وأخذ يقتل كل من بلغه أنه مُوالٍ لإبراهيم[٢].

وجعل الناس يقصدون البصرة لمبايعة إبراهيم، وجعل المنصور يرصد لهم المسالح فيقتلونهم في الطريق ويأتونه برؤوسهم فيصلبها في الكوفة ليتّعظ بها الناس. ثم أرسل الخليفة أبا حمّاد الأبرص في ألفي فارس مَدَداً لسفيان فاستولى إبراهيم ليلاً على دوابهم وأسلحتهم. وحاصر سفيان في دار الإمارة، فطلب الأمان فأمّنه إبراهيم ودخل قصر الإمارة وسيطر على البصرة بعد أن أودع سفياناً السجن وصادر ما كان في بيت المال[٣].

وكان في البصرة ابنا عم الخليفة جعفر ومحمد في ستمائة فارس، فهزمهما إبراهيم

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤١٣.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٦٥.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٩٥.

الذي بعث إلى أهل الأهواز فبايعوه وأطاعوه وتغلب بمائتي فارس على أربعة آلاف من حاميتها. ثم أرسل إلى بلاد فارس فأخذها وكذلك واسط والمدائن والسواد، فاستفحل أمره جداً.

أرسل المنصور لحرب إبراهيم عامراً بن إسماعيل المسلّي في خمسة آلاف، وقيل في عشرين ألفاً، فكانت بينهما وقعات كثيرة قبل أن يتهادنوا حتى ينظروا ما يكون من أمر إبراهيم والمنصور.

وكان المنصور قد ندم على توزيع جنده كما يلي:(١)

- ثلاثون ألفاً في الري مع ابنه المهدي.
- أربعون ألفاً مع محمد بن الأشعث مرسل إلى أفريقيا.
- جيش كبير مع عيسى بن موسى مرسل إلى الحجاز.
- لم يبقَ معه سوى ألفي فارس.

واعتمد المنصور طريقة إضرام النار ليلاً كي يحسب الناظر إليها أن ثمّة جنداً كثيراً.

استدعى الخليفة عيسى بن موسى وأرسله لقتال إبراهيم في البصرة، كما كتب إلى ابنه المهدي يأمره بتوجيه القائد خازم بن خزيمة في أربعة آلاف إلى الأهواز، فذهب إليها وأخرج منها نائب إبراهيم وأباحها لجنده ثلاثة أيام.(٢) كما أرسل جنداً إلى كل كورة نقضت بيعته لرد أهلها إلى الطاعة.

أخيراً سار إبراهيم في مائة ألف للقاء القائد عيسى بن موسى الذي انتدبه المنصور لقتاله فجرت معارك عدة كانت الغلبة فيها تارة لإبراهيم، وطوراً لعيسى، إلى أن قُتل إبراهيم وانتهى أمره. كتب ابن كثير ملخّصاً القتال الأخير:(٣)

«وأقبل إبراهيم بن عبد الله قاصداً من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٧١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤١٥.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٩٧.

خمسة عشر ألفاً، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وجاء إبراهيم فنزل في باجمرى في جحافل عظيمة، فقال له بعض الأمراء: إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك لأخذت بقفاه فإنه ليس عنده من الجيوش ما يردون عنه. وقال آخرون: إن الأولى أن نناجز الذين بإزائنا، ثم هو في قبضتنا. فثناهم ذلك على الرأي الأول. ولو فعله لتم لهم الأمر. ثم قال بعضهم: خندق حول الجيش. وقال آخرون: إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خندق حوله، فترك ذلك. ثم أشار بعضهم أن يبيت جيش عيسى بن موسى فقال إبراهيم: أنا لا أرى ذلك، فتركه. ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فإن غلب كردوس ثبت الآخر، وقال آخرون: الأولَى أن نقاتل صفوفاً. وأقبل الجيشان فتصافوا في باجمرى وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتالاً شديداً فانهزم حميد بن قحطبة بمن معه من المقدمة. فجعل عيسى يناشدهم الله في الرجوع والكَرَّة فلا يلوي عليه أحد. وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله، فقيل له: لو تنحيت من مكانك هذا لئلا يحطمك جيش إبراهيم، فقال: والله لا أزول منه حتى يفتح الله لي أو أُقتل ها هنا. وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره بعض المنجِّمين أن الناس يكون لهم جولة عن عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له. فاستمر المنهزمون ذاهبين فانتهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه فكروا راجعين بأجمعهم، وكان أول راجع حميد ابن قحطبة الذي كان أول من انهزم. ثم اجتلدوا(١) هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتل من كِلا الفريقين خلق كثير. ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في خمسمائة، وقيل في أربعمائة، وقيل في تسعين رجلاً، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه. وقتل إبراهيم في جملة من قتل واختلط رأسه مع رؤوس أصحابه، فجعل حميد يأتي بالرؤوس فيعرضها على عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس

(١) اجتلدوا: اقتتلوا.

إبــراهــيــم فــبــعــثــوه مــع الــبشير إلى المنصور».[1]

٧ - خروج استاذسيس بخراسان:[2]

في السنـة الخمسين والمائـة خـرج رجـل ادعى النبوءة في جهات خراسان فاجتمع إليه حوالي ثلاثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من خراسان. وسيطرت قواته على كامل خراسان، وسارت حتى التقت بأهل مرو الروز وعلى رأسهم عاملها الأجشم[3]، فاقتتلوا قتالاً شديداً، هزم في نهايته أهل مرو.[4]

إثر ذلك، سيّر الخليفة جيشاً من اثني عشر ألفاً بقيادة خازم بن خزيمة، انضمت إليـه قـوات أخرى، فتمكـن مـن هـزيمة استاذسيس.

نـقـل ابـن خـلـدون أخـبـار المعركـة بين الجانبين التي أقام خلالها المسلمون خندقاً ودافعوا عنه فانتصروا. كتب ابن خلدون:[5]

«وبعث المنصور وهو بالبرداق خازمَ بن خزيمة إلى المهدي في اثني عشر ألفاً، فولاه المهدي حربه فزحف إليه في عشرين ألفاً. وجعل على ميمنته الهيثم بن شعبة بن ظـهير، وعـلـى مـيسرتـه نـهـار بـن حِصـن السـعـدي، وفي مـقـدمـتـه بكّـار بـن مسـلـم العُقَيْلي، ودفع لواءه للزبرقان. ثم راوغهم في المزاحـفـة وجـاء إلى مـوضـع فـخـنـدق عـلـيـه وجـعـل لـه أربـعـة أبـواب، وأتـى أصـحـاب أسـتـاذَسـيس بـالـفـؤوس والمواعيـل لـيطموا

(١) ذكر صالح مولى المنصور قال: لما جيء برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنئونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور، والمنصور ساكت متغير اللون لا يتكلم، حتى دخل جعفر بن حنظلة الهراني فوقف فسلم ثم قال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرّط فيه من حقك. قال فاصفرَّ لون المنصور وأقبل عليه وقال له: يا أبا خالد مرحباً وأهلاً، ههنا فاجلس. فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقعاً جيداً. فجعل كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة. عن ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٧٥.

(٢) في ابن خلدون: استادسيس.

(٣) في الطبري وابن خلدون: الاجثم.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٩٠.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٢١.

الخندق، فبدؤوا بالباب الذي يلي بكار بن مسلم، فقاتلهم بكار وأصحابه حتى ردّوهم عن بابهم. فأقبلوا على باب خازم وتقدّم منهم الحُرَيش من أهل سجستان، فأمر خازم الهيثم بن شعبة أن يخرج من باب بكار ويأتي العدو من خلفهم، وكانوا متوقعين قدوم أبي عون وعمَر بن مسلم بن قُتَيبة. وخرج خازم على الحريش واشتدّ قتاله معهم. وبدت أعلام الهيثم من ورائهم، فكبّر أهل العسكر وحملوا عليهم فكشفوهم. ولقيهم أصحاب الهيثم فاستمر فيهم القتل، فقتل سبعون ألفاً وأسر أربعة عشر. وتحصّن استاذسيس على حكم أبي عون، فحكم بأن يوثق هو وبنوه ويعتق الباقون، وكتب إلى المهدي بذلك فكتب المهدي إلى المنصور».

أما ابن الأثير، فقد فصّل أخبار المعركة ونهايتها، فكتب:(١)

«وقد كانوا يتوقعون قدوم أبي عون، وعمرو بن سلم بن قتيبة من طخارستان.

وبعث خازم إلى بكار إذا رأيت رايات الهيثم قد جاءت، فكبّروا وقولوا: قد جاء أهل طخارستان. ففعل ذلك الهيثم، وخرج خازم في القلب على الحريش وشغلهم بالقتال وصبر بعضهم لبعض. فبينما هم على ذلك، نظروا إلى أعلام الهيثم فتنادوا بينهم: جاء أهل طخارستان. فلما نظروا إليها حمل عليهم أصحاب خازم فكشفوهم، ولقيهم أصحاب الهيثم، فطعنوهم بالرماح، ورموهم بالنشاب.

وخرج عليهم نهار بن حصين من ناحية الميسرة، وبكار بن سلم وأصحابه من ناحيتهم، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون، فأكثروا. وكان عدد من قتل سبعين ألفاً وأسروا أربعة عشر ألفاً. ونجا استاذسيس إلى جبل في نفر يسير فحصرهم خازم وقتل الأسرى، ووافاه أبو عون، وعمرو بن سلم، ومن معهما فنزل أستاذسيس على حكم أبي عون».

وحدّد الطبري مصير الأسرى إذ نقل أن حازماً ضرب أعناقهم وعددهم أربعة عشر ألفاً.(٢)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٩٠.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٩٦.

٨ - أحداث أخرى:

قبل انتهاء عهد أبي جعفر المنصور وقعت أحداث عسكرية رأينا وجوب لحظها في هذا الفصل رغم أنها كانت محلية ولا يمكن تصنيفها في خانة المعارك في كل معنى الكلمة. من هذه الأحداث:[١]

سنة ١٥١ هـ:

- أغارت الكرك على جدة.

- ولّى المنصور هشاماً بن عمرو التغلبي على السند. فخرجت عليه خارجة في بلاد السند، فوجه أخاه سفنجاً في جيش إليها. وفيما هو في الطريق التقى بعبد الله بن محمد العلوي في عشر من الجند فقاتله وقتله وقتل كل مرافقيه.

- بنى المنصور الرصافة لجنده. وسبب بنائها أن بعض الجند شغبوا على المنصور وحاربوه على باب الذهب، فخاف أن تجتمع كلمتهم فيخرج الأمر من يده فبنى له الرصافة وحوّل إليها قسماً من جيشه.

- سار عامل البصرة عقبة بن سلم إلى البحرين فسبى أهلها وبعث بعض السبي والأسرى إلى المنصور الذي قتل بعضهم.

- استعمل المنصور على سجستان معن بن زائدة[٢]، فلما وصلها كتب إلى رتبيل ملك الترك بإرسال الضريبة إليه، فبعث رتبيل عروضاً وزاد في ثمنها. سار معن إلى الرخج وعلى مقدمته ابن أخيه مزيد بن زائدة، فوجد رتبيل قد خرج عنها إلى زابلستان ليصيّف بها، ففتحها وأصاب سبياً كثيراً، فقتل بعضهم. ثم اغتيل معن بن زائدة على يد الخوارج.

السنة ١٥٢ هـ:

- غزا حميد بن قحطبة كابل.

السنة ١٥٣ هـ:

- عاد المنصور من مكة إلى البصرة فجهّز جيشاً في البحر إلى الكرك التي كان قد أغار أهلها في السنة ١٥١ هـ على جدة.

---

(١) عن مؤلّفات ابن كثير وابن الأثير وابن خلدون والطبري وآخرين.

(٢) كان معن بن زائدة من أجود العرب، وحكاياته في الكرم مشهورة.

- غزا الصائغة معيوف بن يحيى الحجوري، فوصل إلى حصن من حصون الروم ليلاً وأهله نيام، فسبى وأسر من كان فيه. ثم قصد اللاذقية الخراب فسبى ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين.[1]

السنة ١٥٦ هـ:

- بنى المهدي سوراً لكل من مدينتي البصرة والكوفة.
- طلب الإمبراطور البيزنطي الصلح إلى المنصور لقاء تأدية الجزية.
- قطعت الخطبة للمنصور في الأندلس بأمر من عبد الرحمن الداخل.

السنة ١٥٧ هـ:

- بنى المنصور قصر «الخلد».
- توفي الإمام الأوزاعي.

السنة ١٥٨ هـ:

- توفي المنصور لست خلون من ذي الحجة ببئر ميمون[2]، فكانت مدة خلافته اثنتي وعشرين سنة إلاّ أربعة وعشرين يوماً. وبويع لابنه محمد المهدي.

٩ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - اتخذ والي خراسان عبد الجبار بعض مظاهر الاستقلال عن الخلافة وراح يقتل أنصار الحكم العباسي فيها. حاول الخليفة استدراجه وإبعاد جيوشه عن خراسان تسهيلاً للقضاء عليه، فأمره بتوجيهها إلى بغداد كي تنضم إلى الحملة التي يريد الخليفة تسييرها إلى بلاد الروم. لكن الوالي تنبّه للمكيدة فادّعى أن الترك قد تحركوا ضده.

عاد الخليفة ووعده بإرسال جيش لتعزيزه مقابل الترك، الأمر الذي دفعه إلى الخروج عن الطاعة، فأرسل الخليفة حملة أخضعته وأسرته، فانتهت ثورته.

وهنا نعود للتأكيد على أن «الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى، أي بالعنف». فالقائد الناجح يحاول حل المشكلات التي

(١) انظر الملحق عن الصوائف والشواتي المرفق بهذا الجزء من الموسوعة.

(٢) بئر ميمون: في الطريق بين العراق ومكة، وقريب من مكة.

تعترضه بالسياسة والحكم والتعقل. إنما، في حال فشل هذه الوسائل، فعليه خوض غمار الحرب التي لا تشنّ محبة بالقتال، إنما لتحقيق الهدف السياسي الذي هو الغاية فيما الحرب هي الوسيلة. ولا يمكن اللجوء إلى الوسيلة في حال انتفاء الغاية أو الهدف.

ب - سيّر الخليفة جيشاً لفتح طبرستان التي كان يتنازعها قائدان هما الإصبهبذ والمصمغان اللذين، وأمام الخطر الخارجي المتمثل بالجيش الإسلامي، تصالحا خوفاً من أن يستفرد هذا الجيش كلاً منهما. وهكذا أحسنا تطبيق مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل»، وقواعد التعبئة وحشد القوى وتجميعها وتوحيدها.

أما الخليفة، فقد أحسن تطبيق مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل» وقاعدة الاقتصاد بالقوى والجهد إذ إنه، وبعد أن أنفق الكثير لتحضير جيش المهدي، وخوفاً من ذهاب هذه النفقات سدىً، أمر قائده بالسير إلى طبرستان وفتحها بدلاً من تسريح الجيش وعودة المقاتلين إلى مناطقهم.

ج - خلال محاصرة الإصبهبذ في حصنه، طال الحصار، فعمد القائد أبو الخصيب إلى اعتماد الحيلة، فادّعى أنه ضُرب من قبل المسلمين والتحق بالإصبهبذ الذي وثق به وجعله من أخصائه. وأظهر أبو الخصيب الولاء للإصبهبذ الذي عينه مسؤولاً عن فتح وإغلاق باب حصنه.

عاد أبو الخصيب وغدر بالقائد التركي وفتح الباب للجيش الإسلامي الذي دخل الحصن وقتل عناصر حاميته وسبى الذراري وملكه.

لذلك نرى أن الثقة بجواسيس العدو الذين يلتحقون بصفوف الصديق مدّعين الولاء له، ينبغي إبقاءها محدودة. ويجب عدم السماح لهؤلاء بالحصول على الأسرار العسكرية أو تسليمهم مقدرات ومسؤوليات قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه. فالحالات المماثلة للتي ذكرناها كثيرة في التاريخ العسكري، وخاصة عن العملاء المزدوجين الذين يخدعون قيادتين في الوقت نفسه.(١)

(١) للمزيد من المعلومات عن مدى الضرر الذي يمكن التسبب به من قبل العميل المزدوج، يمكن مراجعة موسوعة «عالم المخابرات»، منشورات دار نوبليس، ٢٠٠٥.

د - أثناء القتال ضد محمد المهدي في المدينة المنورة، منع هذا الأخير أهلها من الخروج منها وذلك بهدف استخدامهم كرهينة ومنع الجيش العباسي بقيادة عيسى ابن موسى من قصفها بالمنجنيق. لكنه عاد وخيّر الأهالي بين البقاء والخروج، فأخطأ في ذلك إذ إن غالبيتهم خرجوا منها إلى الجبال المجاورة فبقي في شرذمة قليلة، وأمّن لخصمه حرية عمله في غياب المدنيين عن المدينة. ولمّا أراد استعادة الأهالي فشل في ذلك.

لم يكن المهدي واثقاً من تدبيره وطريقة تصرفه، لذلك أصدر أوامر متضاربة ففقد مصداقيته وثقة جنوده وحرية عمله.

أما القائد عيسى، فإنه أحسن باعتماد التدابير العملانية الآتية:

* إرسال مفرزة إلى طريق مكة لاعتراض المهدي في حال خروجه من المدينة بعد هزيمته.

* ردم الخندق المحيط بالمدينة.

* توزيع قادته على جميع جهاتها.

* إرسال مفرزة من جيشه لتسلق الجبل ومهاجمة المدينة ومفاجأة جيش خصمه ومهاجمته من الوراء.

وهكذا أمّن عيسى حرية عمله والحصيل الأقصى لوسائله (المبدأين الثاني والثالث من مبادئ الحرب الثلاثة).

ورغم استبسال المهدي وأنصاره في القتال وإيقاعهم الهزيمة بعيسى مرتين، فإن عدم تطبيقه مبادئ الحرب وخاصة المبدأ الأول أي نسبية الأهداف للوسائل أدى إلى هزيمته ومقتله. فالتفوّق العددي كان كبيراً لمصلحة خصمه الذي تمكن من تحقيق حرية عمله فانتصر في معركته.

هـ - خلال ثورة السودان في المدينة المنورة تواجهت مجموعتان:

- الجنود بقيادة الوالي عبد الله بن الربيع.

- الموالي من السودانيين.

تمكن السودانيون من هزيمة حامية المدينة التي فرّ واليها منها. ويعود السبب إلى كثرة أعدادهم وتألّبهم على قيادتهم وشدّتهم في القتال.

هذا الأمر سيتكرر في أماكن عدة من العالم الإسلامي وغيره. ففي قرطاجة مثلاً، سجلت ثورة للمرتزقة سال فيها من الدماء أكثر من ما سال من الحبر لرواية أخبارها. ولم تنتهِ الثورة إلاّ بعد استدعاء

القائد الكبير هملقار[1] برقة الذي واجهته صعوبات نفسية كبيرة في مهمة القضاء على قسم من جنود جيشه.

وفي الأندلس قام الموالي بثورة عامة سبق الحديث عنها في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

لذلك نرى إنه يتوجب على الدولة، وعند استقدام غرباء للعمل على أرضها، التأكد من أمكانية سيطرتها العسكرية عليهم إذا ما تحركوا ضدها أو ثاروا على شرعيتها. كما يطلب من الأجهزة الاستخباراتية مراقبة هؤلاء مراقبة شديدة للحؤول دون تحركهم ضدها أو ضد أبناء شعبها.

ضمن الإطار نفسه، ونظراً لأن غالبية جنود الخليفة المنصور لم يكونوا عرباً، ونظراً لقيام بعضهم بالشغب عليه ومحاربته على باب الذهب في بغداد، قرر إبعادهم عن العاصمة فبنى لهم مدينة الرصافة حيث تسهل مراقبتهم وضبط تحركاتهم.

و - أثناء ثورة إبراهيم بن عبد الله في البصرة، لم يتخذ الخليفة المنصور تدابير جذرية لإخضاعه، بل تهاون في أمره الذي استفحل، فتمكّن من السيطرة على بلاد فارس والسواد والبصرة. كما راح يرصد تحركات وحدات الخلافة فيتصدى لها ويهزمها.

وكان الخليفة المنصور قد وزع وحداته العسكرية بين الحجاز وفارس وشمال أفريقيا والعراق فبقي دون احتياط عملاني جاهز للتدخل حيث تدعو الحاجة ففقد بذلك حرية عمله، الأمر الذي سمح بإطالة مدة الثورة. ففي العمليات العسكرية، ينبغي على القيادة العامة الاحتفاظ دوماً باحتياط لتعزيز أي جبهة مهدّدة بالسقوط.

رغم ذلك، وخلال القتال الأخير بين الفئتين، ورغم تفوق جيش إبراهيم العددي الكبير، فإن عدم تصميم قائده والخلافات في آراء معاونيه حول الاستراتيجية المتبعة للتصدي لجيش الخلافة العباسية جعلت هذا الجيش الكبير ينهزم أمام خصمه المصمم على الانتصار. فالمعنويات العالية

(١) هملقار برقة هو والد القائد القرطاجي هنيبعل.

والتصميم وشدّة الحوافز النفسية والاندفاع في سبيل الواجب، كلها عوامل تساهم في تحقيق نجاح الجيوش في تنفيذ المهمات القتالية التي تكلف بها.

ز - خلال القتال الذي خاضه القائد خازم بن خزيمة ضد الثائر استاذسيس في خراسان، ورغم تفوّق جيش هذا الأخير العددي الكبير، فإن حسن إدارة خازم لمعركته أمّن له النصر عليه من خلال القيام بالمناورات الآتية:

* حفر خندق حول جيشه لحمايته من هجوم خصمه المتفوق عددياً.

* إقامة أربعة أبواب للخندق وتكليف قوة لحماية كل منها.

* إعطاء الأمر بتتابع وصول الوحدات إلى مكان القتال، الأمر الذي ساهم في تغذية ساحتها بالجند تباعاً.

* مفاجأة خصمه بمهاجمته من الأمام والخلف في الوقت نفسه.

* تصميمه على النصر وارتفاع معنويات جنوده وشدة حوافزهم.

الفصل الثالث
العمليات العسكرية في عهد محمد المهدي وموسى الهادي

بويع بالخلافة محمد المهدي الذي أخذ له البيعة بمكة المكرمة مولاه الربيع لستٍ خلون من ذي الحجة السنة ثمانٍ وخمسين ومائة. وكان قد جاءه مولاه منارة بنعي أبيه المنصور، فأقام يومين بعد ذلك، ثم خطب في الناس فنعى أباه ودعا إلى بيعته، وبويع بيعة العامة.(١)

وكان الخليفة المنصور قد كتب وصيته وأوصى فيها بالمهدي مذكراً بالبيعة له، فكان أول من بايع الحسن بن زيد، ثم بايعه الناس، فتسلم القضيب وبردة النبي ﷺ وخاتم الخلافة. ثم بايعه أهل بغداد.(٢)

١ - قتال المقنّع بخراسان:

في السنة التاسعة والخمسين والمائة للهجرة ظهر رجل في خراسان من أهل مرو اسمه حكيم دعا نفسه بالمقنّع، واجتمع إليه خلق كثير وتحصنوا في قلعة بسيام من رساتيق كش. وساعده أهل بخارى والصفد وأعانه الأتراك، فأغار بهم على أموال المسلمين. ثم سيطر على كش وعلى قلعة نواكث، وجرت حروب طويلة معه إلى أن حوصر من قبل جيش من المسلمين فشرب السم مع أهله. وقيل إنه أهلكهم بالنار.(٣)

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص٣٧٧.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٢٦.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٢٣٠.

كتب ابن خلدون عن قضية المقنّع ما يأتي:(١)

«كان هذا المقنع من أهل مرو ويسمى حكيماً وهاشمياً، وكان يقول بالتناسخ وأن الله خلق آدم فتحوّل في صورته ثم في صورة نوح، ثم إلى أبي مسلم ثم إلى هاشم وهو المقنع. فظهر بخراسان وادّعى الإلهية واتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه فسمي المقنع. وأنكر قتل يحيى بن زيد وزعم أنه يأخذ بثأره، وتبعه خلق عظيم من الناس وكانوا يسجدون له. وتحصن بقلعة بسام من رساتيق كَشّ. وكان قد ظهر ببخارى والصُغْد جماعة من المبَيِّضة فاجتمعوا معه على الخلاف، وأعانهم كفّار الأتراك وأغاروا على المسلمين من ناحيتهم. وحاربهم أبو النعمان والجُنيد ولَيْث بن نصر بن سيّار، فقتلوا أخاه محمد بن نصر وحسّان ابن أخيه تميم.

وأنفذ المهدي جبريل بن يحيى وأخاه يزيد لقتال المبيضة، فقاتلوهم أربعة أشهر في بعض حصون بخارى وملكوه عنوة فقتل منهم سبعمائة، ولحق فلّهم بالمقنّع وجبريل في أتباعهم. ثم بعث المهدي أبا عون لمحاربة المقنع فلم يبالغ في قتاله، فبعث معاذ بن مسلم في جماعة القوّاد والعساكر، وعلى مقدمته سعيد الحريشي. وأتاه عُقْبة بن مسلم من ذم فاجتمعوا بالطواويس وأوقعوا بأصحاب المقنع فهزموهم، ولحق فُلَّهم بالمقنّع في بسّام فتحصنوا بها. وجاء معاذ فنازلهم وفسد ما بينه وبين الحُرَيْشيّ، فكتب الحريشي إلى المهدي بالسعاية في معاذ، ويضمن الكفاية أن أفرد بالحرب. فأجابه المهدي إلى ذلك وانفرد بحرب المقنع وأمده معاذ بابنه وجاءوا بآلات الحرب حتى طلب أصحاب المقنع الأمان سراً فأمّنهم وخرج إليه ثلاثون ألفاً وبقي معه زهاء ألفين. وضايقوه بالحصار فأيقن بالهلاك وجمع نساءه وأهله. فيقال سقاهم السُمّ، ويقال بل أحرقهم وأحرق نفسه بالنار، ودخلوا القلعة وبعث الحريشي برأس المقنع إلى المهدي».

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥.

٢ - خروج يوسف البرم:

في السنة الستين والمائة ثار بخراسان يوسف بن إبراهيم المعروف بـ «البرم» منكراً على الخليفة المهدي سيرته التي يسير بها، فأرسل إليه يزيداً بن مزيد على رأس جيش كبير فاعتقله وأحضره إلى الخليفة.(١)

نقل الطبري رواية خروج البرم وصولاً إلى إرساله إلى الخليفة، فكتب:(٢)

«فمن ذلك ما كان من خروج يوسف بن إبراهيم، وهو الذي يقال له يوسف البَرْم بخراسان منكراً هو ومَن تبعه ممن كان على رأيه على المهديّ - فيما زُعم - الحال التي هو بها وسيرته التي يسير بها. واجتمع معه، فيما ذكر، بشر من الناس، فتوجه إليه يزيد بن مزيد فلقيه، واقتتلا حتى صارا إلى المعانقة فأسره يزيد، وبعث به إلى المهديّ، وبعث معه من وجوه أصحابه بعدّة. فلما انتهى بهم إلى النّهروان حُمل يوسف البَرْم على بعير قد حُوِّل وجهه إلى ذنب البعير وأصحابه على بعير، فأدخلوهم الرصافة على تلك الحال. فأدخلوه على المهديّ، فأمر هَرْثمة بن أعين فقطع يدي يوسف ورجليه، وضرب عنقه وعنق أصحابه، وصلبهم على جسر دجلة الأعلى، مما يلي عسكر المهديّ. وإنما أمر هرثمة بقتله؛ لأنه كان قتل أخاً لهرثمة بخراسان».

٣ - فتح مدينة باربد بالهند:

في السنة التاسعة والخمسين بعد المائة سيّر المهدي جيشاً في البحر عليه عبد الملك بن شهاب المسمعي إلى بلاد الهند لفتحها. وقد تمكن هذا الجيش الكبير من الجند والمتطوعة من فتح مدينة باربد والعودة بحراً بعد أن تعرّض أفراده لمرض معدٍ ولعاصفة بحرية وقتل العديد منهم. كتب ابن كثير عن هذه الغزوة:(٣)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٣٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٥٣.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٦٦.

«دخل عبد الملك بن شهاب المسمعي مدينة باربد من الهند في جحفل كبير فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة، وهلك بشر كثير من أهلها، وفتحوها عنوة. وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاعتلاء البحر. فأقاموا هنالك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قُرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح. فلما أمكنهم المسير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح فغرق طائفة أيضاً، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير، فيهم بنت ملكهم».

٤ - غزو الروم:

في السنة الثالثة والستين والمائة تجهز المهدي لغزو الروم، وجمع الأجناد من خراسان وغيرها، واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي وسار مصطحباً معه ابنه هارون الرشيد نحو بلاد الروم.[١]

نقل ابن الأثير تفاصيل عن هذه الحملة إلى بلاد الروم، فكتب:[٢]

«في هذه السنة تجهز المهدي لغزو الروم، فخرج وعسْكر بالبردان[٣]، وجمع الأجناد من خراسان وغيرها وسار عنها. وكان قد توفي عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس[٤] في جمادى الآخرة. وسار المهدي من الغد واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد، وسار على الموصل، والجزيرة وعزل عنها عبد الصمد بن علي في مسيره ذلك. ولما حاذى قصر مسلمة بن عبد الملك قال العباس بن محمد بن علي المهدي: إن لمسلمة في أعناقنا منةً، كان محمد بن علي مرَّ به فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال له: إذا نفذْتَ فلا تحتشمنا.

فأحضر المهدي وُلْدَ مسلمة ومواليه، وأمر لهم بعشرين ألف دينار وأجرى عليهم الأرزاق. وعبر الفرات إلى حلب وأرسل،

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٤٦.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٤٤.
(٣) البردان بفتح الباء الموحدة والراء نهر بطرسوس.
(٤) واليه ينسب قصر عيسى ونهر عيسى ببغداد.

وهو بحلب، فجمع مَنْ بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين. وسار عنها مشيعاً لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان، فسار هارون ومعه عيسى بن موسى، وعبد الملك بن صالح، والربيع، والحسن بن قحطبة، والحسن، وسليمان بن برمك ويحيى بن خالد بن برمك، وكان إليه أمر العسكر والنفقات والكتابة وغير ذلك. فساروا فنزلوا على حصن سمالو فحصره هارون ثمانية وثلاثين يوماً ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالأمان ووفى لهم وفتحوا فتوحاً كثيرة.

٥ - حملة هارون بن المهدي إلى بلاد الروم:

وفي السنة الخامسة والستين والمائة سيّر الخليفة المهدي حملة إلى بلاد الروم بقيادة ابنه هارون الذي أوغل في البلاد حتى بلغ القسطنطينية وهزم الروم في معركة ضد الدمستق، وصالح ملكتهم على جزية تدفعها خلال ثلاث سنين.

نقل الطبري تفاصيل هذه الحملة، فكتب:(١)

«فمن ذلك غزوة هارون بن محمد المهديّ الصائفة، ووجّهه أبوه - فيما ذكر - يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم، وضمّ إليه الربيع مولاه. فوغل هارون في بلاد الروم، فافتتح ماجدة، ولقيته خيول نقيطا قومِس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد. ثم سقط نقيطا، فضربه يزيد حتى أثخنه، وانهزمت الرُّوم، وغلب يزيد على عسكرهم. وسار إلى الدُّمُسْتُق بنقُمودية وهو صاحب المسالح، وسار هارون في خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً، وحمل لهم من العَيْن مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً، ومن الوَرِق أحداً وعشرين ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم. وسار هارون حتى بلغ

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٧٢.

خليج البحر الذي على القسطنطينية، وصاحب الرُّوم يومئذ أغُسْطه[1] امرأة أليون؛ وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها. فجرت بينهما وبين هارون بن المهديّ الرّسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفِدْية، فقبل ذلك منها هارون، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاّء والأسواق في طريقه؛ وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوّفاً على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل. والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار، تؤديها في نيسان الأول في كل سنة، وفي حزيران، فقبل ذلك منها. فأقامت له الأسواق في منصرفه، ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعَرْض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاثة سنين، وسُلّمت الأسارى. وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً. وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفاً، وقتِل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً. ومما أفاء الله عليه من الدواب الذُلُل بإدارتها عشرون ألف دابة، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس. وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف، وبيع البرذّون بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدَرْع بأقل من درهم وعشرين سيفاً بدرهم».

٦ - أحداث أخرى في عهد المهدي:

- في السنة السادسة والستين بعد المائة أخذ المهدي البيعة لولده هارون الرشيد بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادي[2].

- في السنة السابعة والستين بعد المائة وجّه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش ضخم لمحاربة ونداد هرمز وشروين صاحبي طبرستان، فحاصرهما بعد أن وجه الجنود بقيادة يزيد بن مزيد، حتى استقاما.[3]

---

(١) وقيل إن اسمها «غسطة».

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٥٠.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٥٥.

- وفي السنة نفسها تتّبع المهدي جماعة من الزنادقة[1] في سائر الآفاق فاستحضرهم وقتلهم. وكان رئيسهم عمر الكلواذي.[2]

- وفي السنة الثامنة والستين والمائة نقض الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين، فوجّه علي بن سليمان، وكان على الجزيرة وقنسرين، يزيداً بن البدر البطال إليهم في سرية فانتصر على الروم وغنم غنائم كثيرة.[3]

٧ - وفاة المهدي وخلافة الهادي:

في السنة التاسعة والستين بعد المائة خرج المهدي إلى ماسبذان حيث ابنه الهادي، وذلك بهدف تقديم الرشيد بولاية العهد على الهادي. وكان المهدي قد استدعى ابنه الهادي فلم يأتِ إليه، فسار المهدي يريده، لكنه توفي خلال الطريق. وقيل إن إحدى جواريه سممته. كما قيل إن فرسه دخلت في باب خربة أثناء الصيد فدق الباب ظهره. وكانت خلافته عشر سنين وتسعاً وأربعين يوماً. وقد صلّى عليه ابنه الرشيد[4].

وكان المهدي محبباً إلى الناس لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم والكف عن القتل وتأمين الخائف وإنصاف المظلوم، وبسط يده في العطاء.[5]

وبويع موسى الهادي بعد والده يوم الخميس لسبع بقين من محرم، وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر. وقد أخذت البيعة له في بغداد ثم كتب الرشيد بذلك إلى الولايات.[6]

أما عمال الهادي، فكان على المدينة عمر ابن عبد العزيز بن عبيد الله، وعلى مكة

(١) الزنادقة: أي المتظاهرين بالإسلام وهم ملحدون.
(٢) ابن كثير، المرجع نفسه، ص١٥٥
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٨٢.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٨٣.
(٥) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص٣٨٢.
(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٥٤.

والطائف عبد الله بن قثم، وعلى اليمن إبراهيم بن مسلم بن قتيبة، وعلى اليمامة والبحرين سويد القائد الخراساني، وعلى عمان الحسن بن سليم الحواري، وعلى الكوفة موسى بن عيسى بن موسى، وعلى البصرة ابن سليمان، وعلى جرجان الحجاج مولى الهادي، وعلى قومس زياد بن حسّان، وعلى طبرستان والرُويان صالح بن عُميرة، وعلى أصفهان طينفور مولى الهادي، وعلى الموصل هاشم بن سعيد بن خالد.(١)

٨ - خروج الحسين بن علي بن الحسن:

في السنة التاسعة والستين والمائة ثار الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة بسبب خلاف وقع مع واليها عمر بن عبد العزيز بن عمر بن الخطاب.

اقتحم الحسين وأصحابه مسجد المدينة واستولوا عليه وأقاموا فيه، وبايعوا الحسين على كتاب الله وسنة نبيّه وانتهبوا بيت المال وفيه بضعة عشر ألف دينار، وقيل: سبعون ألفاً. وتفرّق الناس عن المسجد وأغلق أهل المدينة أبوابها.(٢)

نقل الطبري تفاصيل القتال داخل رحبة مسجد المدينة، فكتب:(٣)

«فجاؤوا حتى اقتحموا المسجد حين أذّنوا بالصبح؛ فجلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء؛ وجعل الناس يأتون المسجد؛ فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلون. فلما صلّى الغداة جعل الناس يأتونه، ويبايعونه على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد. وأقبل خالد البربريّ؛ وهو يومئذ على الصوافي بالمدينة قائد على مائتين من الجند مقيمين بالمدينة، وأقبل فيمن معه، وجاء العمريّ ووزير ابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشرويّ؛ ومعهم ناس كثير؛ فيهم الحسين بن جعفر بن

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص٤٥٤-٤٥٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٩٧.

(٣) الطبري، المرجع نفسه، ص٥٩٧.

الحسين على حمار. واقتحم خالد البربري الرّحبة، وقد ظاهر بين درعين، وبيده السيف، وعمود في منطقته، مصلِتاً سيفه، وهو يصيح بحسين: أنا كسكاس، قتلني الله إن لم أقتلك! وحمل عليهم حتى دنا منهم؛ فقام إليه ابنا عبد الله بن حسن: يحيى وإدريس، فضربه يحيى على أنف البيضة فقطعهما وقطع أنفه. وشرقت عيناه بالدم فلم يبصر، فبرك يذبّب عن نفسه بسيفه وهو لا يبصر. واستدار له إدريس من خلفه فضربه وصرعه، وعَلَواه بأسيافهما حتى قتلاه. وشدّ أصحابهما على درعيه فخلعوهما عنه، وانتزعوا سيفه وعموده، فجاؤوا به، ثم أمروا به فجُرّ إلى البلاط، وحملوا على أصحابه فانهزموا».

فلما كان اليوم التالي اجتمعت شيعة بني العباس فاقتتل الجانبان حتى الظهر ثم افترقا. وفي اليوم التالي عادوا للاقتتال إلى منتصف النهار، ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد.

وأقام الحسين وأصحابه في المدينة أحد عشر يوماً، ثم خرجوا لستٍ بقين من ذي القعدة، فعاد الناس إلى المسجد فغسلوه من آثار الأوساخ التي تركها أصحاب الحسين. وقصد الحسين مكة حيث نودي فيها: «أيما عبد أتانا فهو حر»[1]، فأتاه عبيد كثيرون.

بلغ الخبر الهادي فكتب إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب، فسار في جماعة من البصرة وعسكروا بذي طوى قرب مكة.

نقل ابن الأثير خبر القتال الذي انتهى بمقتل الحسين، فكتب:[2]

«كتب الهادي إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب؛ وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق، فاجتمعوا بذي طوى. وكانوا قد أحرموا العمرة، فلما قَدِموا مكة طافوا وسعوا وحلوا من العمرة، وعسكروا بذي طوى.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٦٧.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٢٦٧.

وانضمّ إليه من حجّ من شيعتهم، ومواليهم، وقوادهم؛ ثم إنهم اقتتلوا يوم التروية، فانهزم أصحاب الحسين، وقُتِل منهم وجُرِح. وانصرف محمد بن سليمان ومَن معه إلى مكة ولا يعلمون ما حال الحسين. فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول: البشرى البشرى، هذا رأس الحسين فأخرجه، وبجبهته ضربة طولى، وعلى قفاه ضربة أخرى».

وقيل إن عدد القتلى كان مائة ونيف.

أما أعداد المقاتلين الذين كانوا مع محمد ابن سليمان فقد كتب عنهم الطبري:(١)

«ثم قدم محمد بن سليمان، قدامه تسعين حافراً ما بين فرس إلى بغل، وهو على نجيب عظيم، وخلفه أربعون راكباً على النجائب عليها الرِّحال وخلفهم مائتا راكب على الحمير، سوى من كان معهم من الرجالة وغيرهم، وكثروا في أعين الناس جداً وملأوا صدورهم فظنّوا أنهم أضعافهم».

وحملت الرؤوس إلى الهادي، فلما وضع رأس الحسين بين يديه غضب وقال: «كأنكم قد جئتم برأس طاغوتٍ من الطواغيت. إن أقل ما أجزيكم به أن أحرمكم جوائزكم».(٢) فلم يعطهم شيئاً.

٩ - وفاة الهادي وخلافة هارون الرشيد:

في السنة السبعين والمائة عزم الهادي على خلع أخيه الرشيد من الخلافة وإعطاء ولاية العهد إلى ابنه جعفر، لكنه توفي قبل أن ينفذ ذلك فتمت البيعة للرشيد.

كتب ابن كثير عن محاولة الهادي خلع الرشيد، وعن وفاته واستخلاف هذا الأخير ما يلي:(٣)

«عزم الهادي على خلع أخيه هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٩٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٦٨.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٦٤-١٦٥.

جعفر بن الهادي فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب. واستدعى الهادي جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك، وأبت ذلك أمهما الخيزران، وكانت تميل إلى ابنها هارون الرشيد أكثر من موسى. وكان الهادي قد منعها من التصرف في شيء من المملكة. لذلك، بعدما كانت قد استحوذت عليه في أول ولايته، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء إلى جنابها، فحلف الهادي لئن عاد أمير إلى بابها ليضربن عنقه ولا يقبل منه شفاعة أبداً. فامتنعت من الكلام في ذلك، وحلفت لا تكلمه أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر. وألح هو على أخيه هارون في الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك، وكان من أكابر الأمراء الذين هم في صف الرشيد، فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر؟ فقال له: يا أمير المؤمنين إني أخشى أن تهون الإيمان على الناس، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفر ولي العهد من بعد هارون. وأيضاً يا أمير المؤمنين فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس. فأطرق ملياً - وكان ذلك ليلاً - ثم أمر بسجنه ثم أطلقه. وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً ثم قال: يا هارون! أتطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً؟ فقال: إي والله، ولئن كان ذلك لأصلنّ من قطعت، ولأنصفَنَّ من ظلمت، ولأزوجنّ بنيك من بناتي. فقال: ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبّل يده فحلف الهادي ليجلس معه على السرير فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه، ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد. ثم سافر الهادي إلى حديثة الموصل بعد الصلح، ثم عاد منها فمات بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول، وقيل لآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة، وكانت خلافته ستة أشهر وثلاثة وعشرون يوماً».(١)

(١) وقيل إن مدة خلافته سنة وشهراً وثلاثة عشر يوماً (الطبري، جزء ٤، ص٦٠٩).

أما عن سبب وفاته فنقل ابن خلدون روايتين، الأولى أنه مرض واشتد مرضه قبل أن يتوفى، والثانية أنه لما ثقل مرضه أوصت أمه بعض الجواري فجلسن على وجهه فمات.[1]

وبويع هارون الرشيد يوم الجمعة في صبيحة الليلة التي مات فيها الهادي في مدينة السلام، وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة. وَوُلي الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين.[2]

١٠ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - منذ تسلّمه الخلافة، لم يهمل المهدي أي خارج عن طاعته بل سيّر الجيوش لإعادتهم إلى الطاعة. ضمن هذا الإطار جاءت الحملات إلى خراسان. التي نجحت في إخضاع المقنع بعد وقوع معارك عديدة معه.

لقد تسلّم المهدي الخلافة من والده المنصور وكانت جميع الولايات الإسلاميّة، باستثناء الأندلس، ما زالت تعترف بقيادتها وتتبع أوامرها إذ كانت هذه الخلافة مُهابة وقويّة وقدّر لها خلفاء بارزون قاموا بتثبيت أركان الحكم. لذلك، فإن الثورات التي قامت ضد هؤلاء الخلفاء كان مكتوب عليها الفشل.

فالمقنّع، ورغم أن أعداداً كبيرة من الناس كانوا قد تبعوه، وسجدوا له واعتبروه أحد الأنبياء، ورغم تحصّنه في قلعة بسّام الحصينة، ورغم نجاحه في الإغارة على المسلمين في خراسان، فإن حركته فشلت لأسباب، أهمها:

١ - منعة الخلافة العباسية التي كانت ما تزال في عصرها الأول أي عصر القوة والفتوحات.

٢ - اعتماد الخلافة في صراعها ضده على قادة كبار أمثال جبريل بن يحيى وأبي عون ومعاذ وعقبة بن مسلم.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٥٩-٤٦٠.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤١٢.

٣ - تطبيق استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية والقضاء على جيوش المقنع الواحد تلو الآخر.

٤ - تراجع معنويات عناصره بسبب التحاق فلول المنهزمين من مؤيديه بهم، وانفصالهم عنه بعد طلبهم الأمان بصورة سرية من قائد الجيش العباسي.

٥ - توجيه المهدي الإمدادات المتتابعة إلى الجيش وتزويده بآلات الحرب المناسبة والضرورية لمعركته.

كل هذه العوامل مكّنت الجيش العباسي من تطبيق مبادئ الحرب الثلاثة كالآتي:

- المبدأ الأول، أي نسبية الأهداف للوسائل، بعد خروج ثلاثين ألفاً من عناصر المقنع من الحصن وبقائه في ألفين فقط.

- المبدأ الثاني، أي حرية العمل، من خلال فرض مكان المعركة وزمانها، ومحاصرة المقنع داخل حصنه.

- المبدأ الثالث، أي الحصيل الأقصى للوسائل، من خلال شدة حوافز وحماس واندفاع جنود الخلافة إثر انتصاراتهم المتكررة، وتراجع معنويات خصمهم الذي أنزلت بوحداته الهزائم المتتالية.

ب - أخضع المهدي أيضاً ثائراً آخر هو يوسف بن إبراهيم الذي خرج عليه في خراسان. وبعد إخضاعه والقبض عليه، استعمل الخليفة القسوة في معاملة إبراهيم كي يكون عبرة لغيره لردعهم عن الخروج عن الطاعة. فقد كان المهدي يخطط لمتابعة الحملات إلى الخارج وخاصة إلى بلاد الروم، ويريد أن يستتب الأمن داخل الولايات الإسلاميّة قبل إرسال الجيوش إلى خارجها، وفي ذلك سياسة حكيمة وعاقلة.

وبالفعل وبعد القضاء على الثورتين المذكورتين، سيّر الخليفة حملة بحرية إلى بلاد الهند تمكنت من فتح إحدى مدنها. ثم سيّر حملتين إلى بلاد الروم، قاد إحداها بنفسه وقاد الثانية ابنه هارون الرشيد، نظراً للأهمية التي كان الخليفة يوليها إياها.

تمكنت الحملة الأولى من فتح أحد حصون الروم، وبلغت الحملة الثانية أسوار القسطنطينية وهزمت الروم الذين قبلوا دفع الجزية للمسلمين طوال ثلاث سنين، وإطلاق أسراهم، ووضع الأدلاء بتصرفهم تأميناً لعودة الجيش سالماً إلى بلاد الإسلام.

الفصل الرابع
العمليات العسكرية في عهد هارون الرشيد

بويع هارون الرشيد بالخلافة ليلة وفاة أخيه الهادي فبعث إلى يحيى بن خالد البرمكي فأخرجه من السجن[١]، وولاه الوزارة وقال له: «يا أبتِ، أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر». ودفع إليه خاتمه[٢].

وقيل إنّ يحيى بن برمك جعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد. وقيل إنه أمره أن لا يقطع أمراً إلاّ بمشاورة والدته الخيزران.[٣]

ثم صلّى الرشيد على أخيه الهادي.

ونقل ابن كثير رواية عن تكليف الرشيد غطّاسين للتفتيش عن خاتم كان أعطاه له والده وفقده في الماء، فكتب:[٤]

«ثم سار إلى بغداد. فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالغواصين فقال سقط مني ههنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف. فلما كان من أيام بعث إليّ الهادي يطلبه فألقيته إلى الرسول فسقط ههنا. فغاص الغواصون وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً».

---

(١) قيل إن الهادي كان قد أطلقه قبل وفاته (ابن خلدون، جزء ٥، ص٤٥٩.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص٤١٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٦٧.

(٤) ابن كثير، المرجع نفسه، ص١٦٧.

وكان الرشيد قائداً للجند قبل أن يتسلم مقاليد الخلافة، وقاد غزوات إلى بلاد الروم حيث حقق انتصارات كبيرة جعلته محبوباً من الجند. والرشيد يمثل نقلة نوعية في المجتمع العباسي كونه تمكن من ضبط أمور الدولة الإدارية والمالية والاجتماعية والعسكرية.

لذلك، ولما كانت الأنظمة العسكرية في عهد الرشيد قد اكتملت وتنظمت، رأينا ضرورة لحظها في دراستنا خلال هذا العهد.

١ - الجيش العباسي:

كان تشكيل الجيش العباسي يختلف وفق الوضع والتهديد، إنما كان عدده كبيراً ومجهزاً بمختلف الأسلحة والمعدات ليتمكن من مجابهة أعداء الدولة في الداخل والقيام بالفتوحات في الخارج.

وكان قوام الجيش في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والدولة الأموية القوات العربية التي يقودها قادة عرب تدربوا على يد النبي ﷺ وخلفائه. لكنه في العهد العباسي راح هذا الجيش يعتمد على العنصر الفارسي من الجند وحتى من القادة الذين كان أبو مسلم الخراساني أولهم.

إنما، ومنذ خلافة المعتصم، كثر الاعتماد في الجيش على الجند الأتراك، الذين برز دورهم العسكري وتحكموا بأمور الدولة فاستاء القادة العرب منهم، ما دفع بالمعتصم إلى بناء مدينة سامراء لهم لإبعادهم عن مركز القرار في بغداد. لكن هذا التدبير لم يمنع تأثيرهم من التزايد فأصبح الخلفاء ألعوبة في أيديهم.

وانقسم الجيش العباسي إلى قسمين:

- الفرسان، أو الحربية، الذين كانوا يتسلحون بالرماح. وهم عامة من جند العرب.
- المشاة، أو الرجالة وكانوا من الفرس وخاصة الخراسانيين.

وكان الجيش العباسي يتشكل في فرق من عشرة آلاف جندي، كل منها بإمرة أمير. وتتكون الفرقة من كتائب من ألف جندي لكل منها، وتنقسم الكتائب بدورها إلى وحدات، كل وحدة من مائة جندي برئاسة نقيب. وتتجزأ الوحدة إلى فصائل من عشرة جنود على كل منها عريف.

وكان الجيش ينتقل عادة بجهوزية كاملة فيرسل فرقة استطلاع أمامه يسميها الطليعة. وفي القتال كان يتشكل إلى ميمنة وميسرة وقلب وساقة.

وكان للجند ديوان خاص يتألف من مجلسين:

- مجلس التقرير الذي تُسجَّل فيه رواتب الجند وتواقيت دفعها إليهم.

- مجلس المقابلة الذي يشرف على سجلات الجند وأسمائهم وأوضاعهم العامة.

أ - أسلحة الجيش:

تتألف أسلحة الجيش من السيوف والرماح والحراب والأقواس والفؤوس والخناجر والتروس والدبابيس والخوذات التي يعتمرها الأفراد لدرء الضربات عن رؤوسهم، والدروع التي يرتدونها لحماية صدورهم. وعرف الجيش العباسي قاذفي النفط، الذين يرتدون ثياباً خاصة للنيران عند اقتحام الحصون المشتعلة. كما عرفت المنجنيقات التي كانت تقذف بالحجارة إلى داخل الحصون المحاصرة وإلى تجمعات الجيوش العدُوَّة، والسلالم التي يستعملها الجند لتسلق أسوار الحصون ودخولها. وعرف الحسك الشائك الذي كان يرمى أمام الفرسان فتدخل الحسك في أرجل الخيول وتعوقها عن التحرك. وعرف من حيوانات القتال الحصان والجمل، ومن معدات الحصار الدبابة أو الضبر(١) والبرج المتحرك والكبش.(٢)

ودرج العباسيون على تجنيد الجواسيس للعمل في بلاد الأعداء الذين كانوا يتنكرون في أزياء التجار أو رجال الأعمال أو الأطباء ويتوجهون إلى البلاد المعادية لمعرفة أخبارها ونقلها إلى قيادة الجيش العباسي.

ب - الأسطول البحري:

بدأ العرب المسلمون الاهتمام بالأسطول البحري منذ عهودهم الأولى، فقام والي الشام معاوية بن أبي سفيان ببناء أسطول

(١) الدبابة أو الضبر هي صندوق خشبي أشبه بالبرج المتحرك الذي كان يستعمله المحاربون للاقتراب من الأسوار من دون أن يتعرضوا لسهام الأعداء.

(٢) الكبش هو جذع شجرة ضخمة يثبت إلى دواليب خشبية ويجره المقاتلون ويضربون باب الحصن بعقبه بشدة بقصد فتحه.

بحري في ثغور بلاد الشام. وتابع اهتمامه بهذا الأسطول إلى أن تُوِّج العمل البحري في معركة ذات الصواري التي تغلّب فيها الأسطول الإسلامي على الأسطول البيزنطي والتي سبق الحديث عنها.

وتابعت الدولة العباسية الاهتمام بالأسطول لاستعماله في الدفاع عن الثغور وفي الحملات على بلاد الروم وخاصة في حصار القسطنطينية. لكن الاهتمام بالأسطول البحري تراجع في العصور العباسية بسبب انشغال الخلفاء بالثورات الداخلية وسيطرة الجند التركي والفارسي على الخلافة وتحكمهم بالخلفاء.

لذلك شعر الروم بهذا الضعف البحري فأغاروا السنة ٣٣٨ هـ في عهد الخليفة المتوكل على مصر بحراً، واقتحموا دمياط في أسطول بلغ حوالي ٣٠٠ مركب واحتلوها وأحرقوا منازلها وجامعها الكبير وقتلوا عدداً كبيراً من رجالها وسبوا العديد من نسائها وحازوا غنائم كثيرة حملوها إلى بلاد الروم.

على أثر ذلك اهتم ولاة مصر بإنشاء أسطول بحري وتحصين الموانئ البحرية والعناية بصناعة السفن، خاصة في عهد الدولة الطولونية، لا سيما في زمن أحمد بن طولون الذي أنشأ أسطولاً بحرياً كبيراً. ثم تعزّزت صناعة السفن والأساطيل في عهد الخلافة الفاطمية، فأقام الخليفة المعزّ داراً لصناعة السفن بني فيها حوالي ستمائة مركب.

٢ - أَظهِرْ القوة كي لا تضطر إلى استعمالها:

من مبادئ استعمال القوى لقمع أعمال الشغب أو الثورات مبدأ «أظهر القوة كي لا تضطر إلى استعمالها». هذا المبدأ طبقه بامتياز الفضل بن يحيى البرمكي لإخضاع يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي خرج على الخليفة هارون الرشيد بالديلم السنة ستاً وسبعين ومائة للهجرة.

وتفاصيل القصّة جاءت بقلم الطبري الذي كتب عن موضوع خروج يحيى بن عبد الله بالديلم ما يلي:[1]

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٦٢٨.

«كان أول خبر يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب أنه ظهر بالدّيْلم، واشتدّت شوْكته، وقويّ أمرُه، ونزع إليه الناس من الأمصار والكور. فاغتمّ لذلك الرشيد، ولم يكن في تلك الأيام يشرب النبيذ، فندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل، ومعه صناديد القوّاد، وولاّه كور الجبال والرَّيّ وجُرجان وطَبَرِستان وقومِس ودُنْباوند والرُّويان. وحُملت معه الأموال، ففرّق الكور على قوّاده، فولّى المثنّى بن الحجاج بن قتيبة بن مسلم طبرستان، وولّى عليّ بن الحجاج الخُزاعي جرجان، وأمر له بخمسمائة ألف درهم. وعسكر بالنّهرين، وامتدحه الشعراء، فأعطاهم فأكثر، وتوسل إليه الناس بالشعر، ففرّق فيهم أموالاً كثيرة. وشخص الفضل بن يحيى، واستخلف منصور بن زياد بباب أمير المؤمنين، تجري كتبه على يديه، وتنفذ الجوابات عنها إليه. وكانوا يثقون بمنصور وابنه في جميع أمورهم، لقديم صحبته لهم؛ وحرمته بهم. ثم مضى من معسكره، فلم تزل كتب الرشيد تتابع إليه بالبرِّ واللّطف والجوائز والخلع؛ فكاتب يحيى ورفق به واستماله، وناشده وحذّره، وأشار عليه، وبسط أمله. ونزل الفضل بطالقان الريّ ودَسْتبي بموضع يقال له أشبّ، وكان شديد البرد كثير الثلوج.

فأقام الفضل بهذا الموضع، وواتَر كتبه على يحيى، وكاتب صاحب الدّيلم، وجعل له ألف ألف درهم، على أن يسهّل له خروج يحيى إلى ما قبله. وحملت إليه، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطّه على نسخة يبعث بها إليه. فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد، فسرّه وعظُم موقعه عنده، وكتب أماناً ليحيى بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجِلّة بني هاشم ومشايخهم».

وقبل يحيى، فقدم على الفضل الذي أحضره إلى الخليفة في بغداد فلاقاه الرشيد بكل ما أحب وعفا عنه.

٣ - الفتنة في دمشق:

في السنة السادسة والسبعين والمائة وقعت فتنة في الشام بين المضرية واليمنية،

وكان رأس المضرية أبو الهيدام، (وقيل أبو الهيدام) عامر بن عمارة من ولد خارجة بن سنان المرّي.

وسبب الفتنة أن عاملاً للرشيد قَتَل في سجستان أخاً لأبي الهيدام الذي خرج على السلطة في الشام وجمع حوله جمعاً عظيماً.[1] وقيل في سبب الفتنة أيضاً إن اليمانية قتلوا رجلاً من المضرية فاجتمع هؤلاء لثأره.[2]

جمع والي دمشق عبد الصمد بن علي كبار العشائر ليصلحوا بين الجانبين، فاستمهلتهم المضرية حتى تمكنوا من قتل ثلاثمائة من اليمانية. وطالت الحرب بينهم فولى الرشيد على الشام إبراهيم بن صالح ابن علي الذي استخلف عليها ابنه إسحاق وكان هواه مع اليمانية فحبس جماعة من قيس وضربهم.[3]

وراح كل جانب يقتل من يتمكن به من الجانب الآخر.

وجرى قتال على باب الجابية بين اليمانية بقيادة إسحاق، والمضرية بقيادة أبو الهيدام الذي انتصر في هذا القتال واستولى على دمشق وفتح السجون فيها.[4]

كتب ابن الأثير يصف بعض الوقعات بين اليمانية والمضرية في الشام:[5]

«وبلغ الخبر أبا الهيذام فأرسل إلى المضرية فأتَتْه الأمداد وهو يقاتل اليمانية عند باب توما، فانهزمت اليمانية. ثم إن اليمانية أتت قرية لقيس عند دمشق فأرسل أبو الهيذام إليهم الزواقيل فقاتلوهم، فانهزمت اليمانية أيضاً. ثم لقيهم جمع آخر فانهزموا أيضاً، ثم أتاهم الصريخ أدركوا باب توما، فأتوه، فقاتلوا اليمانية، فانهزمت أيضاً. فهزموهم في يوم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٩٢.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٦٤.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٩٤.
(٥) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٩٤.

واحد أربع مرات ثم رجعوا إلى أبي الهيذام. ثم أرسل إسحاق إلى أبي الهيذام يأمره بالكف ففعل، وأرسل إلى اليمانية قد كفَفْته عنكم، فدونكم الرجل فهو غار، فأتوه من باب شرقي متسللين.

فأتى الصريخ أبا الهيذام فركب في فوارس من أهله فقاتلهم فهزمهم. ثم بلغه خبر جمع آخر لهم على باب توما فأتاهم، فهزمهم أيضاً. ثم جمعت اليمانية أهل الأردن، والجولان، وكلباً وغيرهم، وأتى الخبر أبا الهيذام فأرسل من يأتيه بخبرهم، فلم يقف لهم على خبر في ذلك وجاؤوا من جهة أخرى كان آمناً منها لبناء فيها. فلما انتصف النهار ولم ير شيئا فرّق أصحابه فدخلوا المدينة، ودخلها معهم وخلف طليعة. فلما رآه إسحاق قد دخل أرسل إلى ذلك البناء فهدمه وأمر اليمانية بالعبور ففعلوا فجاءت الطليعة إلى أبي الهيذام فأخبروه الخبر وهو عند باب الصغير. ودخلت اليمانية المدينة، وحملوا على أبي الهيذام، فلم يبرح وأمر بعض أصحابه أن يأتي اليمانية من وراءهم ففعلوا، فلما رأتهم اليمانية تنادوا الكمين الكمين، وانهزموا وأخذ منهم سلاحاً وخيلاً».

وأكمل ابن خلدون تفاصيل القتال بين اليمانية والمضرية، فكتب:(١)

«وفرّق أبو الهيدام أصحابه وبقي في نفر يسير من أهل دمشق، فطمع فيه إسحاق وسلط عليه العذافر السَكْسكي مع الجنود فقاتلهم، فانهزم العذافر وبقي الجند يحاربونه ثلاثاً. ثم إن إسحاق قاتله في الثالثة والجند في اثني عشر ألفاً ومعهم اليمانية، فخرج أبو الهيدام من المدينة وقاتلهم على باب الجابية حتى أزالهم عنه. ثم أغار جمع من أهل حمص على قرية لأبي الهيدام فقاتلهم أصحابه وهزموهم وقتلوا منهم خلقاً وأحرقوا قرى وديارأ في الغوطة، ثم توادعوا سبعين يوماً أو نحوها. وقدم السندي في الجنود من قبل الرشيد، وأغزتهم اليمانية بأبي الهيدام فبعث هو إليه بالطاعة، فأقبل السندي إلى دمشق، وإسحاق بدار الحجاج، وبعث قائده

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٦٦.

في ثلاثة آلاف وأخرج إليهم أبو الهيدام ألفاً. وأحجم عنهم ورجع إلى السندي فصالح أبا الهيدام وأمّن أهل دمشق.

وسار أبو الهيدام إلى حوران، وأقام السندي بدمشق ثلاثاً. وقدم موسى بن عيسى والياً عليها، فبعث الجند يأتونه بأبي الهيدام فكبسوا داره وقاتلهم هو وابنه وعبده فانهزموا، وجاء أصحابه من كل جهة وقصد بصرى.

ثم بعث الرشيد أخاً له ليأتيه به فتحيَّل حتى قبض عليه وشدّه وثاقاً. وأتى به إلى الرشيد فمنّ عليه وأطلقه. وبعث جعفر بن يحيى سنة ثمانين إلى الشام من أجل هذه الفتن والعصبية، فسكّن الثائرة وأمّن البلاد وعاد».

ومات أبو الهيدام السنة اثنتين وثمانين ومائة.

وقد طالت هذه الفتنة لأسباب أبرزها أن العصبية القَبَلية بين المضرية واليمانية كانت ما تزال متأججة في النفوس خلال هذه المرحلة. فالصراع القَبَلي كان دائماً وبالاً على العرب والمسلمين في الشرق وشمال أفريقيا وصولاً إلى الأندلس. كما أن التعزيزات التي كانت تصل إلى الجهتين ساهمت في إطالة عمر الفتنة التي تدخلت فيها قبائل من حمص والأردن والجولان وغيرها، إضافة إلى قبائل عربية مختلفة منها قضاعة وسُليم وقيس ومرّة وغيرهم.

٤ - الفتنة في الموصل:

في السنة السابعة والسبعين بعد المائة ثار العطاف بن سفيان الأزدي[١] على خراسان والموصل وتغلّب على عامل الرشيد على الموصل محمد بن العباس الهاشمي،[٢] فاجتمع على العطاف أربعة آلاف رجل وجبى الخراج من الموصل واستفحل أمره.[٣]

وبقي العطاف مسيطراً على الموصل حتى سار الرشيد إليها وهدم سورها فهرب العطاف إلى أرمينيا.

(١) كان العطاف من فرسان أهل الموصل.

(٢) وقيل إن العامل على الموصل كان عبد الله بن صالح.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٠٠.

٥ - الفتنة في مصر:

وفي السنة الثامنة والسبعين بعد المائة ثارت الحوفية[(١)] بمصر ضد عامل الرشيد عليها إسحاق بن سليمان. وكان الحوفية جماعات من قيس وقضاعة، قاتلوا إسحاق وكادوا يسيطرون على مصر.

كتب الرشيد إلى هرثمة بن أعين عامل فلسطين وكلّفه بإخضاع الثوار، فسار هرثمة إليهم وقاتلهم مع إسحاق فأذعنوا للطاعة وأدوا ما عليهم من ضرائب. فعزل الرشيد إسحاق عن مصر واستعمل عليها هرثمة مدة شهر، ثم استعمل عبد الملك بن صالح.[(٢)]

٦ - مسير الفضل بن يحيى إلى خراسان:

في السنة نفسها أرسل الرشيد الفضل ابن يحيى والياً إلى خراسان فأحسن السيرة فيها وبنى المساجد والرباطات، وغزا ما وراء النهر. واتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى بغداد، فكانوا يعرفون فيها بالكرمينية.[(٣)]

وفتح الفضل بلاداً كثيرة منها كابل وما وراء النهر، وانتصر في القتال على ملك الترك الذي كان ممتنعاً على الخليفة.[(٤)]

٧ - الصوائف وفتوحاتها:

لقد سبق الحديث عن الصوائف والشواتي في الحملات التي درج المسلمون على إرسالها إلى بلاد الروم، حيث كانت تفتح المدن وتغزو القلاع وتحتلها وتحاصر أحياناً المدن الكبرى كالقسطنطينية.[(٥)]

---

(١) الحوفية: أهل الحوف من قيس وقضاعة.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٦٣٨، وابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٦٧.

(٣) في الطبري: الكرنبية - الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٦٣٧.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ض١٨١.

(٥) انظر لائحة الصوائف في الملحق ربطاً في هذا الجزء.

وقد نقل ابن خلدون أخبار الصوائف التي أرسلت في عهد الرشيد نلحظها هنا كما رواها. كتب ابن خلدون:(٤)

«كان الرشيد على ما نقله الطبري وغيره يغزو عاماً ويحجّ عاماً، ويصلي كل يوم مائة ركعة ويتصدق بألف درهم. وإذا حجّ حمل معه مائة من الفقهاء ينفق عليهم، وإذا لم يحج أنفق على ثلثمائة حاج نفقة شائعة. وكان يتحذى بآثار المنصور إلاّ في بذل المال فلم يُرَ خليفة قبله أبذل منه للمال. وكان إذا لم يغزُ غزا بالصائفة كبار أهل بيته وقواده، فغزا بالصائفة سنة سبعين سليمان بن عبد الله البكائي، وقيل غزا بنفسه. وغزا بالصائفة سنة اثنتين وسبعين إسحاق بن سليمان بن علي فأثخن في بلاد الروم وغنم وسبى. وغزا في سنة أربع وسبعين بالصائفة عبد الملك بن صالح، وقيل أبوه عبد الملك فبلغ في نكاية الروم ما شاء، وأصابهم برد شديد سقطت منه أيدي الجند. ثم غزا بالصائفة سنة سبع وسبعين عبد الرزاق بن عبد الحميد الثعلبي. وفي سنة ثمان وسبعين زُفَر بن عاصم.

وغزا سنة إحدى وثمانين بنفسه فافتتح حِصن الصفصاف وأغزى عبد الملك فبلغ أنقرة، وافتتح مطمورة. وكان الفداء بين المسلمين والروم، وهو أول فداء في دولة بني العباس، وتولاه القاسم بن الرشيد وأخرج له من طرطوس الخادم الوالي عليها وهو أبو سليمان فرج، فنزل المدامس على اثني عشر فرسخاً. وحضر العلماء والأعيان وخلق من أهل الثغور وثلاثون ألفاً من الجند المرتزقة فحضروا هنالك وجاء الروم بالأسرى ففودي بهم من كان لهم من الأسرى، وكان أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة. وغزا بالصائفة سنة اثنتين وثمانين عبد الرحمن ابن عبد الملك بن صالح دقشوسوس مدينة أصحاب الكهف، وبلغهم أن الروم سلّوا ملِكهم قسطنطين بن إليون وملّكوا أمه رُبى وتلقّب عَطَشة، فأثخنوا في البلاد ورجعوا.

وفي سنة سبع وثمانين غزا بالصائفة القاسم بن الرشيد وجعله قرباناً لله، وولاه

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٧٦-٤٧٧.

العواصم، فأناخ على قُرّة وضيّق عليها. وبعث عليها ابن جعفر بن الأشعث، فحاصر حصن سنان تحت جهد أهل، وفادى الروم بثلثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم وتمّ بينهم الصلح، ورحل عنهم. وكان ملك الروم يومئذ ابن زيني وقد تقدم ذكره، فخلعه الروم وملّكوا نيقفور وكان على ديوان خراجهم، ومات زيني بعد خمسة أشهر. ولما ملك نيقفور كتب إلى الرشيد بما استفزه، فسار إلى بلاد الروم غازياً. ونزل هِرْقل وأثخن في بلادهم حتى سأل نيقفور الصلح، ثم نقض العهد وكان البرد شديد الكلب، وظنّ نيقفور أن ذلك يمنعه من الرجوع فلم يمنعه، ورجع حتى أثخن في بلاده، ثم خرج من أرضهم.

وغزا بالصائفة سنة ثمان وثمانين إبراهيم ابن جبريل ودخل من درب الصفصاف، فخرج إليه نيقفور ملك الروم وانهزم وقتل من عسكره نحواً من أربعين ألفاً.

وفي سنة ست وثمانين كان فداء بين المسلمين حتى لم يبق بأرض الروم مسلم إلاّ فودي. وفي سنة تسعين سار الرشيد إلى بلاد الروم بسبب ما قدمناه من غدر نيقفور، في مائة وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة سوى الأتباع والمتطوعة ومن ليس له ذكر في الديوان. واستخلف المأمون بالرقة وفوّض إليه الأمور وكتب إلى الآفاق بذلك. فنزل على هِرْقل فحاصرها ثلاثين يوماً وافتتحها وسبى أهلها وغنم ما فيها. وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفاً غازياً في أرضهم، ففتح الله عليه وخرّب ونهب ما شاء. وفتح شُراحيلُ بن معن بن زائدة حصْن الصقالبة ودَيسَة. وافتتح يزيد بن مُخلِد حصن الصفصاف وقونية. وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذي الكلاع.

واستعمل الرشيد حميد بن مَعْيوب على الأساطيل مّن بسواحل الشام ومصر إلى قبرس، فهزم وخرق وسبى من أهلها نحواً من سبعة عشر ألفاً وجاء بهم إلى الواقعة فبايعوا بها. وبلغ فداء أُسْقُف قبرس ألفي دينار. ثم سار الرشيد إلى حُلوانة فنزل بها وحاصرها. ثم رحل عنها وخلّف عليها عُقبة ابن جعفر. وبعث نيقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير وعن ابنه دينارين وعن بطارقته كذلك. وبعث نيقفور في جارية من بني هِرقِلة وكان خطبها ابنه فبعث بها إليه.

ونقض في هذه السنة قبرس فغزاهم معيوب ابن يحيى فأثخن فيهم وسباهم. ولما رجع الرشيد من غزاته خرجت الروم إلى عين زَرْبة والكنيسة السوداء وأغاروا ورجعوا فاستنقذ أهل المُصَيْصة ما حملوه من الغنائم».

ردّاً على هذه الحملة، ولّى الرشيد أرمينيا وأذربيجان إلى يزيد بن مزيد وعززه بالجند ووجهه إلى ملك الخزر وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين لمساندته. وقد تمكن هذان القائدان من إصلاح الوضع وأخرجا ملك الخزر من أرمينيا وسدا الثغرة التي فتحها في دفاعها.(٣)

٨ - غزو الخزر بلاد الإسلام:

في السنة الثانية والثمانين والمائة حُملت ابنة خاقان ملك الخزر إلى الفضل بن يحيى للزواج، لكنها توفيت في «برذعة»، فرجع من معها إلى والدها وأخبروه أنها قتلت غيلة.(١)

تجهّز ملك الخزر وخرج في السنة التالية من باب الأبواب وهاجم المسلمين في أرمينيا في جيش كبير، فقتل بشراً كثيراً وسبى نحواً من مائة ألف. وانهزم عامل أرمينيا سعيد بن مسلم وبقي الخزر في أرمينيا نحواً من سبعين يوماً.(٢)

٩ - المبايعة بولاية العهد:

في السنة الثانية والثمانين والمائة بايع هارون الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين، وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همدان.(٤)

وفي السنة السادسة والثمانين ولّى الأمين العراق والشام، وضم إلى المأمون من همذان إلى آخر المشرق.

ثم بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقبه المؤتمن وضمّ إليه الجزيرة والثغور والعواصم.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣١٧.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٩٢.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣١٩.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣١٧.

١٠- فتح هرقلة:

إكمالاً لما ذكره ابن خلدون عن الوقائع بين الرشيد ونقفور ملك الروم، نذكر أن نقفور الذي ملك بعد الملكة زيني على الروم، نقض الصلح الذي كان قد جرى بينه وبين المسلمين. وكان نقفور من أولاد جفنة من غسان، وكان قبل وصوله إلى الملك يلي ديوان الخراج. وقد كتب نقفور كتاباً إلى الرشيد ينقض فيه الصلح بينهما جاء فيه:(١)

«من نقفور ملك الروم، إلى هارون الرشيد ملك العرب، أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلي؛ أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيْدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهنّ. فإذا قرأت كتابي فارْدُدْ ما حصل من قِبَلك من أموالها، وافتدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد الكتاب، استفزه الغضب حتى لم يمكّن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه؛ وتفرّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم. واستعصى الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم؛ قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه. والسلام».(٢)

ثم شخص من يومه، وسار حتى أناخ بباب هرقلة، ففتح وغنِم، واصطفى وأفاد، وخرّب وحرّق، واصطلم. فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة، فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته، وصار بالرقة نقض نقفور العهد، وخان الميثاق. وكان البرد شديداً، فيئس نقفور من رجعته إليه، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه. ولم يجرؤ أحد على إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرّة في مثل تلك الأيام.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٦٦٨.

(٢) المرجع نفسه.

أخيراً علم هارون الرشيد بنقض نقفور للصلح، فرجع إلى هرقلة حتى أناخ بفنائها ولم يبرح إلاّ بعد أن قَبِل نقفور شروط الصلح، وافتتحها وهدم وأحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً.(١)

وأكمل الطبري رواية حملة الرشيد إلى بلاد الروم، فكتب:(٢)

«ثم صار الرشيد إلى الطُّوانة، فعسكر به، ثم رحل عنها، وخلَّف عليها عقبة بن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك. وبعث نقفور إلى الرشيد بالخَراج والجزية، عن رأسه وولّيّ عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار؛ منها عن رأسه أربعة دنانير؛ وعن رأس ابنه استبراق دينارين. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سَبْي هِرقلة كتاباً نسخته:

لعبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم، سلام عليكم، أما بعد أيها الملك، فإنّ لي إليك حاجة لا تضرّك في دينك ولا دنياك، هيّنة يسيرة؛ أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

١١ - غزوات أخرى:

من الغزوات التي أرسلها الرشيد أيضاً نذكر:(٣)

* غزا يزيد بن مُخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضائق، فانهزم وقتل في خمسين من أصحابه.
* استعمل الرشيد على الصائفة هرثمة ابن أعين قبل أن يوليه خراسان، وضم إليه ثلاثين ألفاً من أصل خراسان، وسار بالعساكر الإسلاميّة في أثره.
* تحركت الخرمية السنة اثنتين وتسعين ومائة بناحية أذربيجان، فبعث الرشيد إليهم

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٦٧٧.

(٢) الطبري، المرجع نفسه، ص٦٧٧.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٨٣.

عبد الله بن مالك في عشرة آلاف حيث جرى قتال عنيف انتصرت فيه الجيوش الإسلاميّة على الخرمية.

وأسر عبد الله عدداً كبيراً من الخرمية، فأمره الرشيد بقتل الأسرى وبيع السبايا ففعل.

* في السنة التسعين والمائة وجه الرشيد داود بن عيسى بن موسى بسبعين ألفاً إلى بلاد الروم، كما افتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة و«دَبْسَة»، وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف وملقونية.(١)

* وفيها استعمل الرشيد حميداً بن معيوف على سواحل الشام ومصر، فبلغ قبرس وهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً.(٢)

* خرج في السنة نفسها خارجي من ناحية عبد القيس يقال له سيف بن بكير، فوجه إليه الرشيد محمداً بن يزيد بن مزيد فقتله بعين النورة. كما خرج خارجي يقال له «بزوان» بن سيف بناحية حولايا، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وقتل عامة أصحابه.(٣)

١٢ - خلع رافع بن الليث في ما وراء النهر:

كان رافع بن الليث من عظماء الجند في ما وراء النهر، لكنه اعتدى على يحيى بن الأشعث الذي شكاه إلى الرشيد.

كتب الرشيد إلى علي بن عيسى أن يضع حداً لرافع الليث، فقام علي بسجنه في سمرقند، لكنه فرّ من السجن ووثب على عامل سمرقند فقتله وملك مكانه، وذلك السنة مائة وتسعين للهجرة.(٤)

أرسل علي ابنه عيسى لقتاله فلقيه رافع وهزمه وقتله، فخرج علي بن عيسى لقتاله وسار من بلخ إلى مرو مخافة عليها من رافع ابن الليث.(٥)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٤٢.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٤٦-٣٤٧.
(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤.

وفي السنة الحادية والتسعين والمائة عزل الرشيد علياً بن عيسى عن خراسان بسبب أموال كان قد جمعها، وولى مكانه هرثمة بن أعين الذي حاصر علياً في سمرقند وضايقه.

وفي السنة الثالثة والتسعين والمائة وقعت معركة بين هرثمة وبين أصحاب رافع كان الظفر فيها لهرثمة الذي أسر بشرا أخا رافع وبعث به إلى الرشيد، كما افتتح بخارى.

أما الرشيد، فبعد أن عاد من صائفته إلى طرطوس، سار من الرقة إلى بغداد، يريد خراسان لحرب رافع، واستخلف على الرقة ابنه القاسم وضم إليه خُزيمة بن خازم، وعلى بغداد ابنه الأمين وأمر المأمون بأن يسير معه.(١) وكان الرشيد قد أصابه المرض الشديد الذي أدى إلى وفاته في السنة ثلاث وتسعين ومائة للهجرة.

وفيما كان هرثمة بن أعين يقاتل رافعاً بن الليث خلت خراسان من الجند فثار فيها حمزة الخارجي الذي راح يقتل ويجمع الأموال التي حملها إليه عمال هراة وسجستان. خرج إليه عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألفاً من الجند، فقاتله قتالاً شديداً، فقتل من أصحاب حمزة جمعاً كبيراً. وسار عبد الرحمن متعقباً حمزة حتى بلغ هراة، لكن المامون كتب إليه وأعاده.(٢)

أما هرثمة بن أعين، فقد أدام على حصار سمرقند حتى فتحها وقتل رافع بن الليث وجماعة من أقربائه، واستعمل على ما وراء النهر ابن يحيى بن معاذ، وكان ذلك السنة خمس وتسعين ومائة للهجرة.(٣)

١٣ - وفاة الرشيد وبيعة الأمين:

في السنة الثالثة والتسعين بعد المائة توفي الرشيد وبويع الأمين بالخلافة. وكان الرشيد قد سار من بغداد إلى خراسان، فبلغ جرجان

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٨٨-٤٨٩.

(٢) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص٤٨٨.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٥١.

أنظر ملحق رقم ٢: ولاة الأمصار في عهد هارون الرشيد.

في صفر سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقد اشتد عليه المرض، فبعث ابنه المامون إلى مرو ومعه جماعة من القادة.[1]

نقل الطبري رواية رواها جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد عن وفاته، فكتب:[2]

«ذُكر عن جبريل بن بختيشوع أنه قال: كنت مع الرشيد بالرّقة، وكنت أوّل من يدخل عليه في كلّ غداة، فأتعرّف حاله في ليلته؛ فإن كان أنكر شيئاً وصفه. ثم ينبسط فيحدّثني بحديث جواريه وما عمِل في مجلسه، ومقدار شربه، وساعات جلوسه، ثم يسألني عن أخبار العامّة وأحوالها. فدخلتُ عليه في غداة يوم، فسلّمت فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابساً مفكّراً مهموماً. فوقفت بين يديه مليّاً من النهار، وهو على تلك الحال؛ فلما طال ذلك أقدمتُ عليه، فقلت: يا سيدي، جعلني الله فداك! ما حالك هكذا، أعلّة فأخبرني بها؛ فلعله يكون عندي دواؤها، أو حادثة في بعض مَنْ تحبّ فذاك ما لا يُدفع ولا حيلة فيه إلاّ التسليم والغمّ، لا درك فيه. أو فَتْق ورد عليك في مُلكك، فلم تخلُ الملوك من ذلك؛ وأنا أوْلى من أفضيْتَ إليه بالخبر، وتروّحت إليه بالمشورة. فقال: ويحك يا جبريل! ليس غمّي وكربي لشيء مما ذكرت، ولكن لرؤيا رأيتُها في ليلتي هذه، وقد أفزعتني وملأت صدري، وأقرحت قلبي. قلت: فرّجت عني يا أمير المؤمنين؛ فدنوتُ منه، فقبّلت رجله، وقلت: أهذا الغمّ كله لرؤيا! الرؤيا إنما تكون من خاطر أو بخارات رديئة أو من تهاويل السوداء؛ وإنما هي أضغاث أحلام بعد هذا كله. قال: فأقصّها عليك. رأيت كأني جالس على سريري هذا؛ إذ بدتْ من تحتي ذراع أعرفها وكفّ أعرفها، لا أفهم اسم صاحبها، وفي الكفّ تربة حمراء. فقال لي قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التي تُدفن فيها، فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: في طوس.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٨٩.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٤.

وغابت اليد وانقطع الكلام، وانتبهت. فقلت: يا سيّدي، هذه والله رؤيا بعيدة ملتبسة، أحسبك أخذت مضجعك، ففكرت في خراسان وحروبها وما قد ورد عليك من انتفاض بعضها. قال: قد كان ذلك. قال: قلت: فلذلك الفكر خالطَك في منامك ما خالطك، فولّد هذه الرؤيا، فلا تحفل بها جعلني الله فداك وأتبع هذا الغم سروراً، يخرجه من قلبك لا يولد علة. قال: فما برحت أطيّب نفسه بضروب من الحيل، حتى سلا وانبسط، وأمر بإعداد ما يشتهيه، ويزيد في ذلك اليوم في لهوه. ومرّت الأيام فنسي، ونسينا تلك الرؤيا، فما خطرت لأحد منا ببال. ثم قدّر مسيره إلى خراسان حين خرج رافع، فلما صار في بعض الطريق، ابتدأت به العلّة فلم تزل تتزايد حتى دخلنا طوس، فنزلنا في منزل الجنيد بن عبد الرحمن في ضيعة له تعرف بسناباذ. فبينما هو يمرض في بستان له في ذلك القصر إذ ذكر تلك الرؤيا، فوثب متحاملاً يقوم ويسقط. فاجتمعنا إليه؛ كلّ يقول: يا سيدي ما حالك؟ وما دهاك؟ فقال: يا جبريل، تذكر رؤياي بالرّقة في طوس؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني من تربة هذا البستان، فمضى مسرور، فأتى بالتربة في كفه حاسراً عن ذراعه. فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه والله الكف بعينها، وهذه والله التربة الحمراء ما خرمت شيئاً؛ وأقبل على البكاء والنحيب. ثم مات بها والله بعد ثلاثة، ودفن في ذلك البستان.

وذكر بعضهم أن جبريل بن بختيشوع كان غلط على الرشيد في علّته في علاج عالجه به، كان سبب منيّته. فكان الرشيد همّ ليلة مات بقتله، وأن يفصّله كما فصّل أخا رافع. ودعا بجبريل ليفعل ذلك به، فقال له جبريل: أنظرني إلى غد يا أمير المؤمنين، فإنك ستصبح في عافية. فمات في ذلك اليوم».

١٤ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - في بداية عهد الرشيد عادت الصراعات القبلية للبروز على ساحة بلاد الشام حيث وقعت فتنة بين المضرية واليمانية. ورغم رغبة والي دمشق عبد

الصمد بن علي في الصلح، فإن المضرية استمهلته إلى أن تمكنت عناصرها من قتل ثلاثمائة من اليمانية.

من جهة أخرى، مال والي الشام الجديد إسحاق إلى اليمانية، فسجن جماعة من قبيلة قيس، فعادت المضرية وشنت هجوماً على دمشق فاستولت عليها وأخرجت أنصارها من السجون. ثم قامت كل من الجهتين المتحاربتين بتعبئة أنصارها، فجرت وقائع عديد انتصرت المضرية في غالبيتها.

برز خلال المواجهة هذه قائد المضرية الهيدام الذي أحسن تطبيق مبادئ الحرب وقواعد الاستراتيجية العسكرية، فحقق انتصارات على أخصامه، وسيطر على مدينة دمشق. لكن اليمانية عمدت إلى الخدعة فتمكنت من مفاجأة الهيدام الذي صمد في القتال مع بعض أصحابه. ولم يبرح مكانه رغم الضغط العسكري عليه قبل أن يرسل مفرزة من جنده لمهاجمة اليمانية من الوراء محققاً بذلك عنصر المفاجأة ومنتصراً على أعدائه الذين هزموا مرة جديدة.

ب - لما كان الرشيد قد تسلّم حكماً قوياً ومستتباً، فقد تمكن من القضاء على ثورات عدة قامت بوجهه، ومنها ثورة الموصل التي قاد بنفسه الجيش المكلف بإخضاع القائمين بها، فنجح في ذلك.

أما الفتنة في مصر، فقد أحسن الرشيد اختيار القائد هرثمة بن أعين لإنهائها، إذ إن هذا القائد الكبير تمكن من ذلك فأعاد مصر إلى حضن الطاعة وجبى الضرائب المتوجبة عليها للدولة العباسية.

ج - لم يعترف الرشيد بالأمر الواقع الذي كان بعض الثوار يحاول فرضه. فعلى سبيل المثال، ولما ثار رافع بن الليث في ما وراء النهر وسيطر على سمرقند وخراسان وهزم جيوشاً عباسية عدة، أصرّ الرشيد على إخضاعه، فكلف القائد إثر القائد بذلك، إلى أن تمكن هرثمة بن أعين من قتله وإعادة ما وراء النهر إلى الطاعة تمهيداً للانطلاق في الغزو الخارجي.

فمع استتباب الوضع الأمني الداخلي في الدولة، تمكنت جيوش الخلافة من التوجه خارجاً وغزو ما وراء النهر وفتحه والانتصار على ملك الترك وتسيير الصوائف والشواتي إلى بلاد الروم.

فالسياسة العسكرية الخارجية للدولة هي

مرآة صادقة لسياستها الأمنية الداخلية. وكلما كان الوضع الداخلي آمن وهادئ، كلما تمكنت الدولة من دفع قواتها العسكرية لفرض إرادتها على ما جاورها من شعوب ودول. وعندما تضطر القوات المسلحة إلى حفظ الأمن الداخلي أو إخضاع الثائرين على السلطة، يتراجع أداؤها العسكري خارجياً. وقد تضطر إلى اعتماد استراتيجية دفاعية بهدف حفظ حدودها وحماية شعوبها من الأخطار الخارجية التي تهددها حينذاك.

ومن الاستراتيجيات الهجومية التي اعتمدها المسلمون خلال صراعهم الطويل ضد الإمبراطورية البيزنطية نذكر حملات الصوائف والشواتي التي درجوا على تسييرها باتجاه آسيا الصغرى والقسطنطينية والتي كانت تهدف إلى:

١ - إبقاء جيوشهم المواجهة لدولة الروم على أهبة تامة واستنفار شبه دائم، وتذكية الجمرة أو الشرارة القتالية في نفوس جنودهم وتدريبهم على القتال.

٢ - استطلاع بلاد الروم تجنباً للمفاجآت العسكرية.

٣ - فتح الحصون والمدن تحضيراً لغزو القسطنطينية وفتحها وإنهاء الوجود البيزنطي في آسيا الصغرى.

٤ - حماية الثغور الإسلاميّة التي أقامتها الدولة الأموية وحافظت الدولة العباسية على جهوزيتها، تمشياً مع القول العسكري المأثور: «أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم».

٥ - الحصول على غنائم وثروات من البلاد المفتتحة وتوزيع أربع أخماسها على المقاتلين الأمر الذي يحفّزهم للقتال.

٦ - أسر جماعات من الروم لمبادلتهم مع الأسرى المسلمين لديهم.

٧ - إيقاع الرعب في نفوس الروم وردعهم عن القيام بمغامرات عسكرية في بلاد الإسلام.

٨ - تلبية دعوة «الجهاد في سبيل الدين» التي أوصى بها رسول الله ﷺ وتابعها خلفاؤه من بعده.

د - عندما نقض الإمبراطور نقفور الصلح القائم مع المسلمين، سيّر الرشيد حملة عسكرية ناجحة ضده طبق خلالها قواعد التعبئة وحشد القوى والشدة والاستمرارية

والهجوم الصاعق، فتمكن من فتح هرقلة عنوة وأخربها وغنم ما فيها من خيرات، وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً.

وهكذا فرض الرشيد إرادته على خصمه تمشياً مع القول العسكري الاستراتيجي الشائع أن «الحرب هي صراع إرادات».

هـ - إنما، ورغم إنجازات الرشيد السياسية والعسكرية، فإنه ارتكب الخطأ السياسي الذي ارتكبه الخلفاء قبله والذي كان من أهم أسباب تضعضع أوضاع الدولة الأموية وسقوطها. فقد بايع الرشيد بولاية العهد لابنين له هما الأمين والمأمون بدءاً بالأمين رغم أن المأمون هو البكر.

هذا التدبير سيجر إلى حروب، ليس فقط بين الأمين والمأمون، إنما أيضاً بين العرب والفرس إذ أيد العرب الأمين ودعم الفرس المأمون، الأمر الذي أضعف العالم الإسلامي وقسّمه وزاد الخلافات العرقية تأججاً.

ملحق رقم ١

لائحة الخلفاء العباسيين

إسم الخليفة	مـدة خلافتـه هـ		مـدة خلافتـه م.	
	مـن	إلى	مـن	إلى
العصر العباسي الأول:				
أبو العباس السفاح	١٣٢ هـ	١٣٦ هـ	٧٤٩	٧٥٣
أبو جعفر المنصور	١٣٦	١٥٨	٧٥٣	٧٧٥
محمد المهدي	١٥٨	١٦٩	٧٧٥	٧٨٥
موسى الهادي	١٦٩	١٧٠	٧٨٥	٧٨٦
هارون الرشيد	١٧٠	١٩٣	٧٨٦	٨٠٩
محمد الأمين	١٩٣	١٩٨	٨٠٩	٨١٣
عبد الله المأمون	١٩٨	٢١٨	٨١٣	٨٣٢
محمد المعتصم بالله	٢١٨	٢٢٧	٨٣٣	٨٤٢
هارون الواثق بالله	٢٢٧	٢٣٢	٨٤١	٨٤٦
العصر العباسي الثاني				
جعفر المتوكل على الله	٢٣٢	٢٤٧	٨٤٦	٨٦١
محمد المنتصر بالله	٢٤٧	٢٤٨	٨٦١	٨٦٢
أحمد المستعين بالله	٢٤٨	٢٥٢	٨٦٢	٨٦٦
محمد المعتز بالله	٢٥٢	٢٥٥	٨٦٦	٨٦٩
محمد المهتدي بالله	٢٥٥	٢٥٦	٨٦٩	٨٨٠
أحمد المعتمد على الله	٢٥٦	٢٧٩	٨٧٠	٨٩٢
المعتضد بالله	٢٧٩	٢٨٩	٨٤٢	٩٠٢

إسم الخليفة	مدة خلافته هـ		مدة خلافته م.	
	من	إلى	من	إلى
المكتفي بالله	٢٨٩	٢٩٥	٩٠٢	٩٠٨
المقتدر بالله	٢٩٥	٣٢٠	٩٠٨	٩٣٢
القاهر بالله	٣٢٠	٣٢٢	٩٣٢	٩٣٤
الراضي بالله	٣٢٢	٣٢٩	٩٣٤	٩٤٠
المتقي بالله	٣٢٩	٣٣٣	٩٤٠	٩٤٤
العصر العباسي الثالث				
المستكفي بالله	٣٣٣	٣٣٤	٩٤٤	٩٤٦
المطيع لله	٣٣٤	٣٦٣	٩٤٦	٩٧٤
الطائع لله	٣٦٣	٣٨١	٩٧٤	٩٩١
القادر بالله	٣٨١	٤٢٢	٩٧٤	١٠٣١
القائم بأمر الله	٤٢٢	٤٦٧	١٠٣١	١٠٧٥
العصر العباسي الرابع				
المقتدي بالله	٤٦٧	٤٨٧	١٠٧٥	
المستظهر بالله	٤٨٧	٥٠٢		
المسترشد بالله	٥٠٢	٥٢٩		
الراشد بالله	٥٢٩	٥٣٢		
المقتفي لأمر الله	٥٣٠	٥٥٥		
المستنجد بالله	٥٥٥	٥٦٦		

إسم الخليفة	مدة خلافته هـ		مدة خلافته م	
	من	إلى	من	إلى
إقامة الخطبة العباسية بمصر	٥٦٧			
المستضيء بأمر الله	٥٦٦	٥٧٥		
الناصر لدين الله	٥٧٥	٦٢٢		
الظاهر بأمر الله	٦٢٢	٦٢٣		
المستنصر بالله	٦٢٣	٦٤٠		
المستعصم بالله	٦٤٠	٦٥٨	استيلاء التتر على بغداد	
المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله	٦٥٩	٦٦١	انتقال الخليفة إلى مصر	
الحاكم بأمر الله العباسي	٦٦١	٧٠١		
المستكفي بالله	٧٠١	–		
مدة الخلافة في مصر	٦٥٩	٩٢٣		

ملحق رقم ٢
وُلاة الأمصار في عهد هارون الرشيد[١]

(وُلاة المدينة) إسحاق بن عيسى بن علي، عبد الملك بن صالح بن علي، محمد بن عبد الله، موسى بن عيسى بن موسى، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، علي بن عيسى بن موسى، محمد بـن إبراهيم، عبدالله بـن مصعب، بكار بن عبد الله بن مصعب، محمد بن علي، أبو البختري، وهب بن منبه.

(ولاة مكة) العباس بن محمد بن إبراهيم، سليمان بن جعفر بن سليمان، موسى بن عيسى بن موسى، عبد الله بن محمد بن إبراهيم، عبد الله بن قثم بن العباس، عبيد الله بن قثم، عبد الله بن محمد بن عمران، عبيد الله بن محمد بن إبراهيم، العباس بن موسى بن عيسى، علي بن موسى بن عيسى، محمد بن عبد الله العثماني، حماد البربري، سليمان ابن جعفر بن سليمان، الفضل بن العباس بن محمد، أحمد ابن إسماعيل بن علي.

(ولاة الكوفة) موسى بن عيسى بن موسى، محمد بن إبراهيم، عبيد الله بن محمد بن إبراهيم، يعقوب بن أبي جعفر، موسى بن عيسى بن موسى، العباس بن عيسى بن موسى، إسحاق بن الصباح الكندي، موسى بن عيسى بن موسى، العباس بن عيسى بن موسى، موسى بن عيسى بن موسى، جعفر بن أبي جعفر.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٥٤-٣٥٥.

(ولاة البصرة) محمد بن سليمان بن علي، سليمان بن أبي جعفر، عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، خزيمة بن خازم، عيسى بن جعفر، جرير بن يزيد، جعفز بن سليمان، جعفر بن أبي جعفر، عبد الصمد بن علي، مالك بن علي الخزاعي، إسحاق بن سليمان بن علي، سليمان بن أبي جعفر، عيسى بن جعفر، الحسن بن جميل مولى أمير المؤمنين، عيسى بن جعفر بن أبي جعفر، جرير بن يزيد، عبد الصمد بن علي، إسحاق بن عيسى بن علي.

(ولاة خراسان) أبو العباس الطوسي، جعفر بن محمد بن الأشعث، العباس بن جعفر، الغطريف بن عطاب، سليمان بن راشد (على الخراج) حمزة بن مالك، الفضل بن يحيى بن خالد، منصور بن يزيد بن منصور، جعفر بن يحيى وخليفته بها علي بن عيسى بن ماهان، هرثمة بن أعين، العباس بن جعفر، للمأمون بها علي بن الحسن بن قحطبة.

الفصل الخامس
الصراع بين الأمين والمأمون

لما توفي هارون الرشيد بويع الأمين في العسكر الذي كان بصحبة الرشيد، وذلك صبيحة يوم الوفاة في السنة ثلاث وتسعين ومائة للهجرة، فكتب حمويه مولى المهدي صاحب البريد إلى نائبه ببغداد، سلام أبو مسلم، يعلمه بوفاة الرشيد. فدخل أبو مسلم على الأمين فعزّاه وهنأه بالخلافة، فكان أول الناس الذي فعلوا ذلك.

ثم قدم على الأمين رجاء الخادم مرسلاً من أخيه صالح ابن الرشيد ومعه الخاتم والبُردة والقضيب، فانتقل الأمين من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة. وصلى بالناس الجمعة، ثم نعى الرشيد وعزى الناس الذين بايعوه.

كتب ابن خلدون عن أحد البيعة للأمين:(١)

«وبايعته جملة أهله ووكّل سليمان بن المنصور، وهو عم أبيه وأمه بأخذ البيعة على القوّاد وغيرهم، ووكل السِنْدي بأخذ البيعة على الناس سواهم، وفرّق في الجند ببغداد رزق سنين. وقدمت أمه زبيدة من الرّقة فلقيها الأمين بالأنبار في جمع من بغداد من الوجوه، وكان معها خزائن الرشيد. وكان قد كتب إلى معسكر الرشيد وهو حي مع بكر بن المعتمر لما اشتدت علة الرشيد، وإلى المأمون بأخذ البيعة لهما وللمؤتمن أخيهما، وإلى أخيه صالح بالقدوم بالعسكر والخزائن والأموال برأي الفضل. وإلى الفضل بالحفاظ على ما معه من

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٩٠-٤٩١.

الحرم والأموال، وأقرّ كل واحد على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة».

١ - بداية الفتنة بين الأمين والمأمون:

بدأ الاختلاف بين الأمين والمأمون فور وفاة الرشيد. وكان الأمين مدعوماً من العرب، والمأمون من أخواله الفرس أهل خراسان. وكان الرشيد قد أخذ البيعة للمأمون على قادة جنده، فيما كان المأمون في مرو عند وفاة والده.

أما أسباب الفتنة فقد نقل المؤرخون العرب أن ذلك يعود إلى رغبة كل من الأمين والمأمون في الخلافة، يدعم الأول منهما القادة العرب الذين كانوا في معسكر الرشيد، فيما يدعم الثاني القادة والرؤساء الفرس الذين اعتبروا أن المأمون أفضل لهم كون والدته فارسية.

وقد فصّل المؤرخون المسلمون ظروف بداية الفتنة بين الأخوين لذلك ننقلها كما جاءت بقلم أحدهم، وهو ابن الأثير الذي كتب:[1]

«في هذه السنة[2] ابتدأ الاختلاف بين الأمين والمأمون، ابني الرشيد. وكان سبب ذلك أن الرشيد لما سار نحو خراسان، وأخذ البيعة للمأمون على جميع مَن في عسكره من القواد وغيرهم، وأقرّ له بجميع ما معه من الأموال وغيرها على ما سبق ذكره، عَظُم على الأمين ذلك. ثم بلغه شدة مرض الرشيد، فأرسل بكر بن المعتمر، وكتب معه كتباً وجعلها في قوائم صناديق المطبخ، وكانت منقورة، وألبسها جلود البقر وقال: لا تظهرَنَّ أمير المؤمنين ولا غيره على ذلك حتى يموت أمير المؤمنين ولو قتلت، فإذا مات فادفعْ إلى كل إنسان منهم ما معك. فلما قدم بكر بن المعتمر طوس بلغ هارون قدومه، فدعا به، وسأله عن سبب قدومه فقال: بعثني الأمين لآتيه بخبرك. قال: فهل معك كتاب؟ قال: لا، فأمر معه ففتّش، فلم يصيبوا شيئاً فأمر به فضُرب، فلم يقرّ بشيء،

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٥٩-٣٦١.

(٢) سنة ١٩٣ هـ.

فحبسه، وقيّده. ثم أمر الفضل بن الربيع بتقريره، فإن أقرّ وإلاّ اضربْ عنقه، فقرّره فلم يقرّ بشيء، ثم غشِي على الرشيد، فصاح النساء، فأمسك الفضل عن قتله، وحضر عند الرشيد فأفاق - وهو ضعيف - قد شغل عن بكر، وغيره ثم مات.

وكان بكر قد كتب إلى الفضل يسأله أن لا يُعجّل في أمره بشيء فإن عنده أشياء، يحتاج إلى عملها. فأحضره الفضل وأعلمه بموت الرشيد، وسأله عما عنده، فخاف أن يكون الرشيد حياً. فلما تيقّن موته، أخرج الكتب التي معه وهي كتاب إلى أخيه المأمون(1)، يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيهما المؤتمن، ولم يكن المأمون حاضراً، كان بمرو. وكتاب إلى أخيه صالح(2) يأمره بتسيير العسكر، واستصحاب ما فيه، وأن يتصرف هو ومن معه برأي الفضل. وكتاب إلى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك. وأقرّ كل منْ كان إليه عمـلٌ كصاحب الشرطة، والحرس، والحجابة. فلما قرأوا الكتب، تشاوروا هم والقواد في اللحاق بالأمين، فقال الفضل بن الربيع: لا أدعُ ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره. وأمر الناس بالرحيل، فرحلوا محبة منهم لأهلهم ووطنهم، وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون. فلما بلغ المامون ذلك، جمع مَن عنده من قواد أبيه، وهم عبد الله بن مالك، ويحيى ابن معاذ، وشبيب بن حميد بن قحطبة، والعلاء مولى هارون وهو على حجابته، والعباس بن المسيب بن زهير وهو على شرطته، وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته، وعبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح، وذو الرياستين، وهو أعظمهم عنده قدراً وأخصّهم به، واستشارهم. فأشاروا أن يلحقهم في ألفي فارس جريدة، فيردهم. فخلا به ذو الرياستين وقال: إن فعلت ما أشار به هؤلاء جعلوك هدية إلى أخيك.(3) ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتاباً، وتوجه

(1) أورد الطبري نص الكتاب.

(2) أورد الطبري نص الكتاب.

(3) في الطبري «جعلت هؤلاء هدية إلى محمد».

رسولاً يذكرهم البيعة، ويسألهم الوفاء، ويحذرهم الحنث وما فيه دنيا وآخرة. ففعل ذلك، ووجه سهلاً بن صاعد، ونوفلاً الخادم، ومعهما كتاب، فلحقا الجند، والفضل بنيسابور فأوصلا إلى الفضل كتابه فقال: إنما أنا واحد من الجند. وشدّ عبد الرحمن بن جبلة الأنباري على سهل بالرمح ليطعنه، فأمّره على جنبه وقال له: قل لصاحبك لو كنت حاضراً لوضعته في فيك، وسبّ المأمون. فرجعا إليه بالخبر، فقال ذو الرياستين: أعداء استرحت منهم. ولكن إفهم عني أن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام المنصور؛ فخرج عليه المقنع وهو يدعي الربوبية، وقيل: طلب بدم أبي مسلم، فضعضع العسكر بخروجه بخراسان. وخرج بعده يوسف البرم وهو عند المسلمين كافر فتضعضعوا أيضاً له. فأخبرني أنت أيها الأمير كيف رأيت الناس عندما ورد عليهم خبر رافع؟ قال: رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً. قال: فكيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم، كيف يكون اضطراب أهل بغداد؟ اصبرْ وأنا أضمن لك الخلافة. قال المأمون: قد فعلت وجعلت الأمر إليك فقم به».

وهكذا بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، هذه الفتنة التي ستجرّ إلى حروب بينهما سيخوضها المسلمون ضد بعضهم البعض. فقد بويع الأمين في بغداد فيما بقي المأمون متولياً ما كان بيده في خراسان والري. ووضع المأمون عن خراسان ربع الخراج فاغتبط به أهلها.(١)

كتب الأمين بعد ذلك إلى العمال بالدعاء لموسى ابنه بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن، فبلغ ذلك المأمون، فأسقط اسم الأمين وقطع البريد عنه.

في هذا الوقت بعث الأمين بالمعنى نفسه إلى أخيه المأمون الذي استشار كبار خراسان الذين أكدوا له أن بيعتهم له تفرض عدم خروجه من خراسان. عند ذلك رفض المأمون طلب الأمين واستعمل العباس بن موسى ليكون عيناً له على الأمين، وكتب إليه يخادعه بأنه عامله على خراسان الذي

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٩٢.

أمره الرشيد بلزومه، ويطلب إعفاءه من الشخوص إليه.(١)

عند هذا الحد خلع الأمين أخويه المأمون والمؤتمن من المنابر وجعل الدعاء لولده عيسى ولقبه الناطق بالحق، وأرسل إلى الكعبة من جاء بكتابَي العهد للأمين والمأمون اللذين وضعهما الرشيد هنالك.(٢)

أما المأمون فقد بعث الفضل بن سهل إلى جند الري بالأقوات والإحسان، وجمع إليهم من كان بأطرافهم. ثم بعث على الري طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي وضم إليه القادة والأجناد، فنزلها ووضع المسالح والمراصد(٣). وبعث الأمين عصمت بن حمّاد بن سالم إلى همذان في ألف رجل وأمره بأن يقيم بهمذان ويبعث مقدمته إلى ساوة(٤).

وهكذا أصبح الصراع العسكري قريباً بين الأمين والمأمون.

٢ - القتال بين علي بن عيسى وطاهر بن الحسين:

في السنة الخامسة والتسعين والمائة قرر الأمين شن الحرب على شقيقه المأمون بعد أن أمر بإسقاط ما كان ضرب لأخيه من الدراهم والدنانير بخراسان. وأمر فدُعِي لموسى ابنه على المنابر ولابنه عبد الله من بعده ولقّبه القائم بالحق، وقطع ذكر المأمون.(٥)

ثم أمر الأمين علياً بن عيسى بن ماهان بالمسير لحرب المأمون وأقطعه كُوَرْ الجبل كلها، من نهاوند إلى همذان وقم وأصبهان وغيرها، وولاه حربها وخراجها. وجهز معه خمسين ألف مقاتل وضمّ إليه قوات أبي دلف القاسم بن إدريس وهلال بن عبد الله الحضرمي، وأمدّه بالأموال والرجال تباعاً.(٦)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٦٦-٣٦٧.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٣٧.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٩.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٩٥.
(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤١.
(٦) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٣٨.

أ - **التحضير للمعركة:**

خرج علي بن عيسى في شعبان وركب الأمين يشيّعه ومعه القادة والجنود. وذكر مشايخ بغداد أنهم لم يروا عسكراً أكثر رجالاً وأتم عدة وسلاحاً من عسكره.(١)

وأنفذ علي بن عيسى الكتب إلى ملوك الديلم وطبرستان ومن والاهما من الملوك وأوصاهم أن يقطعوا طريق خراسان، بعد أن أهدى لهم التيجان والأسورة وغيرها، فأجابوه إلى ذلك.

أشار جماعة من أصحاب علي عليه بأن يرسل الجواسيس لمعرفة وضع طاهر وأن يحفر خندقاً لأصحابه ويرسل الطلائع كي لا يفاجأ. لكنه رفض وقال:(٢)

«مثل طاهر لا يُستعدّ له، ومعه من أعراب البوادي وصعاليك الجبال والقرى... ». كما أشار عليه مستشاروه، بعد أن أصبح بينه وبين الري عشرة فراسخ، بأن يقيم في الري إلى أن يأتيه المدد من خراسان، فرفض ذلك أيضاً.

أما طاهر فخرج من الري في أقل من أربعة آلاف فارس وعسكر على خمسة فراسخ منها في قرية يقال لها «كاواص»، وقرّر مجابهة جيش علي.

ب - **المعركة:**

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال بين جيشي الأمين والمأمون في «كاواص» الذي هُزم فيه جيش الأمين بقيادة علي بن عيسى رغم كثرة أعداده، فكتب:(٣)

«وقال علي لأصحابه: بادروهم، فإنهم قليلون ولو وجدوا حرارة السيوف، وطعن الرماح، لم يصبروا عليها. وعبّى جنده ميمنة، وميسرة، وقلباً، وعبّى عشرة رايات مع كل راية مائة رجل وقدّمها راية راية؛ وجعل بين كل رايتين غلوة سهم، وأمر أمراءها إذا قاتلت الراية الأولى وطال قتالهم أن تتقدم التي تليها، وتتأخر هي حتى تستريح. وجعل أصحاب الجواشن أمام الرايات، ووقف في شجعان أصحابه. وعبى طاهر أصحابه

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٦.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٧٣.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٧٤-٣٧٥.

كراديس، وسار بهم يحّرضهم، ويوصيهم، ويرجيهم. وهرب من أصحاب طاهر نفرٌ إلى علي فجَلَد بعضهم، وأهان الباقين، فكان ذلك مما ألّب الباقين على قتاله. وزحف الناس بعضهم إلى بعض، فقال أحمد بن هشام لطاهر: ألا تذكّر علي بن عيسى البيعة التي أخذها هو علينا للمأمون خاصة معاشر أهل خراسان؟ قال: أفعل. فأخذ البيعة فعلّقها على رمح، وقام بين الصفين، وطلب الأمان، فأمنه علي بن عيسى فقال له: ألا تتقي الله عزّ وجلّ، هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصة؟ اتق الله فقد بلغتَ باب قبرك. فقال علي: من أتاني به، فله ألف درهم، فشتمه أصحاب أحمد. وخرج من أصحاب علي رجل يقال له: حاتم الطائي، فحمل عليه طاهر، وأخذ السيف بيديه، وضربه، فصرعه، فلذلك سمي طاهر ذا اليمينين.

ووثب أهل الري، فأغلقوا باب المدينة، فقال طاهر لأصحابه، اشتغلوا بمن أمامكم عمّن خلفكم فإنه لا ينجيكم إلاّ الجدّ والصدق. ثم اقتتلوا قتالاً شديداً، وحملت ميمنة عليّ على ميسرة طاهر، فانهزمت هزيمة منكرة، وميسرته على ميمنة طاهر فأزالتها أيضاً عن موضعها. فقال طاهر: اجعلوها جدّكم وبأسكم على القلب، واحملوا حملة خارجية، فإنكم متى فضضتم منها راية واحدة، رجعت أوائلها على أواخرها. فصبر أصحابه صبراً صادقاً وحملوا على أول رايات القلب، فهزموهم، وأكثروا فيهم القتل. ورجعت الرايات بعضها على بعض، فانتقضت ميمنة عليّ؛ ورأى ميمنة طاهر وميسرته ما فعل أصحابهم، فرجعوا على مَن بإزائهم، فهزموهم، وانتهت الهزيمة إلى عليّ، فجعل ينادي أصحابه: أين أصحاب الخواص، والجوائز، والأسورة، والأكاليل إلى الكَرَّة بعد الفرة؟ فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله. وقيل: داود سياه هو الذي حمل رأسه إلى طاهر وشدّت يداه إلى رجليه، وحُمِل على خشبة إلى طاهر، فأمر به فألقي في بئر، فأعتق طاهر مَن كان عنده من غلمانه شكراً لله تعالى. وتمّت الهزيمة، ووضع أصحاب طاهر فيهم السيوف، وتبعوهم فرسخين، واقعوهم فيها اثنتي عشرة مرة في كل ذلك ينهزم عسكر الأمين، وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون، حتى حال الليل

بينهم وغنموا غنيمة عظيمة. ونادى طاهر مَن ألقى سلاحه فهو آمن، فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم».

وجاء خبر النصر إلى المأمون فدخل عليه الناس وسلموا عليه بالخلافة. وكان المأمون قد جهز هرثمة بن أعين في جيش كبير ليرسل مدداً لطاهر، فلم يرسله بعد أن وصلته أخبار النصر(١).

وسرّ أهل خراسان بالنصر، فخطبت فيهم الخطباء وأنشد الشعراء شعراً.

أما الأمين، فلما جاءه خبر الهزيمة، ندم على خلعه بيعة المأمون. وكتب ابن خلدون عن شغب الجند على الأمين بعد أخبار الهزيمة:(٢)

«وسعت الجند والقواد في طلب الأرزاق، فهمّ عبد الله بن حاتم بقتالهم، فمنعه الأمين وفرق فيهم أموالا».

٣ - توجيه عبد الرحمن بن جبلة إلى همذان:

لما علم الأمين بمقتل قائده علي بن عيسى وهزيمة جيشه، وجّه عبد الرحمن بن جبلة الأنباري(٣) في عشرين ألف رجل نحو همذان، واستعمله عليها وعلى كل ما يفتحه من أرض خراسان، وأمدّه بالأموال اللازمة للمعركة.(٤)

سار عبد الرحمن بجيشه حتى نزل همذان وحصّنها ورمّم سورها تمهيداً للمعركة مع طاهر بن الحسين.

نقل الطبري عن التحضيرات التي قام بها عبد الرحمن تحضيراً لمعركته مع طاهر، كما وصف مجرى المعركة وصفاً دقيقاً، فكتب:(٥)

«ذكر عبد الله بن صالح أن محمداً لما انتهى إليه قتل عليّ بن عيسى بن ماهان،

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٩٨.

(٣) في الطبري: الابناري.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٣٩.

(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤.

واستباحة طاهر عسكره، وجّه عبد الرحمن الأبناويّ في عشرين ألف رجل من الأبناء. وحمل معه الأموال، وقوّاه بالسلاح والخيل، وأجازه بجوائز، وولاه حلوان إلى ما غلب عليه من أرض خراسان، وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم. وأمره بالإكماش في السير، وتقليل اللّبث والتضجّع؛ حتى ينزل مدينة همَذان، فيسبق طاهراً إليها، ويخندق عليه وعلى أصحابه، ويجمع إليه آلة الحرب، ويغادي طاهراً وأصحابه إلى القتال. وبسط يده وأنفذ أمره في كل ما يريد العمل به، وتقدّم إليه في التحفّظ والاحتراس، وترك ما عمل به عليّ من الاغتبار والتضجّع.

فتوجه عبد الرحمن حتى نزل مدينة همَذان، فضبط طرقها، وحصّن سورها وأبوابها، وسد ثلمها، وحشر إليها الأسواق والصنّاع، وجمع فيها الآلات والميَر، واستعد للقاء طاهر ومحاربته. وكان يحيى بن علي لما قُتِل أبوه هرب في جماعة من أصحابه، فأقام بين الريّ وهمَذان، فكان لا يمرّ به أحد من فلّ أبيه إلاّ احتبسه. وكان يرى أن محمداً سيولّيه مكان أبيه، ويوجّه إليه الخيل والرجال؛ فأراد أن يجمع الفلّ إلى أن يوافيه القوة والمدد. وكتب إلى محمد يستمده ويستنجده؛ فكتب إليه محمد يعلمه توجيه عبد الرحمن الأبناويّ، ويأمره بالمقام موضعه؛ وتلقّي طاهر فيمن معه؛ وإن احتاج إلى قوّة ورجال كتب إلى عبد الرحمن فقوّاه وأعانه.

فلما بلغ طاهراً الخبر توجه نحو عبد الرحمن وأصحابه، فلما قرب من يحيى، قال يحيى لأصحابه: إن طاهراً قد قرُب منا ومعه مَنْ تعرفون من رجال خراسان وفرسانها، وهو صاحبكم بالأمس. ولا آمن إن لقيته بمن معي من هذا الفلّ أن يصدعنا صدعاً يدخل وهنه على من خلْفنا، وأن يعتلّ عبد الرحمن بذلك، ويقلّدني به العار والوهن والعجز عند أمير المؤمنين. وإن أستنجد به وأقمت على انتظار مدده؛ لم آمن أن يمسك عنا ضناً برجاله وإبقاءً عليهم وشحاً بهم على القتل. ولكن نتزاحف إلى مدينة همذان فنعسكر قريباً من عبد الرحمن؛ فإن استعنّا به قرب منا عونه؛ وإن احتاج إلينا أعنّاه وكنا بفنائه، وقاتلنا معه. قالوا: الرأي ما رأيت. فانصرف يحيى، فلما قرب من مدينة

همذان خذله أصحابه، وتفرّق أكثر مَن كان اجتمع إليه. وقصد طاهر لمدينة همذان؛ فأشرف عليها، ونادى عبد الرحمن في أصحابه، فخرج على تعبية، فصادف طاهراً، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان جميعاً، وكثر القتلى والجرحى فيهم. ثم إن عبد الرحمن انهزم، فدخل مدينة همذان، فأقام بها أياماً حتى قوي أصحابه، واندمل جراحاهم. ثم أمر بالاستعداد، وزحف إلى طاهر؛ فلما رأى طاهر أعلامه وأوائل أصحابه قد طلعوا، قال لأصحابه: إن عبد الرحمن يريد أن يتراءى لكم؛ فإذا قربتم منه قاتلكم؛ فإن هزمتموه بادر إلى المدينة فدخلها، وقاتلكم على خندقها، وامتنع بأبوابها وسورها. وإن هزمكم اتسع لهم المجال عليكم، وأمكنته سعة المعترك من قتالكم، وقتل من انهزم، وولى منكم. ولكن قفوا من خندقنا وعسكرنا قريباً؛ فإن تقارب منا قاتلناه؛ وإن بعد من خندقهم قرُبنا منه. فوقف طاهر مكانه، وظن عبد الرحمن أن الهيبة بطّأت به من لقائه والنهوض إليه، فبادر قتاله فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر طاهر، وأكثر القتل في أصحاب عبد الرحمن. وجعل عبد الرحمن يقول لأصحابه: يا معشر الأبناء، يا أبناء الملوك وألفاف السيوف؛ إنهم العجم، وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر؛ فاصبروا لهم فداكم أبي وأمي. وجعل يمر على راية راية، فيقول: اصبروا؛ إنما صبرنا ساعة، هذا أول الصبر والظفر. وقاتل بيديه قتالاً شديداً، وحمل حملات منكرة ما منها حملة إلاّ وهو يكثر في أصحاب طاهر القتل؛ فلا يزول أحد ولا يتزحزح. ثم إن رجلاً من أصحاب طاهر حمل على أصحاب علَم عبد الرحمن فقتله. وزحمهم أصحاب طاهر زحمة شديدة، فولَّوْهم أكتافهم، فوضعوا فيهم السيوف، فلم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا بهم إلى باب مدينة همذان. فأقام طاهر على باب المدينة محاصراً لهم وله؛ فكان عبد الرحمن يخرج في كل يوم فيقاتل على أبواب المدينة، ويرمي أصحابه بالحجارة من فوق السور. واشتد بهم الحصار، وتأذى بهم أهل المدينة، وتبرّموا بالقتال والحرب، وقطع طاهر عنهم المادة من كل وجه. فلما رأى عبد الرحمن، ورأى أصحابه قد هلكوا وجهدوا، وتخوّف أن يثب به أهل همذان، أرسل إلى طاهر فسأله الأمان له ولمن معه؛ فأمنه طاهر ووفى له. واعتزل

عبد الرحمن فيمن كان استأمن معه من أصحابه وأصحاب يحيى بن علي».

أ - استيلاء طاهر على أعمال الجبل:

ضمن إطار الحرب المعلنة بين الأمين والمأمون، تابع طاهر بن الحسين إنجازاته لمصلحة المأمون. فلما نزل بباب همذان وحاصر عبد الرحمن، تخوّف من أن يأتيه جيش للأمين بقيادة كثير بن قادرة من ورائه. وكان هذا الجيش متمركزاً في قزوين.

سار طاهر في ألف فارس نحو قزوين فهرب كثير بن قادرة من أمامه، فركّز طاهر حامية له في قزوين واستولى على جميع أعمال الجبل.(١)

ب - مقتل عبد الرحمن بن جبلة:

كان عبد الرحمن بن جبلة قد خرج من همذان بعد أن أمّنه طاهر، وراح يظهر لطاهر إنه مسالم فيما يحضّر للوثوب عليه وعلى أصحابه. ثم غدر بطاهر وجيشه فيما هم نائمون، فركب في أصحابه وهجم عليهم خلسة حيث جرى قتال عنيف وصفه ابن الأثير الذي كتب:(٢)

«فثبت له رجالة طاهر، وقاتلوه حتى أخذت الفرسان أهبتها، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس حتى تقطعت السيوف، وتكسّرت الرماح. وانهزم عبد الرحمن وبقي في نفر من أصحابه فقاتل وأصحابه يقولون له: قد أمكنك الهرب، فاهرب. فقال: لا يرى أمير المؤمنين وجهي منهزماً أبداً، ولم يزل يقاتل حتى قُتل. وانتهى مَنْ انهزم من أصحابه إلى عبد الله وأحمد ابني الحرشي، وكانا في جيش عظيم بقصر اللصوص قد سيره الأمين معونة لعبد الرحمن. فلما بلغ المنهزمون إليهما انهزما أيضاً في جندهما من غير قتال حتى دخلوا بغداد. وخلت البلاد لطاهر، فأقبل يحوزها بلدة بلدة وكورة كورة، حتى انتهى إلى شلاشان من قرى حلوان، فخندق بها وحصّن عسكره، وجمع أصحابه».

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٧٧.

وهكذا حسمت المعركة في خراسان وما وراء النهر لصالح المأمون وخَلَت تلك المنطقة من أي وجود عسكري للخلافة العباسية الشرعية، أي للأمين.

٤ - بيعة المأمون:

بعد الانتصارات المشار إليها أمر المأمون بأن يُخطَب له على المنابر، ويخاطَب بأمير المؤمنين. وعيّن الفضل بن سهل على المشرق كله، من جبل همذان إلى بحر فارس وبحر الديلم وجرجان، وعقد له لواءً ذا شعبتين ولقب بـ «ذي الرئاستين»، أي الحرب والعلم. كما ولي أخوه الحسن بن سهل ديوان الخراج.(١)

٥ - طاهر بن الحسين يستولي على الأهواز:

كان محمد بن يزيد عامل الأمين على الأهواز قد توجه بجيش كبير يريد جنديسابور ليحمي الأهواز من أصحاب طاهر عامل المأمون. وكان طاهر قد وجّه إلى الأهواز جيشاً بقيادة الحسين بن عمر الرستمي، ثم أمدّه بجيش آخر بقيادة قريش ابن شبل، وسار بنفسه نحو الأهواز لكي يكون قريباً من جنوده.

وسار قريش بن شبل لمبادرة محمد بن يزيد قبل أن يتحصّن في الأهواز، لكن محمداً بن يزيد سبقه إليها ووصل قريش بعده بيوم كامل فاقتتلا قتالاً شديداً. حمل جيش محمد على جماعة قريش حملة قوية، فكثر القتل بين الجانبين وقتل محمد بن يزيد عامل الأمين واستولى طاهر بن الحسين على الأهواز وأعمالها باسم المأمون، واستعمل العمال على اليمامة والبحرين وعمان.(٢)

٦ - استيلاء طاهر على واسط والكوفة والبصرة والموصل وغيرها:

بهدف إكمال سيطرة جيوش المأمون على الولايات، سار طاهر من الأهواز إلى

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٩.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦-٦٧.

واسط، وفيها السندي بن يحيى والهيثم بن شعبة من قِبَل الأمين. وكان طاهر، كلما تقدم نحوهما، سقطت المواقع والعمال بين يديه حتى جاء واسط فهرب عاملا الأمين عنها.[1]

كتب الطبري عن مبايعة عمال الكوفة والبصرة والموصل وغيرها للمأمون بواسطة طاهر بن الحسين:[2]

«وذكر عمر بن أسد، قال: أقام طاهر بالأهواز بعد قتله محمد بن يزيد بن حاتم، وأنفذ عمّاله في كورها، وولّى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلي الأهواز، ومما يلي عمل البصرة. ثم أخذ على طريق البرّ متوجهاً إلى واسط، وبها يومئذ السنديّ بن يحيى بن الحرشيّ والهيثم خليفة خزيمة بن خازم. فجعلت المسالح والعمال تتقوّض، مسلحة مسلحة، وعاملاً عاملاً كلما قرب طاهر منهم تركوا أعمالهم وهربوا عنها، حتى قرب من واسط، فنادى السنديّ بن يحيى والهيثم بن شعبة في أصحابهما، فجمعاهم إليهما، وهمّا بالقتال. وأمر الهيثم بن شعبة صاحب مراكبه أن يسرج له دوابه، فقرّب إليه فرساً، فأقبل يقسم طرفه بينها، واستقبلته عدّة. فرأى المراكبيّ التغيّر والفزع في وجهه فقال: إن أردت الهرب فعليك بها؛ فإنها أبسط في الرّكض، وأقوى على السفر. فضحك ثم قال: قرّب فرس الهرب؛ فإنه طاهر؛ ولا عار علينا في الهرب منه؛ فتركا واسطاً، وهربا عنها. ودخل طاهر واسطاً، وتخوّف إن سبق الهيثم والسنديّ إلى فم الصلح فيتحصنا بها. فوجه محمد بن طالوت، وأمره أن يبادرهما إلى فم الصلح، ويمنعهما من دخولها إن أرادا ذلك. ووجه قائداً من قواده يقال له أحمد بن المهلب نحو الكوفة وعليها يومئذ العباس بن موسى الهادي. فلما بلغ العباس خبر أحمد بن المهلب خلع محمداً، وكتب بطاعته إلى طاهر وببيعته للمأمون. ونزلت خيل طاهر فم النيل؛ وغلب على ما بين واسط والكوفة، وكتب المنصور بن المهديّ - وكان عاملاً

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٨٨.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٦٨.

لمحمد على البصرة - إلى طاهر بطاعته. ورحل طاهر حتى نزل طرنايا؛ فأقام بها يومين فلم يرها موضعاً للعسكر، فأمر بجسر فقعد وخندق له، وأنفذ كتبه بالتولية إلى العمال.

وكانت بيعة المنصور بن المهديّ بالبصرة وبيعة العباس بن موسى الهادي بالكوفة، وبيعة المطلب بن عبد الله بن مالك بالموصل للمأمون، وخلعهم محمداً في رجب سنة ست وتسعين ومائة.

وقيل: إن الذي كان على الكوفة حين نزل طاهر من قِبَل محمد الفضل بن العباس بن موسى بن عيسى.

ولما كتب من ذكرت إلى طاهر ببيعتهم للمأمون وخلعهم محمداً، أقرّهم على أعمالهم، وولّى داود بن عيسى بن موسى ابن محمد بن على الهاشمي مكة والمدينة، ويزيد بن جرير البجلي اليمن، ووجه الحارث ابن هشام وداود بن موسى إلى قصر ابن هبيرة».

فلما بلغ الأمين خبر خلعه من قِبَل عامله بالكوفة، وجّه محمداً بن سليمان القائد ومحمداً بن حماد البربري في جند إليه حيث جرى قتال عنيف انهزم بنتيجته جيش الأمين.

كما وجّه الأمين أيضاً جيشاً بقيادة الفضل بن موسى بن عيسى الهاشمي إلى الكوفة فلاقاه محمد بن العلاء في جيش مرسل من طاهر، واقتتل الجيشان قتالاً شديداً كأشد ما يكون من القتال، انهزم بنهايته أيضاً جيش الأمين.[1]

وهكذا بدا واضحاً أن المأمون بات يربح في حربه ضد الأمين، هذه الحرب التي ستنتهي بقتل الأمين واستخلاف المأمون.

٧ - استيلاء طاهر على المدائن ونزوله في صرصر:

ثم سار طاهر في السنة السادسة والتسعين بعد المائة إلى المدائن التي كان يتمركز فيها جيش ضخم للأمين بقيادة البرمكي.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٨٨.

نقل الطبري خبر القتال حول المدائن، فكتب:[1]

«وتوجّه طاهر إلى المدائن، وفيها جند كثير من خيول محمد؛ عليهم البرمكيّ قد تحصن بها، والمدد يأتيه في كل يوم، والصّلات والخلع من قبَل محمد. فلما قرب طاهر من المدائن - وكان منها على رأس فرسخين - نزل فصلى ركعتين، وسبّح فأكثر التسبيح، فقال: اللهم إنّا نسألك نصراً كنصرك المسلمين يوم المدائن. ووجّه الحسن بن علي المأموني وقريش بن شبل، ووجّه الهادي بن حفص على مقدمته وسار. فلما سمع أصحاب البرمكي صوت طبوله، أسرجوا الدواب، وأخذوا في تعبيتهم، وجعل مَنْ في أوائل الناس ينضم إلى أواخرهم. وأخذ البرمكي في تسوية الصفوف؛ فكلما سوّى صفاً انتفض واضطرب عليه أمرهم، فقال: اللهم إنا نعوذ بك من الخذلان. ثم التفت إلى صاحب ساقته، فقال: خلّ سبيل الناس؛ فإني أرى جنداً لا خير عندهم، فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد. فنزل طاهر المدائن، وقدّم منها قريش بن شبل والعباس بن بخاراخذاه إلى الدّرْزيجان، وأحمد بن سعيد الحرشي ونصر ابن منصور بن نصر بن مالك معسكران بنهر ديائي، فمنعا أصحاب البرمكيّ من الجواز إلى بغداد. وتقدم طاهر حتى صار إلى الدرزيجان حيال أحمد ونصر بن منصور، فسيّر إليهما الرجال، فلم يجر بينهما كثير قتال حتى انهزموا، وأخذ طاهر ذات اليسار إلى نهر صرصر، فعقد بها جسراً ونزلها».

٨ - بيعة الحجاز للمأمون:

في السنة السادسة والتسعين والمائة خلع عاملا مكة المكرمة والمدينة الأمين وبايعا للمأمون. وكان عامل الأمين على مكة المكرمة هو داود بن عيسى بن موسى وابنه سليمان عامل المدينة.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٦٩.

كتب ابن خلدون عن مبايعة الحجاز للمأمون:(١)

«لما أخذ الأمين كتب العهد من مكة، وأمر داود بن عيسى وكان على مكة والمدينة بخلع المأمون، قام في الناس ونكر نقض العهد، وذكّرهم ما أخذ الرشيد عليهم من الميثاق لابنَيْه في المسجد الحرام أن يكونوا على الظالم. وأن محمداً بدأ بالظلم والنكث، وخلع أخويه وبايع لطفل صغير رضيع، وأخذ الكتابين من الكعبة فحرقهما ظلماً. ثم دعا إلى خلعه والبيعة للمأمون فأجابوه، ونادى بذلك في شِعاب مكة وخطبهم. وكتب إلى ابنه سليمان بالمدينة بمثل ذلك ففعل، وذلك في رجب سنة ست وتسعين. وسار من مكة على البصرة وفارس وكرمان إلى المأمون، وأخبره فسر بذلك وولاه مكانه، وأضاف إليه ولاية عَكّا. وأعطاه خمسمائة ألف درهم وسيّر معه ابن أخيه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى على الموسم، ويزيد بن جرير بن مزيد بن خالد القسريّ في جند كثيف عاملاً على اليمن. ومرّوا بطاهر وهو محاصَر في بغداد، فأكرمهم وأقام يريد اليمن فبايعوه للمأمون وأطاعوه».

٩ - الأمين يعقد الألوية لقادته:

عقد محمد الأمين في رجب وشعبان من السنة السادسة والتسعين والمائة نحواً من أربعمائة لواء لقادة شتى، وأمّر عليهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك وأمرهم بالمسير لقتال هرثمة بن أعين. سار القادة فالتقوا بهرثمة بنواحي النهروان فهزموا وأُسر قائدهم محمد بن عيسى، فأرسله هرثمة إلى المأمون بعد أن نزل النهروان.(٢)

١٠ - محاولات استقطاب الجند:

أقام طاهر في صرصر مستعداً لمحاربة الأمين، وكان لا يأتيه جيش إلاّ هزمه. لذلك بذل الأمين الأموال في محاولات استمالة جند طاهر إلى جهته، فسار إليه نحو خمسة

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٠٥-٥٠٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٧١.

آلاف منهم ففرّق فيهم مالاً كثيراً وسمّاهم «قواد الغالية».

نقل الطبري رواية عن التدابير التي نفذها الأمين لاستقطاب جند طاهر والقتال الذي جرى بين الجهتين، فكتب:[1]

«فمكثوا بذلك أشهراً، وقوّد جماعة من الحربية وغيرهم ممن تعرض لذلك وطلبه، وعقد لهم، ووجّههم إلى دسكرة الملك والنهروان. ووجّه إليهم حبيب بن جهم النمريّ الأعرابيّ في أصحابه؛ فلم يكن بينهم كثير قتال. وندب محمد قواداً من قواد بغداد، فوجههم إلى الياسريّة والكوثريّة والسفينتين، وحمل إليهم الأطعمة، وقواهم بالأرزاق، وصيّرهم ردءاً لمن خلفهم. وفرّق الجواسيس في أصحاب طاهر، ودسّ إلى رؤساء الجند الكتب بالإطماع والترغيب، فشغبوا على طاهر، واستأمن كثير منهم إلى محمد، ومع كل عشرة أنفس منهم طبل. فأرعدوا وأبرقوا وأجلبوا، ودنوا حتى أشرفوا على نهر صرصر، فعبّى طاهر أصحابه كراديس، ثم جعل يمر على كل كِردوس منهم، فيقول: لا يغرنّكم كثرة مَنْ ترون، ولا يمنعكم استئمان من استأمن منهم، فإن النصر مع الصدق والثبات، والفتح مع الصبر، وربّ فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. ثم أمرهم بالتقدم، فتقدموا واضطربوا بالسيوف ملياً. ثم إن الله ضرب أكتاف أهل بغداد فولَوا منهزمين، وأخلوا موضع عسكرهم. فانتهب أصحاب طاهر كل ما كان فيه من سلاح ومال. وبلغ الخبر محمداً، فأمر بالعطاء فوُضع، وأخرج خزائنه وذخائره، وفرّق الصّلات وجمع أهل الأرباض، واعترض الناس على عينه، فكان لا يرى أحداً وسيماً حسن الرواء إلاّ خلع عليه وقوّده. وكان لا يقوّد أحداً إلاّ غلّفت لحيته بالغالية؛ وهم الذين يسمّون قواد الغالية. قال: وفرّق في قوّاده المحدثين لكل رجل منهم خمسمائة درهم وقارورة غالية، ولم يعط جند القواد وأصحابهم شيئاً. وأتت عيون طاهر وجواسيسه طاهراً بذلك؛ فراسلهم وكاتبهم، ووعدهم واستمالهم،

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص٧٢.

وأغرى أصاغرهم بأكابرهم، فشغبوا على محمد يوم الأربعاء لست خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائة.

ولما شغب الجند، وصعب الأمر على محمد شاور قواده، فقيل له: تدارك القوم، فتلاف أمرك؛ فإن بهم قوام ملكك؛ وهم بعد الله أزالوه عنك أيام الحسين، وهم ردّوه عليك؛ وهم من قد عرفْتَ نجدتهم وبأسهم. فلجّ في أمرهم وأمر بقتالهم، فوجّه إليهم التنوخيّ وغيره من المستأمنة والأجناد الذين كانوا معه، فعاجل القوم القتال. وراسلهم طاهر وراسلوه؛ فأخذ رهائنهم على بذْل الطاعة له، وكتب إليهم، فأعطاهم الأمان، وبذل لهم الأموال. ثم قدم فصار إلى البستان الذي على باب الأنبار يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من ذي الحجة، فنزل البستان بقوّاده وأجناده وأصحابه. ونزل مَنْ لحق بطاهر من المستأمنة من قوّاد محمد وجنده في البستان وفي الأرباض، وألحقهم جميعاً بالثمانين في الأرزاق. وأضعف للقواد وأبناء القواد الخواصّ، وأجرى عليهم وعلى كثير من رجالهم الأموال. ونقب أهل السجون السجون وخرجوا منها، وفُتِن الناس، ووثب على أهل الصلاح الدُّعار والشطار، فعزّ الفاجر، وذلّ المؤمن، واختلّ الصالح، وساءت حال الناس إلاّ من كان في عسكر طاهر لتفقده أمرهم، وأخذه على أيدي سفهائهم وفسّاقهم. واشتد في ذلك عليهم، وغادى القتال وراوحه، حتى تواكل الفريقان، وخربت الدار».

١١ - مقتل الحسين بن علي بن ماهان:

كان الحسين بن علي بن ماهان أحد قادة جند الأمين، وكان قد عاد بجيشه من الرقة ولم يتقدم من الخليفة رغم طلبه من قبل هذا الأخير. بل إنه بدأ يؤلب الجند ضد الخليفة، فالتفت إليه جماعات كثيرة حارب فيها جيش الأمين وهزمه. وخلع الحسين الأمين وأخذ البيعة للمأمون وذلك في الحادي عشر من شهر رجب السنة ست وتسعين ومائة. ثم جرى قتال بين جند للأمين وجيش الحسين ابن علي، قتل خلاله هذا الأخير فجدد الناس البيعة للأمين، وفق ما كتب ابن كثير:[1]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٢٥٠.

«لما أصبح الحسين بن علي بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الرقة، قام في الناس خطيباً وألّبهم على الأمين. وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصي، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس. ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه، وندبهم لذلك، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير. وبعث محمد الأمين إليه خيلاً فاقتتلوا ملياً من النهار، فأمر الحسين أصحابه بالترجل إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرماح، فانهزم جيش الأمين وخلعه وأخذ البيعة لعبد الله المأمون، وذلك يوم الأحد الحادي عشر من شهر رجب من هذه السنة. ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد، وضيق عليه وقيده واضطهده. وأمر العباس ابن عيسى بن موسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فضربها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها. فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن علي أعطياتهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين، فرقة مع الأمين وفرقة عليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك، وأسروا الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وقيّدوه ودخلوا به على الخليفة ففكوا عنه قيوده وأجلسوه على سريره. فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزائن، فانتهب الناس الخزائن التي فيها السلاح بسبب ذلك. وأمر الأمين فأتى بالحسين بن علي بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك. فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه الخاتم وولاه ما وراء بابه، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان. فلما وصل إلى الجسر هرب في حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من يردّه، فركبت الخيول وراءه فأدركوه فقاتلهم وقاتلوه لمنتصف رجب، وجاءوا برأسه إلى الأمين، وجدد الناس البيعة للأمين».

١٢ - حصار بغداد ومقتل الأمين:

في السنة السابعة والتسعين والمائة جرى حصار بغداد من قبل القادة الموالين للمأمون، وهم طاهر بن الحسين وهرثمة بن

أعين وزهير بن المسيّب الضبيّ الذي نزل برقة كلوازي ونصب المجانيق والعرادات وحفر الخنادق وأخذ يرمي بالعرادات (١) ويعشّر أموال التجار الذين شكوا منه إلى طاهر.(٢)

ونزل هرثمة «نَهربَين» وعمل عليها خندقاً وسوراً. ونزل عبيد الله بن الوضّاح بالشماسية، وطاهر بالبستان الذي بباب الأنبار. فلما نزل فيه طاهر شق ذلك على الأمين الذي فرّق جميع أمواله ثم أمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة بما فيها الذهب والفضة وفرّق أثمانها في أصحابه.(٣)

واستأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم فولاّه الأسواق وشاطئ دجلة وما اتصل به، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان في كل الأماكن والدروب، وأمدّه بالرجال. وهكذا كثر الخراب والهدم في بغداد وهدمت منازل كثيرة.(٤)

أوكل الأمين علي بن محمد بن عيسى بقصر صالح وقصر سليمان بن المنصور وألحّ في إحراق الدور والدروب والرمي بالمجانيق. وفعل طاهر مثله فأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة وما يليها لتأييده. وكان، كلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم، ومن أبى إجابته قتله وأحرق منزله.(٥)

وصادر طاهر أموال من لم يخرج معه من بني هاشم والقادة فضعفوا عن القتال، وقام الباعة والعيارون بنهب أموال الناس. لذلك راح بعض القادة يطلبون الأمان من طاهر ومنهم الموكل بقصر صالح الذي أمنه وسيّر إليه جنداً كثيفاً فسلم ما كان بيده في تلك الناحية. كما استأمن إليه محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين.(٦)

---

(١) العرادة هي منجنيق صغير كان يستعمل لرمي السهام دفعة واحدة إلى مسافات وأهداف بعيدة.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٧٤.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠٧.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٩٣.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠٨.

(٦) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٧٥.

واجتمع العيارون[1] والباعة والأجناد وقاتلوا جند طاهر في قصر صالح قتالاً شديداً قتل فيه من أصحاب صالح جماعة كثيرة بما فيهم بعض القادة. وكانت هذه الوقعة من أشد الوقعات على جيش طاهر.[2]

عند هذا الحد، كاتب طاهر القادة الهاشميين وغيرهم من الذين كان قد أخذ ضياعهم، ودعاهم إلى الأمان وإلى بيعة المأمون، فأجابه بنو قحطبة كلهم ويحيى بن علي بن ماهان وغيرهم كثيرون. وفشل الأمين في فرض الأمن، فأوكل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الحسن الهرش ومعهم الغوغاء الذين راحوا يسلبون ويقتلون فخرج الناس من بغداد وافترقوا في البلاد.[3]

أ - القتال مع العيارين:

أمام الضغط على جند طاهر في قصر صالح، شرع بهدم المباني وتخريبها، ثم قطع الميرة عن الناس وصرف السفن التي تُحمل فيها إلى الفرات، فغلت الأسعار وضاق الحصار واشتد ضغط العيارين الذين هزموا عبيد الله بن الوضّاح في الشماسية. ولما أنجده هرثمة هزموه أيضاً وأسروه ثم خلّصه أصحابه.[4]

وعقد طاهر جسراً فوق الشماسية وعبر إليهم وقاتلهم أشد قتال فردّهم على أعقابهم وقتل منهم عدداً كبيراً. فعاد ابن الوضاح إلى مركزه وأحرق منازل الأمين بالخيزرانية، فأيقن الأمين بالهلاك لا سيما بعد أن فرّ من عنده عبد الله بن خازم بن خزيمة إلى المدائن.

ب - روايات عن القتال:

كثرت الروايات عن القتال حول بغداد، ومنها ما هو غريب. ذكر إحداها ابن الأثير الذي كتب:[5]

---

(١) العيارون هم شرطة في بغداد.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٢٥٣.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠٨.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٨٠.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٩٦.

«ذكر أن قائداً من أهل خراسان من أصحاب طاهر من أهل النجدة والبأس خرج يوماً إلى القتال فنظر إلى قوم عراة لا سلاح معهم فقال لأصحابه: ما يقاتلنا إلاّ من نرى استهانة بأمرهم واحتقاراً لهم. فقيل له: نعم هؤلاء هم الآفة. فقال لهم: أفٍّ لكم حين تنهزمون من هؤلاء وأنتم في السلاح والعدّة والقوة، وفيكم الشجاعة، وما عسى يبلغ كيد هؤلاء ولا سلاح معهم، ولا جنة تقيهم. وتقدم إلى بعضهم وفي يديه بارية مقيرة، وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة. فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار، فوقع في باريته أو قريباً منها، فيأخذه، ويتركه معه. وصاح دانق أي ثمن النشابة دانق قد أحرزه. فلم يزالا كذلك حتى فنى سهام الخراساني، ثم حمل عليه العيار ورُمِي بحجر من مخلاته في مقلاع فما أخطأ عينه، ثم خرّ فكاد يصرعه، فانهزم وهو يقول: ليس هؤلاء بناس.(١) فلما سمع طاهر خبره، ضحك منه».

وفي رواية أخرى أن أحد قادة الأمين ويدعى «الهرش» خرج ومعه جند إلى جزيرة العباس، وكانت ناحية لم يقاتل فيها بعد، فخرجت إليه مجموعة من جند طاهر وقاتلوه فقوي عليهم. أمدّهم طاهر بجند آخر فأوقعوا بالهرش وجنده وقعة شديدة، فغرق منهم عدد كبير في النهر.(٢)

ج - سقوط بغداد بيد طاهر:

وفي بداية السنة الثامنة والتسعين والمائة التحق خزيمة بن خازم بطاهر وفارق الأمين، ودخل هرثمة إلى الجانب الشرقي من بغداد.(٣)

وكتب طاهر إلى خزيمة وإلى محمد بن علي بن عيسى بن ماهان بالتقدم نحو بغداد. فلما كانت ليلة الأربعاء لثمانٍ بقين من المحرم، وثب خزيمة ومحمد على جسر دجلة فقطعاه وخلعا محمداً الأمين.

وفي اليوم التالي تقدم طاهر إلى المدينة والكرخ فقاتل هناك قتالاً شديداً فهزم

---

(١) في الطبري: ليس هؤلاء بأنس.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، جزء ٥، ص٣٩٧.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٩٠.

الناس حتى ألحقهم بالكرخ حيث قاتلهم أيضاً وهزمهم فدخل بغداد بالسيف، وأمر مناديه فنادى: «من لزم بيته فهو آمن».(١)

ثم ركّز بسوق الكرخ وقصر الوضاح جنداً على قدر حاجته، وقصد إلى مدينة المنصور وأحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من باب الجسر إلى باب خراسان، وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة، وشاطئ الصراة إلى مصبّها في دجلة.(٢)

وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش والأفارقة، فنصب المجانيق بإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد. وأخذ الأمين أمه وأولاده إلى مدينة المنصور وتفرّق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه. وتحصّن الأمين بمدينة المنصور وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب.(٣)

د - مقتل الأمين:

لما استولى طاهر على أسواق الكرخ وغيرها، اشتدّ الأمر على الأمين، فاجتمع عنده عدد من الأمراء والجند والخدم، فشاورهم في أمره فظهر رأيان:(٤)

- الأول، وعلى رأس المنادين به محمد ابن حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب. ويرى أصحابه أنه قد بقي لدى الأمين سبعة آلاف فرس، فعليه أن يختار ممن عرفهم سبعة آلاف(٥) فيحملهم على الخيل ويخرج ليلاً من أحد الأبواب إلى الجزيرة والشام حيث يجبي الخراج ويتقوى في تلك البقاع فينقطع الجند عن طلبه.

- الثاني يرى أصحابه، وعلى رأسهم سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نهيك والسندي بن شاهك، وكان هؤلاء من

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص٩١.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٥٤.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥١٠.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٠٢.
الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٩٣-٩٤.
ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٥٥.
(٥) في الطبري: ألف فرس وسبعماية فارس.

جواسيس طاهر في قصر الأمين، وجوب طلب الأمان من أخيه المأمون بعد مبايعته له.

ومما قاله هؤلاء للأمين:(١)

«إنما غايتك اللهو والسلامة، وأخوك يتركك حيث أحببت ويجعل لك فيه كل ما يملك، وكل ما تحب وتهوى، وليس عليك بأس ولا مكروه».

اختار الأمين العمل بالرأي الثاني فأرسل يطلب الأمان من هرثمة بن أعين على أن يعطي الخاتم والقضيب والبُردة أي شارات الخلافة إلى طاهر ليرسلها إلى المأمون.

وبالفعل، خرج الأمين إلى هرثمة الذي كان ينتظره في حراقة.(٢)

وكان الأمين يرتدي ثياب الخلافة. نقل ابن كثير رواية عن تدخل جند طاهر وقلب الحراقة في النهر ومقتل الأمين، فكتب:(٣)

«فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخرة واعد هرثمة أن يخرج إليه. ثم لبس ثياب الخلافة وطيلساناً واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال: أستودعكما الله. ومسح دموعه بطرف كمه، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة. فلما انتهى إلى هرثمة أكرمه وعظّمه وركبا في حراقة في دجلة. وبلغ ذلك طاهراً فغضب من ذلك وقال: أنا الذي فعلت هذا كله ويذهب إلى غيري، وينسب هذا كله إلى هرثمة. فلحقهما وهما في الحراقة فأمالها أصحابه فغرق من فيها غير أن محمد الأمين سبح إلى الجانب الآخر وأسره بعض الجند. وجاء فأعلم طاهراً فبعث إليه جنداً من العجم فجاءوا إلى البيت الذي هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له: أُدْن مني فإني أجد وحشة شديدة. وجعل يلتف في ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقاناً عظيماً، كاد يخرج من صدره. فلما دخل عليه أولئك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول: ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي. فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، بل تكاثروا عليه

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٩٤.

(٢) حراقة: سفينة نهرية.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٥٥.

وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جثته. ثم جاؤوا بكرة إليها فلفّوها في جل فرس وذهبوا بها. وذلك ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر من هذه السنة».(١)

فلما كان اليوم التالي أحرقت جثة الأمين ونصب طاهر الرأس على برج وخرج أهل بغداد ينظرون إلى الرأس قبل أن يرسله طاهر إلى المأمون. فلما رأى المأمون الرأس سجد وتسلّم شارات الخلافة من طاهر.

ثم نودي في الناس بالأمان ودخل طاهر بغداد يوم الجمعة فصلى بالناس وخطب للمأمون وذمّ الأمين.(٢)

١٣ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - إثر وفاة الرشيد وبيعة الأمين، أحسن هذا الأخير في إبقاء كل من معاوني والده في عمله، كصاحب الشرطة والحرس والحجابة؛ وذلك بهدف الحفاظ على ولائهم بانتظار تثبيت سلطته واستبدالهم إذا لزم الأمر.

وهذا الأمر يذكّرنا بقيام الإمام علي بن أبي طالب باستبدال ولاة عثمان بن عفان فور استخلافه خلافاً لرأي أخصائه بتأخير هذا الاستبدال لحين جلاء غموض قضية مقتل الخليفة عثمان.

إنما، ورغم تريّث الأمين، بدأت الفتنة بينه وبين أخيه المأمون إذ كان كل منهما يريد الخلافة لنفسه بدعم من فريق قوي، إذ دعم القادة العرب في معسكر الرشيد الأمين، ودعم القادة الفرس المأمون.

لكن الأمين عاد ووقع في الخطأ الذي تجنبه بإبقاء المعاونين في وظائفهم، إذ إنه عزل شقيقه المأمون عن ولاية العهد وأمر بالدعاء لابنه موسى خلافاً لرغبة والده. وقد قام بذلك دون أن يجري تحليلاً دقيقاً للوضع العسكري ويقارن قواته مع القوات الموالية للمأمون ودون أن يتحقق من إمكانية تحقيق مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل».

---

(١) أي في السنة الثامنة والتسعين والمائة.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٠٢.

ب - منذ بداية الصراع، عمل كل من الأمين والمأمون على تحقيق حرية عمله إذ التفّ حول الأول القادة العرب في بغداد التي سيطر عليها، وبقي الثاني في خراسان إلى جانب أخواله ومؤيديه من الفرس الذين دعموه ودافعوا عن قضيته.

وهكذا أصبح الصراع العسكري واقعاً بعد أن وصلت المساعي السياسية إلى الحائط المسدود تمشياً مع قاعدة أن «الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى».

وقبل جهوزه للمواجهة اعتمد المأمون الخدعة فكتب إلى الخليفة إنه يعتبر نفسه عامله على خراسان فيما كان يضمر خلعه وتنصيب نفسه خليفة للمسلمين. وهكذا أصبح على الأمين اتخاذ الخطوة الأولى لإبراز الصراع إلى العلن. وبالفعل، خلع أخوه ونصّب ابنه موسى ولياً لعهده.

اعتباراً من هذا الحدث بدأ كل من الأمين والمأمون التحضيرات الميدانية للصراع العسكري؛ وجاءت المبادرة الأولى أيضاً من الأمين بعد أن كانت المبادرة السياسية قد جاءت أيضاً منه بإقالة أخيه من ولاية العهد.

ونحن نرى أن للصراع هذا عوامل غير العوامل الخاصة بالأخوين. فقد كان صراعاً بين شعبين ينتميان إلى عرقين مختلفين أي بين العرب الساميين والفرس الهندوأوروبيين، وكان متجذراً في التاريخ السياسي والعسكري للشعبين المذكورين. فمنذ الجاهلية سُجّلت وقائع عديدة بين الفرس والقبائل العربية كان أهمها وقعة ذي قار التي انتصرت فيها القبائل العربية.

تلا ذلك انهيار الدولة الساسانية تحت ضربات الجيوش العربية المظفرة في وقائع العراق وفارس، ولا سيما في القادسية ونهاوند اللتين سيطر بعدهما العرب المسلمون على بلاد فارس واستبعد الفرس عن القيادات السياسية والعسكرية في دولتي الراشدين والأمويين. ثم انتقم الفرس من خلال الثورة العباسية التي قادوا ألويتها وخاضوا المعارك في سبيل قيام الخلافة العباسية.

ثم اعتبر بطش أبي جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني ونكبة البرامكة على يد هارون الرشيد من مظاهر هذا الصراع الطويل بين الاتنيتين العربية والفارسية،

والذي تجسد أيضاً في الحرب الشاملة التي وقعت بين الأمين والمأمون والتي انتصر فيها العنصر الفارسي فاعتبرت كانتقام للنكبتين اللتين أنزلتا بأبي مسلم وبالبرامكة.

ج - في معركة «كاواص» اعتمد الأمين استراتيجية التعبئة العامة وحشد القوى ومدها بالأموال والأسلحة، وذلك تحقيقاً لمبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل» الذي كانت كفته تميل إلى جانبه إذ نقل ابن خلدون أن مشايخ بغداد لم يروا «عسكراً أكثر رجالاً وأتمّ عدة وسلاحاً من العسكر الذي سيّرهم الأمين لقتال المأمون بقيادة القائد علي بن عيسى».

أما القائد علي بن عيسى فقد عمد إلى تأمين حرية عمل جيشه من خلال تكليف ملوك الديلم وطبرستان ومن والاهما بقطع طريق خراسان لمنع جيش المأمون من تأمين مبدأ الحرب الثاني أي حرية عمله مستخدماً وسيلة الترغيب.

إلاّ أنه أخطأ في عدم تنفيذ وصية معاونيه بإرسال الجواسيس لاستطلاع أوضاع الجيش المعادي وحفر خندق لأصحابه بهدف عدم تعريض جيشه للمفاجآت، مستهيناً بخصمه إذ قال: «مثل طاهر لا يُستَعدُّ له». كما رفض الإقامة في الري بانتظار وصول المدد من خراسان فأخلّ بقاعدة قتال أساسية تقضي بـ «تجميع القوى وحشدها»، وبمبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل» الذي يفرض إمكانية زج جميع وحدات الجيش في المعركة قبل انتهائها.

فكما سبق القول، إن القائد الذي يستهين بخصمه ولا يقدّره حق قدره، يعرّض نفسه وجيشه إلى مفاجآت غير محمودة العواقب. والقائد المتبصّر يدرس أوضاع خصمه جيداً من خلال المعلومات التي يحصل عليها من جواسيسه، إذ إن عنوان البند الأول في أمر العمليات الذي يصدره تمهيداً لمعركته هو «معلومات عن العدو». فـ «عدو معروف هو نصف مغلوب، وعدو مجهول يقود الجيش إلى المجهول».

إن إخلال قائد جيش الأمين بمبادئ الحرب وبقواعد الفن العسكري أدّى إلى خسارته المعركة رغم تفوق جيشه العددي الواضح. لذلك، نرى أن القائد الذي يهمل هذه المبادئ والقواعد يقود وحداته إلى المجهول، وربما إلى الهلاك.

د - رغم أن علي بن عيسى أحسن في التخطيط لمعركته، مطبِّقاً قاعدة تتابع الجهد خلالها، وفي تأمين استراحة الوحدات تباعاً لإبقائها جاهزة للقتال، فإنه أخطأ في معاملته لجنود خصمه الملتحقين به.

فعندما انحازت مجموعات من جيش خصمه إلى جانبه، جلد بعضهم وأهان الباقين، الأمر الذي ردع غيرهم من الالتحاق به ودفعهم إلى مقاتلته بحماس منقطع النظير محققين بذلك مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل».

هـ - خلال المعركة، ورغم تراجع ميمنة وميسرة جيش المأمون، فإن تصميم قائده طاهر بن الحسين وتنفيذه هجوماً صاعقاً على قلب جيش خصمه الذي تضعضعت راياته، حفّز ميمنة وميسرة طاهر للعودة إلى شن هجوم معاكس ناجح أدى إلى هزيمة جيش الأمين بعد مقتل قائده.

و - عاد الأمين ووجه القائد عبد الرحمن ابن جبلة لقتال طاهر بعد أن طبق استراتيجية حشد القوى ومدها بالأموال والأسلحة ووسائل النقل، ووعدها بالجوائز قصداً لتحفيزها للقتال. وأوصى الأمين قائده وصايا استراتيجية أهمها:

* التقدم بسرعة وبلوغ همذان قبل خصمه.
* إنشاء خندق للاحتماء به.
* جمع آلة الحرب وحشدها.
* مبادرة خصمه بالهجوم.
* التحفظ والاحتراس وعدم الاغترار والاستهانة بخصمه.

وهذه الوصايا تصلح لأن تكون برنامج عمل عسكري استراتيجي لكل جيش يتحضّر للقتال.

ز - وأحسن عبد الرحمن بضبط الطرق إلى همذان وتحصين سورها وتدعيم أبوابها وسد الثغرات فيها، وذلك تحقيقاً لمبدأ حرية العمل.

ح - ولما كانت الحرب صراع إرادات، ينتصر فيها من يكون أكثر صموداً، فإن تصميم طاهر على النجاح، وتشدّده في حصار همذان، وحسن إدارته للمعركة حول المدينة، كلها عوامل دفعت عبد الرحمن إلى الاستسلام وطلب الأمان من قائد جيش المأمون.

ط - وبغية تأمين حرية عمله وعدم تعريض جيشه الذي يحاصر همذان إلى

هجوم من الوراء من قبل جيش للأمين كان يتمركز في قزوين، شنّ طاهر هجوماً وقائياً على هذا الجيش فهزمه واستولى على جميع أعمال الجبل.

ي - ومع تراجع فلول المنهزمين من جيوش الأمين، تدنت معنويات جنوده، الأمر الذي دفع بالجيش الكبير، الذي كان قد سيّره بقيادة عبد الله وأحمد ابني الحرشي لقتال طاهر، إلى الانهزام دون قتال والعودة إلى بغداد.

ك - وفي معركة المدائن، فشل قائد جيش الأمين في تأليب جنوده وتنظيمهم للقتال، إذ نقل ابن خلدون أنه كان، «وكلما سوّى صفاً انتفض واضطرب عليه أمرهم». وهكذا سرّح جنوده خوفاً من خوض القتال ضد القائد طاهر الذي لم يُهزم في أي معركة من معاركه ضد الخليفة الأمين.

وهكذا حسمت المعركة في خراسان وما وراء النهر وفارس لمصلحة المأمون.

ل - بعد هذه الإنجازات العسكرية المتتالية، راح القائد الكبير طاهر بن الحسين ينتقل من نصر إلى آخر، وأصبحت تصفية الآلة العسكرية التابعة للخليفة الأمين قيد التحقيق في ما يشبه «استغلال النصر». فقد سيطر طاهر على الأهواز والبحرين وعمان وواسط والكوفة والبصرة والموصل.

تقليدياً، وخلال الصراع بين قوتين عسكريتين، يحسم الصراع خلال معركة حاسمة يتبعها تدمير وحدات العدو المتبقية في عمليات واسعة من الملاحقة واستغلال النصر.

وهذا ما حصل بين الأمين والمأمون.

م - يمكن إعادة أسباب انتصار المأمون للأمور الآتية:

١ - عبقرية وإمكانات قائد جيشه، طاهر ابن الحسين.

٢ - انضمام قادة عسكريين كبار إلى جانب المأمون وقيادتهم جيوشه بجدارة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٤٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٠٤.

(٣) في الطبري ٢٥٠ رجلاً.

وتصـميـم وانتصـاراتهم المتكررة في غالـبيـة معـاركـهـم ضـد الأمين، وأبـرزهـم طـاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيِّب الضبيّ.

٣ - تصميم جنود المأمون وانضباطهم وشدة حوافزهم.

٤ - خـروج بـعض قـادة الأمين عـلـيـه، كالحسين بن علي الذي حاربه في جيش تألب معه ضد الخليفة.

٥ - الـهزائـم المتتـالـيـة لجيـوش الأمين، الأمر الذي جعل جيوشاً أخرى من مؤيديه تنهزم دون خوض القتال.

٦ - تصـرفـاتـه الشـخصـيـة، مـن الـلـهـو وشرب الخمر والفساد.

الفصل السادس

العمليات العسكرية في عهد المأمون

انتهى الصراع بين الأمين والمأمون بانتصار الأخير، لكن هذا الصراع كانت له ذيول خطيرة على مستقبل الدولة الإسلاميّة. فالرشيد، ورغم حنكته السياسية، وقع في خطأ كبير كان أسلافه قد وقعوا بمثله. فهو، وتحت ضغط زوجته العربية زبيدة مدعومة بالقوة العربية في الخلافة الإسلاميّة، أبعد ابنه الأكبر المأمون عن الخلافة، وهو الذي كان من المرجّح أن يتسلمها بعد والده. ثم قام في السنة ١٨٣ هـ بتسميته إلى ولاية العهد الثانية على أن تكون له ولاية خراسان وما يتصل بها من الولايات الشرقية. كما أعقب ذلك السنة ١٨٦ هـ بالبيعة لابنه القاسم بعد المأمون.

وهكذا قسّم الرشيد الإمبراطورية الإسلاميّة بين أولاده الثلاثة واضعاً أسس التفكك السياسي الذي سيؤدي لاحقاً إلى قيام دويلات مستقلة. كما أن قراره هذا أدى أيضاً إلى دفع الدولة إلى حرب أهلية، إذ تكتل العرب حول الأمين لأن أمه عربية، وتكتل العجم حول المأمون لأن أمه أعجمية.

وزادت في تأزم الوضع ملاحقة كل فريق مصالحه الخاصة ومطامعه الشخصية. فالفضل بن الربيع وزير الأمين كان عدواً للبرامكة ويريد الاستئثار بالوزارة، فيما كان الفضل بن سهل، الذي تربّى في رعاية البرامكة، إلى جانب المأمون.

حتى المأمون، الذي كان يتميّز بصحة الرؤيا، عالج مشكلة ولاية العهد في شكل يؤدي إلى الخلافات الداخلية لا سيما بين العرب والعجم. فهو، وتحت ضغط أهالي خراسان الذين اعتبروا أن وصوله إلى الخلافة كان بفضلهم، سمّى علي

الرضا أحد أئمة الشيعة الاثني عشرية لولاية العهد. ومن أسباب هذا الاختيار أن المأمون أراد تحقيق نصر سياسي من خلال استمالة العلويين وشيعة خراسان إلى جانبه أثناء صراعه مع الأمين. لكنه ما لبث أن تراجع عن بيعة الرضا، خاصة بعد تمرّد أهل بغداد عليه وتخوّفهم من تحول الخلافة إلى العلويين، فسمى أخاه أبا إسحق المعتصم لولاية العهد.

١ - خروج نصر بن سيار العقيلي عن طاعة المأمون:

في السنة الثامنة والتسعين والمائة أظهر نصر بن سيار بن شبث العقيلي الخلاف على المأمون، وكان يسكن «كيسوم» بناحية شمالي حلب، فأظهر الغضب لمّا قتل الأمين. وتغلّب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع إليه جند كثير من الأعراب وأهم الطمع، فعبر الفرات إلى الجانب الشرقي وأخذ يتحضّر للمواجهة.(١)

وفي السنة التالية قوي أمر نصر بالجزيرة وحاصر حرّان، وجاءه عدد من شيعة الطالبيين فسألوه أن يبايع أحداً بالخلافة كي يقوى أمره ويصبح شرعياً، فبايع لبعض بني أمية.(٢)

وكان المأمون قد سيّر طاهراً بن الحسين إلى الرقة لمحاربة نصر وولاّه الموصل والجزيرة والشام والمغرب، فسار طاهر إليه ودعاه إلى الطاعة فلم يقبل، فتقدم إليه طاهر والتقيا بنواحي كيسوم حيث جرى قتال شديد أبلى فيه نصر بلاءً حسناً فانتصر، وعاد طاهر المهزوم إلى الرقة.

وفي السنة التاسعة والمائتين حاصر عبد الله بن طاهر نصراً بن شبث بكيسوم وضيّق عليه حتى طلب الأمان، فاتجه إليه عبد الله، فخرج نصر إليه، فسيّره إلى المأمون وأخرب حصن كيسوم.

٢ - القتال بين اليمانية والنزارية:

في السنة الثامنة والتسعين والمائة جرت الوقعة المعروفة بالميدان في الموصل بين

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤١٢.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٤٢٠.

اليمانية والنزارية. وسببها أن عثمان بن نعيم البرجمي سار إلى ديار مضر فشكا الأزد واليمن واستنصر مضر، فسار معه إلى الموصل حوالي عشرين ألف مقاتل. خرج إليهم علي بن الحسن الهمداني في نحو أربعة آلاف مقاتل من اليمانية فالتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً شديداً في وقائع عدة كانت وقعة «الميدان» أهمها. وكانت الهزيمة على النزارية بقيادة عثمان، فقد ظفر بهم علي وقتل منهم جمعاً كبيراً.(١)

٣ - خروج ابن طباطبا العلوي:

في السنة التاسعة والتسعين والمائة ظهر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، الذي يعرف بابن طباطبا. وقد تحرك في الكوفة داعياً للرضا من آل محمد ﷺ والعمل بالكتاب والسنة. وكان القيّم بأمره في الحرب أبو السرايا السري بن منصور. أما سبب خروجه، وفق الطبري، فإن «أبا السرايا كان من رجال هرثمة، فماطله بأرزاقه وأخرّه بها، فغضب أبو السرايا من ذلك، ومضى إلى الكوفة فبايع محمد بن إبراهيم، وأخذ الكوفة، واستوثق له أهلها بالطاعة. وأقام محمد بن إبراهيم بالكوفة، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب وغيرهم».(٢)

وكان العامل على الكوفة من قِبَل الحسن بن سهل هو سليمان بن المنصور، فأنّبه الحسن على تقصيره ووجّه زهيراً بن الحسيب الضبيّ إلى الكوفة في عشرة آلاف فارس وراجل. فخرج إليه ابن طبابا وأبو السرايا، فاقتتل الجيشان في قرية تدعى «شاهي» فهُزم زهير واستباح أبو السرايا معسكره. وفي اليوم التالي توفي ابن طباطبا، وقيل إن أبا السرايا سمّمه وأقام مكانه غلاماً يافعاً، اسمه محمد بن محمد، يعود بنسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب.(٣) وهكذا أصبح الحكم لأبي السرايا.

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٤١٤-٤١٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٢٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٥٩.

ثم أرسل الحسن بن سهل جيشاً آخر لقتال أبي السرايا قوامه أربعة آلاف فارس بقيادة عبدوس بن محمد من مرو، فالتقى الجيشان وجرى قتال بينهما انتصر فيه أبو السرايا وقتل عبدوس ووقع جنده بين قتيل وأسير.

عند هذا الحدّ ضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة وسيّر جيوشه إلى البصرة وواسط فدخلتهما. وكان في واسط ونواحيها عبد الله ابن سعيد الحرشي، والياً عليها من قبل الحسن بن سهل، فواقعه جيش أبي السرايا قرب واسط فهزمه وقتل من جنده كثيرين وأسر الباقين.(١)

ووجّه أبو السرايا جيشاً بقيادة محمد بن سليمان (من آل الإمام علي) إلى المدائن فدخلها. وأمره بأن يأتي بغداد من الجانب الشرقي.

وهزمت جيوش أبي السرايا أيضاً عامل واسط من قبل الحسن بن سهل.

أمام هذا الواقع راسل الحسن هرثمة بن أعين وكلفه محاربة أبي السرايا، وسيّر جيشاً إلى المدائن وواسط بقيادة علي بن سعيد.

وبدأ التحضير للقتال على الشكل الآتي:(٢)

- تقدم أبو السرايا حتى نزل بنهر صرصر.
- لاقاه هرثمة وعسكر على الضفة المقابلة للنهر.
- سار علي بن سعيد إلى المدائن فقاتل جند أبي السرايا وهزمهم واستولى على المدائن.
- عاد أبو السرايا إلى الكوفة.

سار هرثمة بطلب أبي السرايا فوجّه جماعة من أصحابه فقتلهم وأرسل رؤوسهم إلى الحسن بن سهل. ونازل هرثمة أبا السرايا في قتال شديد انتصر فيه هرثمة وقتل جند كثيرون من جيش أبي السرايا.(٣)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٢٣.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤١٨.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٥٩.

وانتقاماً من بني العباس وثب أبو السرايا ومن معه على دورهم في الكوفة فاحتلوها ونهبوها وخرّبوا ضياعهم وأخرجوهم من الكوفة واستخرجوا الودائع التي كانت للعباسيين عند الناس.[1]

أما نهاية أبي العباس فقد نقلها ابن الأثير الذي كتب:[2]

«في هذه السنة[3] هرب أبو السرايا من الكوفة وكان قد حصره فيها ومن معه هرثمة وجعل يلازم قتالهم حتى ضجروا وتركوا القتال. فلما رأى ذلك أبو السرايا تهيأ للخروج من الكوفة فخرج في ثمانمائة فارس ومعه محمد بن محمد بن زيد، ودخلها هرثمة فأمّن أهلها ولم يتعرض إليهم، وكان هربه سادس عشر المحرم. وأتى القادسية وسار منها إلى السوس بخوزستان فلقي مالاً قد حمل من الأهواز فأخذه وقسمه بني أصحابه. وأتاه الحسن بن علي المأموني فأمره بالخروج من عمله وكره قتاله. فأبى أبو السرايا إلاّ قتاله فقاتله فهزمه المأموني وجرحه وتفرق أصحابه. وسار وهو ومحمد ابن محمد وأبو الشوك نحو منزل أبي السرايا برأس عين، فلما انتهوا إلى جَلولاء ظفر بهم حمّاد الكندغوش فأخذهم وأتى بهم الحسن ابن سهل وهو بالنهروان، فقتل أبا السرايا وبعث رأسه إلى المأمون ونصبت جثته على جسر بغداد، وسيّر محمد بن محمد إلى المأمون. وأما هرثمة فإنه أقام بالكوفة يوماً واحداً وعاد واستخلف بها غسان بن أبي الفرج أبا إبراهيم بن غسان صاحب حرس والي خراسان. وسار علي بن سعيد إلى البصرة فأخذها من العلويين وكان بها زيد ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي عليه السلام. وهو الذي يُسمى زيد النار، وإنما سمي بها لكثرة ما أحرق البصرة من دور العباسيين وأتباعهم. وكان إذا أتى رجل من المسودة أحرقه وأخذ أموالاً كثيرة من أموال التجار سوى أموال بني العباس. فلما وصل علي إلى البصرة استأمنه زيد فأمّنه وأخذه، وبعث

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٢٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٢١.

(٣) السنة ٢٠٠ هـ.

إلى مكة، والمدينة، واليمن جيشاً فأمرهم بمحاربة من بها من العلويين، وكان بين خروج أبي السرايا وقتله عشرة أشهر».

٤ - الفتنة بالموصل:

في السنة مائتين للهجرة وقعت فتنة بالموصل بين بني سامة[١] وبني ثعلبة فاستجارت ثعلبة بمحمد بن الحسين الهمداني الذي أمرهم بالخروج إلى البرية ففعلوا. لحقهم بنو سامة في ألف رجل إلى العوجاء وحاصروهم فيها، فأرسل محمد الهمداني وأخوه علي بن الحسين أمير الموصل المدد إليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً. وكانت تدعم بني سامة جماعة من بني تغلب.

وبنتيجة القتال انتصر بنو ثعلبة وقتل العديد من بني سامة وبني تغلب وأسر قسم آخر منهم فسجنوا في الموصل.[٢]

٥ - ولاية منصور بن المهدي ببغداد:

في السنة الحادية والمائتين بايع أهل بغداد المنصور بن المهدي للإمرة عليهم، على أن يدعو للمأمون بالخلافة فأجابهم إلى ذلك، على أن يخالف الحسن بن سهل.[٣]

وكان المأمون خلال هذه المرحلة ما يزال في خراسان ولم يأت إلى بغداد إلاّ في سنة ٢٠٢ هـ.

في هذا الوقت خالف محمد بن أبي خالد الحسن بن سهل والي المأمون وتبعه إلى واسط حيث تمركزت قواته في قرية أبي قريش القريبة من واسط بعد أن انتصرت على مجموعات عسكرية عدة تابعة للحسن ابن سهل.[٤]

وكان زهير بن المسيّب متمركزاً في أسكاف بني الجنيد عاملاً للحسن على «حوخى»، فسار محمد إليه وقاتله وانتصر عليه وأخذه أسيراً. ثم وجّه ابنه هارون من

(١) في ابن خلدون: بني شامة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٢٦.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٦١.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٣٣.

دير العاقول إلى «النيل» وبها نائب للحسن، فهزمه هارون وتبعه إلى الكوفة. ثم عاد المنهزمون إلى الحسن بواسط حيث جرت معركة عنيفة بين الجيشين انهزم خلالها جيش محمد الذي ثبت مع بعض من جنده بعد أن جرح جروحاً كثيرة، وقتل من جنده عدد كبير. ثم لاحق الحسن المنهزمين من جيش محمد إلى فم الصلح حيث قاتلهم مجدداً حتى جن الليل فهرب محمد وجنده ولجأوا إلى جبل في المنطقة.(١)

وتوفي محمد متأثراً بجروحه فبايع جنده ابنه عيسى بن محمد.

وبلغ الحسن بن سهل خبر وفاة محمد فسار إلى منطقة المبارك وأرسل جيشاً إلى «فم الصراة» حيث اصطدم بجيش يقوده زنبيل شقيق عيسى بن محمد فهزمه. ثم سار جيش الحسن إلى هارون شقيق عيسى في النيل حيث جرى قتال شديد بين الجيشين انهزم في نهايته هارون فتراجع إلى المدائن.

ونهب جيش الحسن النيل وما حولها من القرى طيلة ثلاثة أيام.(٢)

وقيل إن عيسى أحصى عسكره فكانوا مائة وخمسة وعشرين ألفاً، (٣) فوزّع عليهم أموالاً فأعطي الفارس أربعين درهماً، والراجل عشرين درهماً. وكتب عيسى إلى أهل بغداد بأنه مشغول عن جباية الخراج طالباً منهم تولية رجل من بني هاشم فولّوا منصوراً بن المهدي، كما سبق الكلام، الذي عسكر في كلوازي، وبعث غسان بن عباد بن أبي الفرج بجيش إلى ناحية الكوفة فنزل بقصر ابن هبيرة.

إلاّ أن غساناً لم يشعر إلاّ وقد أحاط به جيش للحسن بن سهل بقيادة حميد الطوسي فأخذه أسيراً وقتل عدداً كبيراً من أصحابه. عند هذا الحد سيّر منصور بن المهدي جيشاً آخر بقيادة محمد بن يقطين لقتال حميد الطوسي، فتلاقى الجيشان بالنيل حيث جرى قتال شديد انهزم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٢٩

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٣٥.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٢٤.

بنتيجته ابن يقطين وقتل قسم من جنده وغرق قسم آخر وأسر الباقون. ونزل حميد في النيل فيما تراجع ابن يقطين إلى صرصر.[1]

٦ - مبايعة إبراهيم بن المهدي بالخلافة:

في السنة الثانية والمائتين، وبعد أن بايع المأمون بولاية العهد لعلي بن موسى الرضا، قام أهل بغداد، خاصة جمهور العباسيين، بالمبايعة لإبراهيم بن المهدي بالخلافة، ولقبوه المبارك، وخلعوا المأمون.[2] فلما فرغ من البيعة، وعد إبراهيم الجند برزق ستة أشهر، وعندما تأخر عن الدفع شغب الجند فأعطى لكل منهم مائتي درهم، وكتب لبعضهم إلى السواد بقيمة مالهم حنطة وشعيراً. فذهبوا لقبضها، لكنهم نهبوا كل شيء وأخذوا نصيب الخلافة ونصيب أهل السواد.

واستولى إبراهيم على الكوفة وكامل السواد وعسكر بالمدائن.

وخرج عليه حروري يدعى مهدي بن علوان فأرسل إليه جيشاً بقيادة إبراهيم أبي إسحق بن الرشيد فهزمه.

كما استولى إبراهيم على قصر ابن هبيرة بعد أن أرسل إليه مجموعة على رأسها عيسى بن محمد بن أبي خالد.

وكان الحسن بن سهل قد وجّه حكيماً الحارثي إلى النيل، فسار إليها وجرى قتال شديد بين جيشه وجيش عيسى بن محمد فانهزم حكيم ودخل عيسى النيل. كما وجّه إبراهيم إلى الكوفة سعيداً وأبا البط حيث جرى قتال بينهما وبين جيش للحسن بن سهل بقيادة علي بن محمد العلوي الذي هُزم، ودخل جيش إبراهيم الكوفة والحيرة. ثم اقتتل هؤلاء مع أهل الكوفة حيث قتلوا من ظفروا به وأحرقوا ما وقعت عليه أيديهم قبل أن يعطوا الأمان لأهل الكوفة.[3]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٣٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٦٢.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٢٦-٥٢٧.

ثم أرسل إبراهيم جيشاً إلى واسط بقيادة عيسى بن محمد فانتصر عليه جيشها الذي كان يتبع الحسن بن سهل بعد قتال شديد.

٧ - شخوص المأمون من مرو إلى العراق:

بعد أن وقعت الفتن في العراق بسبب الحسن بن سهل ونفور الناس من استبداده وسيطرته وأخيه الفضل على المأمون، ثم إعطاء ولاية العهد لعلي الرضا بن موسى الكاظم وإخراج الخلافة من بني العباس، ازدادت نفرة أهل بغداد. لذلك تحدّث القادة في عسكر المأمون بذلك وجاؤوا إلى علي الرضا وسألوه إخبار المأمون بتلك القضايا، فأخبرهم بما في العراق من الفتنة والقتال. كما أخبرهم بأن أهل العراق بايعوا إبراهيم بن المهدي فقال الأمين:(١)

«إنما جعلوه أميراً يقوم بأمرهم».

فقال علي الرضا: «هو ليس كذلك، وإنّ الحرب قائمة الآن بين ابن سهل وبينه. وإن الناس ينقمون عليك بسبب الحسن والفضل وبسبب عهدك لي».

سأل المأمون قوّاده عن الأمر فأخبروه بما أخبره به علي الرضا وأن الناس يتّهمونه بالرفض لعهده لعلي الرضا، وأن طاهراً بن الحسين، مع علم أمير المؤمنين ببلائه، قد أرسل إلى الرقة فضعف أمره. فإن لم يتدارك الأمر ذهبت الخلافة منه.(٢)

فلما تحقق المأمون من الوضع أمر بالرحيل واستخلف على خراسان غسان بن عباد(٣). وفي الطريق وثب بالفضل أربعة أنفار فقتلوه في الحمام وهربوا. فاستقدمهم المأمون وقتلهم، وأرسل إلى الحسن بن سهل بالخبر وأعلمه أنه عيّنه وزيراً مكان أخيه الفضل(٤). هذه الأحداث حصلت السنة اثنتين ومائتين للهجرة.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٣٠.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٤٤.
(٣) هو ابن عم الفضل بن سهل.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٤٥.

وفي السنة الثالثة والمائتين سار المأمون من سرخس نحو العراق، فلما نزل مدينة طوس مات علي الرضا فجأة من عنب أكله، فبعث المأمون إلى الحسن بن سهل يعلمه بوفاته ويعتذر من شيعته. ثم سار إلى جرجان وأقام فيها أشهراً، ومنها تحرك إلى النهروان حيث لاقاه القائد طاهر بن الحسين قادماً من الرقة، كذلك أهل بيته وشيعته والقواد ووجوه الناس.[1]

وكتب المأمون إلى بني العباس يقول لهم:[2]

«إنكم قد نقمتم علي بسبب توليتي العهد من بعدي لعلي الرضا، وها هو قد مات، فارجعوا إلى السمع والطاعة».

أ - خلع إبراهيم بن المهدي:

في السنة الثالثة والمائتين خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بعد أن شغب الجند عليه. وجاء حميد بن عبد الحميد في جيش للمأمون فحاصر بغداد. وطمع جند بغداد في العطاء فطاوعوا حميداً على السمع والطاعة للمأمون.[3]

وهكذا، لما بدأت الأمور تنجلي في بغداد لمصلحة المأمون، اختفى إبراهيم بن المهدي في آخر السنة الثالثة والمائتين.

ب - دخول المأمون إلى بغداد:

وفي السنة الرابعة والمائتين دخل المأمون مدينة بغداد، دخولاً وصفه الطبري الذي كتب:[4]

«ذُكِرَ عن المأمون أنه لما قدم جُرجان أقام بها شهراً، ثم خرج منها، فصار إلى الريّ في ذي الحجة، فأقام بها، ثم خرج منها، فجعل يسير المنازل، ويقيم اليوم واليومين حتى صار إلى النهروان؛ وذلك يوم السبت، فأقام فيه ثمانية أيام. وخرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس، فسلموا عليه. وقد كان كتب إلى طاهر بن الحسين من الطريق وهو بالرقة،

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٣٢.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٦٤.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٤٩.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٥٠.

أن يوافيه إلى النهروان، فوافاه بها. فلما كان السبت الآخر دخل بغداد ارتفاعَ النهار، لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين، ولباسه ولباس أصحابه؛ أقبيتُهم وقلانسهم وطرّاداتهم وأعلامهم كلها الخضرة. فلما قدم نزل الرصافة، وقدم معه طاهر، فأمره بنزول الخيزرانيّة مع أصحابه. ثم تحوّل فنزل قصره على شطّ دِجلة، وأمر حميد بن عبد الحميد وعليّ بن هشام وكل قائد كان في عسكره أن يقيم في عسكره؛ فكانوا يختلفون إلى دار المأمون في كل يوم. ولم يكن يدخل عليه أحد إلاّ في الثياب الخُضْر، ولبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون، فكانوا يخرقون كل شيء يرونه من السواد على إنسان إلاّ القلنسوة؛ فإنه كان يلبسها الواحد بعد الواحد على خوف ووجَل. فأما قَباء أو علم فلم يكن أحد يجترئ أن يلبس شيئاً من ذلك ولا يحمله. فمكثوا بذلك ثمانية أيام؛ فتكلم في ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصةً، وقالوا له: يا أمير المؤمنين، تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتهم، ولبست الخضرة. وكتب إليه في ذلك قوّاد أهل خراسان.

وقيل إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه، فكان أوّل حاجة سأله أن يطرح لباس الخضرة، ويرجع إلى لبس السواد وزيّ دولة الآباء. فلما رأى طاعة الناس له في لبس الخضرة وكراهتهم لها، وجاء السّبت قعد لهم وعليه ثياب خضر. فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه، ودعا بخلْعة سواد فألبسها طاهراً، ثم دعا بعدّة من قوّاده، فألبسهم أقبية وقلانس سوداً. فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد، طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة، ولبسوا السواد، وذلك يوم السبت لسبع بقين من صفر».

وفي السنة الخامسة والمائتين استعمل المأمون طاهراً بن الحسين على الولايات الشرقية للخلافة، وجعل على الشرطة عبد الله بن طاهر بن الحسين، ويحيى بن معاذ على الجزيرة، وعيسى بن محمد على أرمينيا وأذربيجان وكلفه محاربة بابك الخرمي. كما كلف عيسى بن يزيد الجلوذي[١] محاربة الزط[٢].

---

(١) في الطبري: الجلودي.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٥٥-٤٧٨.

وفي السنة السابعة والمائتين توفي القائد الكبير طاهر بن الحسين فولّى المأمون ابنه طلحة خراسان والولايات الشرقية.

٨ - فتح مصر:

في السنة العاشرة والمائتين للهجرة تغلّب عبيد الله بن السري على مصر وخلع طاعة المأمون، وخرج جمع من الأندلس فسيطروا على الإسكندرية في وقت كان عبد الله بن طاهر يقوم بمحاربة نصر بن شبث. فلما انتهى من حرب نصر سار نحو مصر.

كتب ابن خلدون عن انتفاضة مصر:(١)

«كان السريّ بن محمد بن الحكم والياً على مصر وتوفي سنة خمس ومائتين، وبقي ابنه عبد الله، فانتقض وخلع الطاعة وأنزل بالإسكندرية جالية من الأندلس أخرجهم الحكم بن هشام من رَبضي قرطبة وغرّبهم إلى المشرق. ولما نزلوا بالإسكندرية ثاروا وملكوها وولوا عليهم أبا حفْص عمر البلوطي. وفشل عبد الله بن طاهر عنهم بمحاربة نصر بن شبث.»

وعندما فرغ عبد الله بن طاهر من قتال نصر سار إلى مصر وافتتحها وأمّن عاملها عبد الله بن السري.

نقل الطبري تفاصيل القتال الذي حصل وصولاً إلى طلب الأمان من قبل عبد الله بن السري، فكتب:(٢)

«ذكر أن عبد الله بن طاهر لما فرغ من نصر بن شَبث العُقَيْلي، ووجّهه إلى المأمون فوصل إليه ببغداد كتب المأمون يأمره بالمصير إلى مصر؛ فحدّثني أحمد بن محمد بن مَخْلد، أنه كان يومئذ بمصر، وأن عبد الله بن طاهر لما قَرُب منها على مرحلة، قدّم قائداً من قواده إليها ليرتاد لمعسكره موضعاً يعسكر فيه، وقد خندق ابن السريّ عليها خندقاً. فاتصل الخبر بابن السريّ عن مصير القائد إلى ما قرب منها، فخرج بمن استجاب له من أصحابه إلى القائد الذي كان عبد الله بن طاهر وجهه لطلب موضع معسكره؛ فالتقى

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٣٨.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٧٢.

جيش ابن السريّ وقائد عبد الله وأصحابه وهم في قلة. فجال القائد وأصحابه جولة، وأبرد القائد إلى عبد الله بريداً يخبره بخبره وخبر ابن السريّ، فحمل رجاله على البغال؛ على كل بغل رجلين بآلتهما وأدواتهما، وجَنَبوا الخيل. وأسرعوا السير حتى لحقوا القائد وابن السريّ؛ فلم تكن من عبد الله وأصحابه إلاّ حملة واحدة حتى انهزم ابن السريّ وأصحابه، وتساقطت عامّة أصحابه - يعني ابن السريّ - في الخندق.

فمن هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض في الخندق كان أكثر ممن قتله الجند بالسيف. وانهزم ابن السريّ، فدخل الفسطاط، وأغلق على نفسه وأصحابه ومَن فيها الباب، وحاصره عبد الله بن طاهر؛ فلم يعاوده ابن السريّ الحرب بعد ذلك حتى خرج إليه في الأمان.

وذكر عن ابن ذي القلمين، قال: بعث ابن السريّ إلى عبد الله بن طاهر لمّا ورد مصر ومانعه من دخولها بألف وَصيف ووصيفة؛ مع كل وصيف ألف دينار في كيس حرير، وبعث بهم ليلاً. قال: فردّ ذلك عليه عبد الله وكتب إليه: لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً ﴿بل أنتم بهديَّتِكم تَفْرَحون * ارْجعْ إِلَيْهِمْ فَلنَأْتِيَنَّهُمْ بجُنُودٍ لا قِبلَ لَهُمْ بها وَلَنُخرِجنَّهُمْ مِنها أَذلَّةً وَهُمْ صَاغِرُون﴾[1]

قال: فحينئذ طلب الأمان منه، وخرج إليه».

٩ - فتح الإسكندرية:

وفي السنة العاشرة والمائتين، (وقيل الحادية عشرة والمائتين)، وبعد أن فتح عبد الله بن طاهر مصر، تطلّع إلى الإسكندرية التي كان أهل الأندلس قد أقبلوا عليها في مراكب، فيما كانت الناس منشغلة في فتنة ابن السري. واستولى هؤلاء على المدينة، وكانوا من سكان الربض[2] المحيط بقرطبة التي طردوا منها بعد ثورة قاموا بها.

وكان رئيس أهل الربض أبو حفص، قد سيطر على الإسكندرية وخلع طاعة المأمون.

---

(١) سورة النمل: من الآية ٣٦ - وكامل الآية ٣٧.

(٢) الربض هي ضاحية من ضواحي قرطبة يقطنها فقراء ثاروا على الخليفة الأموي في الأندلس الحكم الأول الربضي فطردهم من الأندلس فقدم قسم منهم إلى مصر (راجع التفاصيل في الجزء السابع من هذه الموسوعة).

وعند انتهاء عبد الله بن طاهر من قتال ابـن السـري، أرسـل يـؤذن الأنـدلسـيين بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة، فأجابوه إلى الطاعة وسألوه الأمان على أن يرتحلوا عن الإسكندرية إلى بعض أطراف بلاد الروم التي ليست من بلاد الإسلام.

وبالفعل، أعطى ابن طاهر الأمان لهؤلاء فرحلوا ونزلوا بجزيرة أقريطش واستوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا وتناسلوا.(١)

١٠ - خلع أهل قُمّ طاعة الخليفة:

في السنة العاشرة والمائتين خلع أهل قُمّ المأمون وأوقفوا دفع الخراج الذي كان مليوني درهم. وسبب ذلك أن المأمون، لما سار من خراسان إلى العراق، أقام بالري أياماً عدة أسقط خلالها عن أهلها بعضاً من خراجهم، فطمع أهل قم وأرادوا أن يصنع الخليفة لهم مثل صنيعه لأهل الري.(٢)

وبالفعل، كتب أهل قم للمأمون في ذلك. لكنه لم يجبهم على طلبهم، فامتنعوا عن أداء الخراج.

وجّه المأمون إلى قم جيشاً بقيادة علي بن هشام، ثم أمدّه بعُجيف بن عنبسة ومحمد بن يوسف الكح الذي كان متمركزاً في خراسان. حارب علي ومن معه أهل قم فظفر بهم وقتل قائدهم يحيى بن عمران وهدم سور مدينتهم. ثم جبى من المدينة سبعة ملايين درهم بدل المليونين.(٣)

١١ - إخضاع الموصل:

في السنة الحادية عشرة والمائتين خرج في الموصل زُريق بن علي بن صدقة الأزدي وسيطر على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان، وجرت بينه وبين عامل الموصل السيد بن أنس الأزدي حروب كثيرة.

ثم جمع زُريق جيشاً كبيراً قيل إنه بلغ أربعين ألفاً وسيّره إلى الموصل لحرب

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٨٠.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٧٤.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٨١.

السيد الذي خرج إليه في أربعة آلاف مقاتل.[1]

نقل ابن الأثير خبر القتال الذي قتل فيه والي الموصل السيد بن علي، فكتب:[2]

«التقى الجيشان بسوق الأحد. فحين رآهم السيد حمل عليهم وحده، وهذه كانت عادته أن يحمل وحده بنفسه. وحمل عليه رجل من أصحاب زريق فاقتتلا فقتل كل واحد منهما صاحبه، ولم يقتل غيرهما».

وعندما بلغ المأمون خبر مقتل السيّد ولّى على الموصل محمداً بن حميد الطوسي وكلفه بمحاربة زريق وبابك الخرمي. فسار محمد في السنة الثانية عشرة والمائتين للهجرة إلى الموصل لإصلاح أمرها ومحاربة زريق، ومعه جيشه الذي جمعه من اليمن والربعية، وكان معه محمد بن السيد بن أنس.[3]

بلغ الخبر إلى زريق فسار نحوهم فالتقى الجيشان على الزاب. وقبل بدء القتال، راسله محمد يدعوه إلى الطاعة، فامتنع، فجرى قتال عنيف حيث أبلى محمد بن السيد بلاءً حسناً محاولاً الأخذ بثأر والده. وبنتيجة القتال انهزم زريق وجيشه، فأرسل يطلب الأمان، فأمّنه محمد بن حميد، فنزل إليه فسيّره إلى المأمون. وكتب المأمون إلى محمد يأمره بأخذ جميع مال زريق وقراه، ففعل. وولّى محمداً بن السيد على الموصل وتابع سيره إلى أذربيجان لقتال بابك، بعد أن جمع العساكر والآلات والميرة، فاجتمع إليه عالم كثير من المتطوعة من سائر الأمصار.[4]

سلك محمد طريق المضائق في سيره نحو بابك، وكان كلما جاوز مضيقاً أو عقبة ترك عليه من يحفظه من أصحابه، إلى أن نزل في هشتا دسر وحفر خندقاً.[5]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٤٠.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٨٤.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٧٨.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٨٧.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤١.

وشاور محمد معاونيه في دخول بلد بابك، فأشاروا عليه بدخوله من وجه ذكروه له، فقبل رأيهم. وعبأ أصحابه وجعل على القلب محمداً بن يوسف الطائي، وعلى الميمنة السعدي بن أصرم، وعلى الميسرة العباس بن عبد الجبار اليقطيني. ووقف محمد بن حميد خلفهم في جند يراقب المعركة ويأمر بسد كل خلل عندما يراه.

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال الذي انتهى بانتصار بابك الخرمي ومقتل محمد ابن حميد، فكتب:[1]

«كان بابك يشرف عليهم من الجبل وقد كمن لهم الرجال تحت كل صخرة. فلما تقدم أصحاب محمد وصعدوا في الجبل مقدار ثلاثة فراسخ خرج عليهم الكمناء وانحدر بابك إليهم فيمن معه. وانهزم الناس فأمرهم أبو سعيد ومحمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ومروا على وجوههم والقتل يأخذهم. وصبر محمد بن حميد مكانه وفرّ من كان معه غير رجل واحد. وسارا يطلبان الخلاص فرأى جماعة وقتالاً فقصدهم فرأى الخُرمية يقاتلون طائفة من أصحابه. فحين رآه الخرمية قصدوه لما رأوا من حسن هيئته فقاتلهم وقاتلوه وضربوا فرسه بمزراق فسقط إلى الأرض وأكبوا على محمد بن حميد فقتلوه. وكان محمد ممدوحاً جواداً فرثاه الشعراء وأكثروا منهم الطائي. فلما وصل خبر قتله إلى المأمون عظم ذلك عنده واستعمل عبد الله بن طاهر على قتال بابك فسار نحوه».

١٢ - غزوات المأمون إلى بلاد الروم:

في السنة الخامسة عشرة والمائتين، استخلف المأمون على بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وولاّه معها السواد وحلوان وكور دجلة، وسار في المحرم إلى بلاد الروم في الصائفة.[2]

نقل ابن خلدون رواية عن مسير الخليفة إلى بلاد الروم وعن الحصون التي افتتحها، فكتب:[3]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٩١.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٨١.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٤.

«وفي سنة خمس عشرة دخل المأمون بلاد الروم بالصائفة، وسار عن بغداد في المحرَّم واستخلف عليها إسحاق بن إبراهيم ابن مُصعب وهو ابن عم طاهر، وولاه السواد وحلوان وكور دجلة. ولما وصل تكريت لقيه محمد بن عليّ الرضا فأجازه وزفّ إليه ابنته أمّ الفضل، وسار إلى المدينة فأقام بها. وسار المأمون على الموصل إلى مَنْبِجَ ثم دابق ثم أنطاكية ثم المُصيصة وطرطوس. ودخل من هنالك فافتتح حصن قُرَّة عنوة وهدمه. وقيل بل فتحه على الأمان، وفتح قبله حصن ماجد كذلك. وبعث أشناس إلى حصن سدس، ودخل ابنه العباس ملَطْيَة، ووجه المأمون عجيفاً وجعفر الخياط إلى حصن سنان فأطاع. وعاد المعتصم من مصر فلقي المأمون قبل الموصل، ولقيه العباس ابنه برأس عين. وجاء المأمون منصرفه من العراق إلى دمشق، ثم بلغه أن الروم أغاروا على طرسوس والمصيصة وأثخنوا فيهم بالقتل.[1]

وكتب إليه ملك الروم فيه بنفسه فرجع إليهم وافتتح كثيراً من معاقلهم وأناخ على هِرقلة حتى استأمنوا وصالحوه. وبعث المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً منها مطمورة، وبعث يحيى بن أكْثَم فأثخن في البلاد، وقتل وحرق وسبى. ثم رجع المأمون إلى كَيْسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل إلى دمشق».

وفي السنة السابعة عشرة والمائتين عاد المامون إلى بلاد الروم «فأناخ، وفق ابن الأثير، على لؤلؤة مائة يوم. ثم رحل عنها وترك عليها عجيفاً، فخدعه أهلها وأسروه، فبقي عندهم ثمانية أيام وأخرجوه. وجاء تيوفيل ملك الروم فأحاط بعجيف، فبعث إليه المأمون الجنود، فارتحل قبل موافاتهم. وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بأمان، وأرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك».[2]

وفي السنة الثامنة عشرة والمائتين وجّه المأمون ابنه العباس إلى أرض الروم وأمره بنزول الطوانة وبنائها. وكان قد فرض على

(١) نقل ابن الأثير والطبري أن ملك الروم كان قد قتل ألفاً وستمائة من أهل طرطوس والمصيصة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٨.

جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل، وعلى أهل مصر فرضاً أيضاً، كذلك على أهل قنّسرين والجزيرة وبغداد. ووجّه المأمون جميع هؤلاء إلى الطوانة التي ابتدأ العباس ببنائها وبناها ميلاً في ميل، وجعل سورها على ثلاثة فراسخ، وجعل لها أبواباً أربعة، وبنى على كل باب حصناً.(١)

١٣ - مرض المأمون ووفاته:

في السنة الثامنة عشرة والمائتين مرض المأمون على نهر البربرون لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب، وتوفي في طرطوس فدفنه ابنه العباس وأخوه المعتصم بدار خاقان خادم الرشيد، وصلى عليه المعتصم. وأوكل بالقبر مائة رجل من حرس أهل طرطوس وغيرهم، وأجري على كل رجل منهم تسعون درهماً.(٢)

وكانت خلافة المأمون عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً.(٣)

١٤ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - استغل عبيد الله بن السري انشغال جيش الخلافة في حرب ضد نصر بن شبث، فخرج عن طاعة الخليفة وسيطر على مصر رغم معرفته صعوبة احتفاظه بها نظراً لجهوزية وإمكانات المأمون العسكرية. وهكذا أخطأ في المقارنة بين قواته وقوات خصمه فخرق مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل».

وبالفعل، وما أن فرغت جيوش الخلافة من حروبها في الشرق، حتى توجهت نحو مصر بقيادة عبد الله بن طاهر الذي أعاد فتح مصر.

ب - اعتمد عبد الله، في قتاله والي مصر، استراتيجية إرسال مفرزة استطلاع

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٨٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٥٤

(٣) لم تحسب ضمن خلافة المأمون السنوات التي كان قد دعي له فيها بمكة وأخوه الأمين محصور في بغداد.

اصطدمت بجيش السري وكادت كفة النصر تميل إلى جانب هذا الأخير لولا تدخل عبد الله السريع. فعندما بلغه خبر القتال، سار عبد الله بجيشه ممتطياً البغال وتاركاً الخيول كي ترتاح بهدف خوضها المعركة بنشاط. وبالفعل، وما أن جال فرسان جيش الخليفة جولة واحدة حتى انهزم السري.

وهكذا أحسن عبد الله في تطبيق مبدأ حرية العمل إذ تمكن من زجّ كل جيشه في المعركة قبل أن يحسمها خصمه. كذلك أحسن في تطبيق قواعد الحشد والسرعة والاستمرارية والشدة والصدم بالخيول وفرسانها، محققاً انتصاراً سريعاً ومعيداً مصر إلى الطاعة.

ج - من جهة أخرى، أخطأ السري بجعل الخندق الذي حفره جنوده، وراء جيشه الذي حُصر حينذاك بين جيش عبد الله والخندق، مخلاً بذلك بمبادئ الحرب الثلاثة:

- **الأول**، أي «نسبية الأهداف للوسائل»، كون جيشه كان أقل عدداً وعدةً من جيش خصمه.

- **الثاني**، أي «حرية العمل»، بحصره جيشه بين جيش خصمه والخندق الذي وقع فيه جنوده أثناء تراجعهم تحت ضغط عدوه.

- **الثالث**، أي «الحصيل الأقصى للوسائل»، كونه فقد إمكانية المناورة بعد أن حصر جيشه في بقعة ضيقة من الأرض.

د - أما أهل الربض الذين سيطروا على الإسكندرية قبل مسير جيش الخليفة إليها، فإنهم، وتمشياً مع مبدأ الحرب الأول، ولما تأكدوا أن إمكاناتهم العملانية متدنية جداً بالنسبة لإمكانات خصمهم، اعتمدوا الواقعية وحس المقياس فاستسلموا إلى عبد الله بن طاهر بعد أن أمّنهم، ورحلوا إلى إقريطش فاستوطنوها.

ونحن نرى أن درس أي مسألة تكتية تمهيداً لخوض معركة ما، يبدأ بمقارنة بين إمكاناتنا وإمكانات خصمنا، علماً أن الإمكانات لا تعني حصراً أعداد الجند والأسلحة، إنما تتعدى ذلك لتشمل:

- قيمة القائد وإمكاناته وقيمة معاونيه.
- الخطة المعتمدة في القتال.
- قيمة الجند التدريبية.

- نوعية الأسلحة والأعتدة.

- حوافز الجنود ودرجة حماسهم وتعلقهم بقيادتهم وتماسكهم ومعنوياتهم.

- حراكية الوحدات... الخ.

فإن تعدّت إمكاناتنا إمكانات خصمنا نخوض القتال ضده طوعاً. وفي الحال المعاكسة، نحاول تجنب المعركة.

هـ - عندما سار القائد محمد بن حميد الطوسي لقتال بابك الخرمي في الموصل سالكاً طريق المضائق، وتحقيقاً لأمن جيشه وحرية عمله، عمد إلى حفظ كل مضيق بعد اجتيازه له كي لا يتعرض لمفاجآت غير مأمونة النتائج، ولحفظ خط تراجع جيشه عند الضرورة.

وعند خوضه القتال ضد بابك، وبعد أن وزّع المهمات على وحداته، راح يراقب المعركة ويتدخل في مجراها، ويسدّ كل خلل يراه في جهوزية جيشه. لكن بابك الخرمي حضّر القتال ضده، فأقام الكمائن المتعددة في الجبال التي خرجت تباعاً على الجيش العباسي ففاجأته وانتصرت عليه رغم جميع التدابير الاحترازية التي اتخذها.

الفصل السابع
العمليات العسكرية في عهد المعتصم

بويع بالخلافة بعد وفاة المأمون لشقيقه المعتصم أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد في منتصف رجب من السنة ثماني عشرة ومائتين. وعند مبايعته، شغب الجند وهتفوا باسم العباس بن المأمون، فأحضره عمه أمامه فبايعه وسكت الجند.(١)

وأمر المعتصم بخراب ما كان المأمون قد أمر ببنائه في الطوّانة، فحمل ما فيها من السلاح والمعدات وأحرق الباقي. وأعيد الناس الذين كانوا بها إلى بلادهم.(٢)

وانصرف المعتصم إلى بغداد ومعه العباس بن المأمون.

وكان أول عمل عسكري قام به توجيه عسكر لقتال الخرمية في همذان، إذ كانت قد تجمّعت فيها جماعات كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجانقذف بعد أن دخلوا في دين الخرمية. وجّه المعتصم إليهم جيشاً بقيادة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال في شوال من السنة الثامنة عشرة والمائتين، فسار الجيش إليهم في ذي القعدة حيث جرى قتال عنيف بين الجهتين انتصر فيه الجيش الإسلامي وقتل من الخرمية ستين ألفاً، وهرب الباقون منهم إلى داخل بلاد الروم.(٣)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص١٣.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٠٦.

١ - ظهور صاحب الطالقان:

في السنة التاسعة عشرة والمائتين ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان، من أعمال خراسان، يدعو إلى الرضى من آل محمد. واجتمع إليه خلق كثير. وكانت بينه وبين قواد عبد الله بن طاهر عامل خراسان معارك عديدة هزم صاحب الطالقان بنهايتها.[(١)]

خرج محمد بن القاسم من الطالقان ناجياً بنفسه، لكن عاملها قبض عليه وأرسله إلى عبد الله بن طاهر الذي بعثه إلى المعتصم منتصف ربيع الأول فسجنه وأوكل به مسروراً الكبير، لكنه فر من سجنه ولم يعرف عنه شيء.[(٢)]

٢ - محاربة الزطّ:

الزطّ هم قوم من أخلاط الناس، غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد وأخذوا غلات البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا أبناء السبيل.

أرسل المعتصم لقتالهم جيشاً كبيراً بقيادة عجيف بن عنبسة فسار إليهم وانتصر عليهم في معارك فصّل أخبارها الطبري الذي كتب:[(٣)]

«رتّب عجيف الخيل في كل سكة من سكك البُرد تركض بالأخبار، فكان الخبر يخرج من عند عُجيْف، فيصل إلى المعتصم من يومه. وكان الذي يتولى النفقة على عُجيف من قِبَل المعتصم محمد بن منصور كاتب إبراهيم بن البَخْتري. فلما صار عُجيْف إلى واسط، ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها الصافية في خمسة آلاف رجل، وصار عجيف إلى نهر يحمل من دجلة يقال له بَرْدُودا؛ فلم يزل مقيماً عليه حتى سده. وقيل إن عجيفاً إنما ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها نجيداً، ووجه هارون بن نعيم بن الوضاح القائد الخراساني إلى موضع يقال له الصافية في

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٩٩.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٦.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٠٧-٢٠٨.

خمسة آلاف رجل، ومضى عجيف في خمسة آلاف إلى بَرْدودا، فأقام عليه حتى سدّه وسد أنهار أُخر كانوا يدخلون منها ويخرجون، فحصرهم من كل وجه. وكان من الأنهار التي سدّها عجيف، نهر يقال له العروس. فلما أخذ عليهم طرقهم حاربهم، وأسر منهم خمسمائة رجل، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل، فضرب أعناق الأسرى، وبعث برؤوس جميعهم إلى باب المعتصم. ثم أقام عجيف وراء الزُّطّ خمسة عشر يوماً، فظفر منهم بخلْق كثير. وكان رئيس الزّط رجلاً يقال له محمد بن عثمان، وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق. ومكث عجيف يقاتلهم - فيما قيل - تسعة أشهر».

أما ابن خلدون فتابع الرواية بأن الزط «عادوا واستأمنوا إلى عجيف في ذي الحجة، وجاءوا بأجمعهم في سبعة وعشرين ألفاً، المقاتلة منهم اثنا عشر ألفاً، فعباهم عجيف في السفن على هيئتهم في الحرب، ودخل بهم بغداد في عاشوراء سنة عشرين».[1]

وأما ابن الأثير فكتب أن «المعتصم خرج إلى الشماسية في سفينة يقال لها: الرف، حتى يمر به الزط على تعبيتهم وهم ينفخون في البوقات. وأعطى عجيف أصحابه كل رجل دينارين دينارين. وأقام الزط في سفنهم ثلاثة أيام ثم نقلوا إلى الجانب الشرقي وسلموا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين. ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة،[2] فأغارت الروم عليهم فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد».[3] وكان ذلك آخر العهد بالزط.

٣ - بناء سامراء:

كان المعتصم قد أكثر من الغرباء في جنده، لا سيما أهل الحرف بمصر وسماهم المطاربة، وقوماً من سمرقند وأشروسنة وفرغانة وسماهم «الفرغانة» وأكثر من صبيانهم.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٤٦.

(٢) عين زربه: بنواحي المصيصة.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص١٨.

وقد ضايق هؤلاء أهل بغداد فقرر إبعادهم عنها فبنى لهم سامراء التي كتب ابن خلدون عن بنائها ما يلي:(١)

«وكانوا يُركِضون الدواب في الطرق ويختلفون بها ركضاً، فيصدمون النساء والصبيان فتتأذى العامة بهم، وربما انفرد بعضهم فقتلوه. وتأذى الناس من ذلك ونكروه، وربما أسمعوا النكير للمعتصم، فعمد إلى بناء القاطون، وكانت مدينة بناها الرشيد ولم يستتمها وخربت، فجدّدها المعتصم وبناها سنة عشرين وسماها «سُرَّ من رأى فرخّمها الناس سامراء وصارت داراً لملكهم من لدن المعتصم ومن بعده. واستخلف ببغداد حتى انتقل إليها ابنه الواثق».

٤ - الحرب ضد بابك الخرمي:

في السنة العشرين والمائتين عقد المعتصم لقائده الأفشين، حيدر بن كاوس على جيش كبير، وولاه الجبال، ووجهه لقتال بابك الخرمي الذي كان قد خرج على السلطة منذ السنة الحادية والمائتين واتخذ عاصمة له مدينة البذ(٢)، وهزم جيوشاً عديدة للخليفة المأمون، وقتل العديد من قادة هذه الجيوش(٣).

ولما تسلّم المعتصم الخلافة، وجه جيشاً بقيادة أبي سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل، وأمره ببناء الحصون التي خربها بابك ما بين أردبيل وزنجان، وتركيز حاميات فيها لحماية الطرق وتسهيل عملية جمع الميرة وإيصالها إلى أردبيل. وقد توجّه أبو سعيد إلى المنطقة وبنى الحصون كما طلب إليه.(٤)

قام بابك بإرسال سرية من جنده في غزوة إلى بعض نواحي أردبيل، فنفذت مهمتها واتجهت عائدة. بلغ ذلك أبا سعيد، فجمع الناس ولاحق السرية واعترضها في طريق عودتها، حيث جرى قتال شديد قتل

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٧.

(٢) البذّ: كورة بين أذربيجان وآران، وفيها يتوقعون المهدي.

(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص٦٤-٦٥.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص:٢١٠.

بنتيجته العديد من أصحاب بابك وأسرت جماعة منهم، وأنقذ ما كانت السرية قد استولت عليه. وأرسل أبو سعيد رؤوس القتلى مع الأسرى إلى المعتصم، فكانت هذه أولى هزائم بابك الخرمي.(١)

أما الهزيمة الثانية، فقد وقعت لأحد أنصار بابك، وهو محمد بن البعيث الذي كان مسيطراً على قلعة حصينة في كورة أذربيجان تدعى «الشاهي»، وعلى حصن فيها أيضاً يسمى «تبريزا». وكان بابك قد أرسل سرية من جنده بقيادة «عصمة» إلى ابن البعيث الذي غدر بها وقتل جمعاً من مقاتليها وأسر عصمة قائدها وسيّره إلى المعتصم الذي سأله عن بلاد بابك، فأعلمه عن طرقها وطرق قتاله والوسائل التي يملكها.(٢)

أ - ضبط الطرق وجبي الميرة:

بعد حصوله على المعلومات عن بابك، سيّر المعتصم قائده الأفشين لقتاله، فنزل «برزند» وعسكر بها وضبط الطرق والحصون بينها وبين أردبيل.

ووزع الأفشين قادته كالآتي:(٣)

- أبا سعيد محمد بن يوسف بموضع يقال له «خش» حيث احتفر خندقاً لجنده.
- الهيثم الغنوي القائد من أهل الجزيرة في «رستاق» يقال له «أرشق» حيث رم حصنه وحفر حوله خندقاً.
- علويه الأعور من قواد الأبناء في حصن مما يلي أردبيل يدعى «حصن النهر».

وهكذا راحت القوافل تخرج من أردبيل ومعها جند لحمايتها، فتتجه إلى حصن النهر، ثم تسير باتجاه الهيثم الذي يلاقيها إلى موضع معروف لا يتعداه أحدهما. وهناك يتسلم الهيثم البضائع والميرة، ويسير بها نحو محمد بن يوسف الذي يلقاه بمنتصف الطريق فيتسلم الأمانة ويسير بها إلى معسكر الأفشين.(٤)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٨.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص١٩.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢١٠.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص١٩.

وكان جند الأفشين إذا ظفروا بأحد جواسيس بابك يكرمونه ويحسنون إليه ويصطنعونه فيصبح جاسوساً لهم.[1]

ب - وقعة الأفشين[2] مع بابك:

أرسل المعتصم إلى الأفشين المال للجند والنفقات مع سرية بقيادة «بغا الكبير» الذي وصل أردبيل. علم بابك بأمره فتهيأ مع أصحابه ليقطعوا الطريق عليه قبل وصوله إلى الأفشين، فنقل أحد الجواسيس هذه المعلومات إلى الأفشين الذي رسم خطة كما يأتي:[3]

- يُظهر بغا أنه يريد الرحيل، ويحمل معه المال على الإبل ويسير نحو الأفشين حتى يبلغ حصن النهر، ويبقى هناك حتى يمرّ الذين صحبوه في القافلة جميعاً على مرأى بابك، ثم يرجع هو بالمال إلى أردبيل.
- يركب الأفشين في اليوم الذي واعد فيه بغا عند العصر من برزند إلى «خش» حيث يوافي أبا سعيد مع غروب الشمس.
- يحصل السير بسكوت تام من دون قرع طبول أو نشر أعلام.

ملاحظة: نلاحظ من هذه الخطة بُعد نظر القائد الأفشين الذي استعمل الجواسيس، الذين كان يجندهم من بين جواسيس بابك، أفضل استعمال. كما نلاحظ أنه أحسن تركيز قادته على طريق القوافل التي تنقل الميرة والتموين للجيش. كما أنّ السير ليلاً وبصمت تام لجيش كبير من دون قرع الطبول كانت أموراً غير معتمدة في تلك الأيام لما في هذا السير من الصعوبة في التنسيق بين الجند من الخيالة والرجالة.

وبالفعل، وقع بابك في الفخ، إذ جمع عناصره وسار بهم على طريق النهر، وهو يظن أن المال هناك. فخرجت القافلة، الفارغة من الأموال، إليه مع صاحب النهر حيث جرى قتال عنيف بينهم وبين بابك قتل بنتيجته صاحب النهر ومن معه من جند

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٩.

(٢) الأفشين: قائد جيوش المعتصم، فارسي الأصل، قتله المعتصم صلباً بعد أن ثبت له أنه كان على دين المجوس.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢١١.

القافلة من دون أن يحصل بابك على المال.[1]

أخذ بابك عَلَم القافلة ولباس عناصرها فألبسه لجنوده واتجه نحو الهيثم الغنوي لقتاله من دون أن يعلم بخروج الأفشين. وجاء بابك وجنده متنكرين بلباس أصحاب النهر وعناصر القافلة وناشرين علمها، لكنهم وقفوا في غير الموضع المتفق عليه لوقوف أصحاب النهر. وقدم هيثم فوقف في الموضع المخصص له، وأنكر ما رأى من جند بابك المتنكرين، فأرسل ابن عم له للاستفسار عن سبب وقوفهم حيث هم، فعرفهم. فعاد وأخبر الهيثم أن بابك قد قتل علوية صاحب النهر وأصحابه واستولى على أعلامهم ولباسهم.[2]

عندما علم المكيدة، سار الهيثم عائداً، فنجت القافلة التي معه، وأرسل رسولين إلى الأفشين وإلى أبي سعيد يخبرهما الخبر. أما بابك فلاحق الهيثم إلى حصنه وحاصره فيه.

لقي الرسول الذي أرسل إلى الأفشين جيش هذا الأخير على أقل من فرسخين من حصن أرشق المحاصر، فأعطى الأفشين أوامره لجيشه بضرب الطبول ونشر الأعلام والإسراع نحو الحصن، فلحق جيشه ببابك وهو جالس يراقب الحصار ويشرب الخمر حيث جرى قتال عنيف بين الجانبين لم يفلت من جند بابك أحد خلاله. وأفلت هو في نفر يسير من خيالته فهرب معهم إلى موقان[3]، ثم رحل منها إلى البذ حيث لاقاه جنده.[4]

عاد الأفشين بعد هذه المعركة إلى برزند.

ج - اعتراض قوافل للأفشين:

وفي البذ أعطى بابك أوامره باعتراض قوافل تموين الجيش الإسلامي الذي

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٩.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢١٢.

(٣) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة يحتلها التركمان للرعي.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٢١.

يقوده الأفشين فجرى اعتراض لقافلتين كالآتي:[1]

- القافلة الأولى اعترضها أصبهبد بابك فأخذها وقتل عناصرها.

- كتب الأفشين إلى صاحب مراغة[2] لحمل الميرة إليه ومواكبتها بجند، فوجّه إليه قافلة عظيمة فيها حوالي ألف ثور سوى غيرها من الدواب التي تحمل الميرة، ومعها جند يواكبونها. خرج عليها بابك بسرية فاستولى عليها بكاملها.

- كتب الأفشين إلى صاحب شيروان، فحمل إليه طعاماً كثيراً وأغاث الناس.

- قدم بغا بمن معه إلى الأفشين.

د - الحرب سِجَال بين الأفشين وبابك:

في السنة الحادية والعشرين والمائة جرى قتال بين بابك وبغا انتصر فيه بابك، وقتال بين الأفشين وبابك انتصر فيه الأفشين من دون أن يُحسم الوضع العسكري نهائياً مع الخرمية.[3]

وكان الأفشين قد أمر بغا أن يدور بعسكره حول هشتادسر وينزل في خندق محمد بن حميد بعد أن يحفره مجدداً. ورحل الأفشين من برزند، ورحل أبو سعيد من «خش» يريدان بابك، فواقعاه فهزم بابك واستولى الأفشين على معسكره وخيمه وتجهيزاته ونزل في المعسكر الذي كان بابك ينزل فيه.

أما بغا فقد تجهّز من دون أمر الأفشين وحمل معه الزاد ودار حول هشتادسر حتى وصل إلى البذ حيث جرى قتال بين إحدى فرقه التي يبلغ عديدها ألف مقاتل، وجند بابك انهزمت بنهايته فرقة بغا، فعاد إلى خندق محمد بن حميد ونزل فيه. ولاحقته فرق بابك أثناء تراجعه حيث كبست مؤخرته فجرى قتال انتصرت فيه فرقة بابك أيضاً وصادرت أسلحة ومالاً كان يحملها بغا معه.[4]

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٤٩.
(٢) مراغة: بلدة هي أعظم وأشهر بلاد أذربيجان.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢١٦.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٥٠.

هـ - انتصار آخر للأفشين:

وفي السنة الثانية والعشرين والمائتين وجه المعتصم إلى الأفشين مدداً وأموالاً وأمره بمتابعة ملاحقة بابك، فجرت وقعة بين أصحاب الأفشين وقائد لبابك اسمه «أذين»، انتصرت فيه فرقة الأفشين. كتب ابن الأثير عن هذه الوقعة:(١)

«وكان سببها أن الشتاء لما انقضى سنة إحدى وعشرين ومائتين وجاء الربيع ودخلت سنة اثنتين وعشرين رحل الأفشين عند إمكان الزمان فصار إلى موضع يقال له: كلان رَوْذ.(٢) فاحتفر عنده خندقاً وكتب إلى أبي سعيد ليرحل من بَرْزَنَد إلى طرف رُستاق كلان رَوْذ وبينهما قدر ثلاثة أميال. فأقام الأفشين في كلان روذ خمسة أيام فأتاه من أخبره أن قائداً لبابك اسمه أذين قد عسكر بإزائه وأنه قد صيّر عياله في خيل. فقال له بابك: لتجعلهم في الحصن فقال: لا أتحصن من اليهود - يعني المسلمين - والله لا أدخلتهم حصناً أبداً.

فوجه الأفشين ظفر بن العلاء السعدي في جماعة من الفرسان والرجالة فساروا ليلتهم فوصلوا إلى مضيق لا يسلكه إلاّ الواحد بعد الواحد. وأكثر الناس قادوا دوابهم وتسلقوا في الجبل وأخذوا عيال أذين وبعض ولده. وبلغ الخبر أذين، وكان الأفشين قد خاف أن يؤخذ عليهم الطريق فأمرهم أن يجعلوا على رأس كل جبل رجالاً معهم الأعلام السود فإن رأوا شيئاً يخافونه حركوا الأعلام ففعلوا ذلك. فلما أخذوا عيال أذين ورجعوا إلى بعض الطريق قبل المضيق أتاهم أذين في أصحابه فحاربوهم فقتل منهم قتلى واستنقذوا بعض النساء فنظر الرجال المرتبون برؤوس الجبال فحركوا الأعلام، وكان أذين قد أنفذ من يمسك عليهم المضيق. فلما رأى الأفشين تحريك العلم الذي بإزائه سيّر جماعة من الجند مع مظفر ابن كيذر فأسرع نحوهم، ووجه أبا سعيد بعدهم وبخاراخذاه. فلما نظر إليهم رجالة أذين الذين على المضيق تركوه وقصدوا

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٢٨.

(٢) كلان-روذ: أي النهر الكبير.

أصحابهم فنجا ظفر بن العلاء ومن معه ومعهم بعض عيال أذين».

و - فتح البذ وأسر بابك ومقتله:

في السنة الثانية والعشرين والمائتين أيضاً فتح الأفشين البذ، مدينة بابك، ودخلها المسلمون وخربوها، وذلك لعشرٍ بقين من شهر رمضان.

وتفاصيل ذلك أن الأفشين، وبعد وصول مدد المعتصم إليه، عزم على الاقتراب من البذ، فرحل من كلان روذ وتقدم حتى نزل روذ الروذ، ومنها سار إلى مشارف البذ فوجد كردوساً من الخرمية، فلم يحاربه وذلك حفاظاً على سريّة تحركه. وكان الأفشين قد استعمل تكتيكاً جديداً أثناء تقدمه ذكره الطبري الذي كتب:[1]

«ذُكر أنّ الأفشين لما عزم على الدنو من البذّ والارتحال من كلان روذ جعل يُزحلف قليلاً قليلاً - على خلاف زحفه قبل ذلك - إلى المنازل التي كان ينزلها؛ فكان يتقدم الأميال الأربعة، فيعسكر في موضع على طريق المضيق الذي ينحدر إلى روذ الرّوذ، ولا يحفر خندقاً؛ ولكنه يقيم معسكراً في الحسك. وكتب إليه المعتصم يأمره أن يجعل الناس نوائب كراديس تقف على ظهور الخيل، كما يدور العسكر بالليل، فبعض القوم معسكرون وبعضٌ وقوف على ظهور دوابّهم على ميل كما يدور العسكر بالليل والنهار مخافة البيات؛ كي إن دهمهم أمر يكون الناس على تعبية والرّجالة في العسكر. فضجّ الناس من التعب وقالوا: كم نقعد ها هنا في المضيق ونحن قعود في الصحراء، وبيننا وبين العدو أربعة فراسخ، ونحن نفعل فعلاً؛ كأن العدو بإزائنا! قد استحينا من الناس والجواسيس الذين يمرون بيننا وبين العدو أربعة فراسخ؛ ونحن قد متنا من الفزع؛ أقدم بنا؛ فإما لنا وإما علينا. فقال: أنا والله أعلم أن ما تقولون حق؛ ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا. ولا أجد منه بدّاً.

فلم يلبث أن جاءه كتاب المعتصم يأمره أن يتحرى بدراجة الليل على حسب ما كان؛ فلم يزل كذلك أياماً. ثم انحدر في

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٢١.

خاصته حتى نزل إلى روذ الرّوذ، وتقدم حتى شارف الموضع الذي به الرّكوة التي واقعه عليها بابك في العام الماضي. فنظر إليها، ووجد عليها كردوساً من الخرمية؛ فلم يحاربوه ولم يحاربهم؛ فقال بعض العلوج: ما لكم تجيئون وتفرّون! أما تستحيون! فأمر الأفشين ألاّ يجيئوهم ولا يبرز إليهم أحد. فلم يزل مُواقفهم إلى قريب من الظهر، ثم رجع إلى عسكره، فمكث فيه يومين. ثم انحدر أيضاً في أكثر مما كان انحدر في المرة الأولى، فأمر أبا سعيد أن يذهب فيواقفهم على حسب ما كان واقفهم في المرة الأولى، ولا يحركهم ولا يهجم عليهم».

ثم عاد الأفشين إلى روذ الروذ وأرسل رجال استطلاعه ليختاروا له مواضع على رؤوس الجبال ليتحصن بها رجاله، فاختاروا له ثلاثة جبال كانت عليها حصون قديمة، أعاد الأفشين تحصينها فأصبحت الجبال الثلاثة كالحصون. كما أمر بحفر خندق على كل من الطرق المؤدية إلى هذه الجبال، ولم يترك مسلكاً إليها سوى مسلك واحد.[1]

أرسل بابك بعضاً من فرقه إلى قرب حصون الأفشين حيث راحوا يصيحون، فلم يسمح الأفشين لأحد من جنده بالخروج إليهم طيلة أيام ثلاثة. بعد ذلك، نصب الأفشين لهم كميناً وقام بمطاردتهم، فلم يعودوا إلى ما كانوا عليه.[2]

واتّبع الأفشين في تحركه طريقة ضرب الطبول لكثرة جنده وتوزعهم على الجبال الثلاثة، فكان إذا سار قرعت الطبول، وإذا وقف أمسكت عن الضرب، فيقف الجند جميعاً. وكان عندما يتقدم يضع جنداً على رؤوس الجبال لحفظ الطريق[3]، وذلك كي لا تفاجئه الخرمية.

أما بابك فكان، إذا أحس بمجيء جند الأفشين، وجّه جمعاً من أصحابه لإقامة كمين في وادٍ يعتبر ممراً إلزامياً في «بخاراخذاه».[4]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٢٩.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٢٢.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٣٠.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٥١.

وكان الأفشين يأمر قادته بأن يعبروا الوادي تباعاً، كل في كردوس، فتصبح في الوديان ثلاثة كراديس. وكان بابك يخرج بعسكره فيقف بإزاء الكراديس لئلا يتقدم أحدها إلى باب البذ، وكان يفرّق جنده في كمائن في الوديان لاعتراض كراديس الأفشين.

أما عودة الكراديس إلى مكانها فكان الأفشين، بعد أن يصلي الظهيرة يعود إلى خندقه بروذ الروذ، فترجع الكراديس إليه، ويرجع أولاً أقربها إلى العدو، ثم يليه التالي. أما الأقرب إلى روذ الروذ فيعود في الأخير. هذا التكتيك الحديث الذي تعتمده الجيوش حالياً عند تنفيذ قتال تراجعي أمام العدو المهاجم، قد طبقه الأفشين منذ ألف وأربعماية سنة.

وضجرت الخرمية من هذه التحركات اليومية. فلما كان أحد الأيام فتحت باب البذ وخرجت منه جماعة وهاجمت أحد الكراديس الذي كان يقوده جعفر الخياط الذي تقدم وردّ الخرمية إلى باب البذ.

ثم إن جماعة إسلامية من كردوس آخر كانت مع أبي دلف عبرت إلى جانب جعفر وهاجمت البذ، وكاد جندها يصعدون أسوارها.

لم يقبل الأفشين إمداد جعفر بخمسمائة مقاتل طلبهم، بل أمره بالعودة عن البذ، لأنه لم يعط بنفسه الأمر باجتياحها بعد.[1] كما أن كميناً لبابك كان يتحضّر لمهاجمة كردوس جعفر من الخلف. لذلك أمر الأفشين بعدم متابعة الهجوم على المدينة.[2]

ا - القتال حول البذ ودخولها:

ثم أمر الأفشين جنده بالتجهز وحمل المال والزاد والماء، وجعل المحامل على البغال تحمل الجرحى، وأعطى أمره بالتقدم العام نحو البذ. فتقدم كردوس جعفر مع المتطوعة إلى المكان الذي كانوا فيه سابقاً، فقاتلوا وتعلقوا بسور البذ، وضرب جعفر الباب

(١) إن ما قام به الأفشين في هذه الحال يظهر عبقريته العسكرية إذ إنه لو تابع إمداد الكردوس الذي هاجم البذ دون أمره، لكان من الممكن أن تفشل العملية بكاملها.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٣٠-٣١.

ووقف عنده يقاتل. وأمدّ الأفشين جعفراً بالأموال لتفرّق على الجند، كما أمدّهم بالفعلة ومعهم الفؤوس فاشتبك الجمعان على الباب طويلاً.(١)

وعند ذاك، فتحت الخرمية الباب وخرجوا منه وهاجموا جند جعفر فأعادوهم عنه، وشدوا على المتطوعة الذين على الأسوار فطرحوهم عنها ورموهم بالصخور. رغم ذلك صمد جعفر وجنده خلف تروسهم، لكن فتح البذ بدا متعذراً.

نقل الطبري تفاصيل خطة الأفشين لفتح البذ، مع القتال الذي جرى حولها وصولاً إلى فتحها، فكتب:(٢)

«ثم إن الأفشين تجهز بعد جمعتين؛ فلما كان في جوف الليل؛ بعث الرجالة الناشبة؛ وهم مقدار ألف رجل، فدفع إلى كل واحد منهم شكوة وكعكاً، ودفع إلى بعضهم أعلاماً سوداً وغير ذلك، وأرسلهم عند مغيب الشمس، وبعث معهم أدلاّء. فساروا ليلتهم في جبال منكرة صعبة على غير الطريق؛ حتى داروا، فصاروا خلف التل الذي يقف آذين عليه - وهو رجل شاهق - وأمرهم ألاّ يعلم بهم أحد؛ حتى إذا رأوا أعلام الأفشين وصلوا الغداة ورأوا الوقعة، ركبوا تلك الأعلام في الرماح، وضربوا الطبول، وانحدروا من فوق الجبل، ورموا بالنشاب والصخر على الخرمية. وإن هم لم يروا الأعلام لم يتحركوا حتى يأتيهم خبره؛ ففعلوا ذلك. فوافوا رأس الجبل عند السحر، وجعلوا في تلك الشكاء الماء من الوادي؛ وصاروا فوق الجبل. فلما كان في بعض الليل وجّه الأفشين إلى القواد أن يتهيؤوا في السلاح؛ فإنه يركب في السحر. فلما كان في بعض الليل، وجّه بشيراً التركي وقوّاداً من الفراغنة كانوا معه؛ فأمرهم أن يسيروا حتى يصيروا تحت التل مع أسفل الوادي الذي حملوا منه الماء؛ وهو تحت الجبل الذي كان عليه آذين، وقد كان الأفشين علم أن الكافر يكمن تحت الجبل كلما جاءه العسكر. فقصد بشير والفراغنة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٥٣.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٢٦-٢٢٨.

إلى ذلك الموضع الذي علم أن للخرمية فيه عسكراً كامنين، فساروا في بعض الليل؛ ولا يعلم بهم أكثر أهل العسكر. ثم بعث للقواد: تأهبوا للركوب في السلاح؛ فإن الأمير يغدو في السحر. فلما كان السحر خرج وأخرج الناس، وأخرج النفاطين والنفاطات والشمع على حسب ما كان يخرج، فصلّى الغداة، وضرب الطبل، وركب حتى وافى الموضع الذي كان يقف فيه في كل مرة، وبُسط له النطع، ووضع له الكرسي كعادته.

وكان بخاراخذاه يقف على العقبة التي كان يقف عليها في كل يوم. فلما كان ذلك اليوم صير بخاراخذاه في المقدمة مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأحمد بن الخليل؛ فأنكر الناس هذه التعبية في ذلك الوقت. وأمرهم أن يدنوا من التل الذي عليه آذين؛ فيحدقوا به؛ وقد كان ينهاهم عن هذا قبل ذلك اليوم. فمضى الناس مع هؤلاء القواد الأربعة الذين سمّينا؛ حتى صاروا حول التل. وكان جعفر الخياط مما يلي باب البذ، وكان أبو سعيد مما يليه، وبخاراخذاه مما يلي أبا سعيد وأحمد بن الخليل بن هشام مما يلي بخاراخذاه؛ فصاروا جميعاً حلقة حول التل، وارتفعت الضجة من أسفل الوادي؛ وإذا الكمين الذي تحت التل الذي كان يقف عليه آذين قد وثب ببشير التركي والفراغنة؛ فحاربوهم واشتبكت الحرب بينهم ساعة.

وسمع أهل العسكر ضجتهم، فتحرك الناس، فأمر الأفشين أن ينادوا: أيُّها الناس، هذا بشير التركيّ والفراغنة قد وجهتهم؛ فأثاروا كميناً فلا تتحركوا. فلما سمع الرجّالة الناشبة الذين كانوا تقدموا، وصاروا فوق الجبل ركبوا الأعلام كما أمرهم الأفشين؛ فنظر الناس إلى أعلام تجيء من جبل شاهق؛ أعلام سود، وبين العسكر وبين الجبل نحو فرسخ؛ وهم ينحدرون على جبل آذين من فوقهم؛ قد ركّبوا الأعلام، وجعلوا ينحدرون ويريدون آذين. فلما نظر إليهم أهل عسكر آذين وجّه آذين إليهم بعد رجّالته الذي معه من الخرمية. ولما نظر الناس إليهم راعوهم؛ فبعث إليهم الأفشين: أولئك رجالنا أنجدتنا على آذين؛ فحمل جعفر الخياط وأصحابه على آذين وأصحابه، حتى صعدوا إليهم، فحملوا

عليهم حملة شديدة، قلَبوه وأصحابه في الوادي. وحمل عليهم رجل ممن في ناحية أبي سعيد من أصحاب أبي سعيد، يقال له معاذ بن محمد - أو محمد بن معاذ - في عدّة معه؛ فإذا تحت حوافر دوابّهم آبار محفورة تدخل أيدي الدوابّ فيها، فتساقطت فرسان أبي سعيد فيها. فوجّه الأفشين الكِلْغرية يقلعون حيطان منازلهم، ويطمُّون بها تلك الآبار؛ ففعلوا ذلك؛ فحمل الناس عليهم حملة واحدة. وكان آذين قد هيّأ فوق الجبل عجلاً عليها صخر؛ فلما حمل الناس عليه، دفع العجل على الناس فأفرجوا عنها، فتدحرجت؛ ثم حمل الناس من كلّ وجهه.

فلما نظر بابك إلى أصحابه قد أُحدِق بهم، خرج من طرف البذّ، من باب مما يلي الأفشين، يكون بين هذا الباب وبين التلّ الذي عليه الأفشين قدر ميل. فأقبل بابك في جماعة معه يسألون عن الأفشين، فقال لهم أصحاب أبي دُلف: مَنْ هذا؟ فقالوا: هذا بابك يريد الأفشين. فأرسل أبو دلف إلى الأفشين يعلمه ذلك؛ فأرسل الأفشين رجلاً يعرف بابك؛ فنظر إليه، ثم عاد إلى الأفشين، فقال: نعم هو بابك. فركب إليه الأفشين، فدنا منه حتى صار في موضع يسمع كلامه وكلام أصحابه، والحرب مشتبكة في ناحية آذين، فقال له: أريد الأمان من أمير المؤمنين. فقال له الأفشين: قد عرضتُ عليك هذا؛ وهو لك مبذول متى شئتَ. فقال: قد شئتُ الآن؛ على أن تؤجّلني أجلاً أحمل فيه عيالي، وأتجهّز. فقال له الأفشين: قد والله نصحتُك غير مرّة فلم تقبل نصيحتي، وأنا أنصحك الساعة، خروجك اليوم في الأمان خير من غد. قال: قبلت أيها الأمير؛ وأنا على ذلك؛ فقال له الأفشين: فابعث بالرهائن الذين كنت سألتك. قال: نعم، أما فلان وفلان فهم على ذلك التلّ، فمرْ أصحابك بالتوقّف.

قال: فجاء رسول الأفشين ليرد الناس، فقيل له: إن أعلام الفراغنة قد دخلت البذّ وصعدوا بها القصور. فركب وصاح بالناس، فدخل ودخلوا، وصعد الناس فوق قصور بابك؛ وكان قد كمَّن في قصوره - وهي أربعة - ستمائة رجل؛ فوافاهم الناس، فصعدوا بالأعلام فوق القصور، وامتلأت شوارع البذّ وميدانها من الناس، وفتح أولئك الكُمناء

أبواب القصور، وخرجوا رجّالة يقاتلون الناس. ومرّ بابك حتى دخل الوادي الذي يلي هشتادسَر. واشتغل الأفشين وجميع قواده بالحرب على أبواب القصور، فقاتل الخرمية قتالاً شديداً، وأحضر النَّفاطين، فجعلوا يصبّون عليهم النَّفط والنار، والناس يهدمون القصور؛ حتى قتِلوا عن آخرهم. وأخذ الأفشين أولاد بابك ومَن كان معهم في البذّ من عيالاتهم؛ حتى أدركهم المساء، فأمر الأفشين بالانصراف فانصرفوا، وكان عامة الخرمية في البيوت؛ فرجع الأفشين إلى الخندق بروذ الرُّوذ.

فذُكر أن بابك وأصحابه الذين نزلوا معه الوادي حين علموا أن الأفشين قد رجع إلى خندقه، رجعوا إلى البذّ، فحملوا من الزاد ما أمكنهم حمله، وحملوا أموالهم، ثم دخلوا الوادي الذي يلي هشتادسر. فلما كان الغد خرج الأفشين حتى دخل البذّ، فوقف في القرية، وأمر بهدم القصور، ووجّه الرجّالة يطوفون في أطراف القرية، فلم يجدوا فيها أحداً من العلوج. فأصعد الكلغرية، فهدموا القصور وأحرقوها؛ فعل ذلك ثلاثة أيام حتى أحرق خزائنه وقصوره؛ ولم يَدَع فيها بيتاً ولا قصراً إلاّ أحرقه وهدمه. ثم رجع وعلم أن بابك قد أفلت في بعض أصحابه؛ فكتب الأفشين إلى ملوك أرمينيا وبطارقتها يعلمهم أن بابك قد هرب وعدّة معه، وصار إلى وادٍ، وخرج منه إلى ناحية أرمينيا، وهو مارّ بكم. وأمرهم أن يحفظ كلٌ واحد منهم ناحيته؛ ولا يسلكها أحد إلاّ أخذوه حتى يعرفوه. فجاء الجواسيس إلى الأفشين، فأخبره بموضعه في الوادي. وكان وادياً كثير العشب والشجر، طرفُه في أرمينيا وطرفُه الآخر في أذربيجان، ولم يمكن الخيل أن تنزل إليه، ولا يُرى من يستخفي فيه لكثرة شجره ومياهه؛ إنما كانت غيضة واحدة؛ ويسمّى هذى الوادي غَيْضة. فوجّه الأفشين إلى كلٍ موضع يعلم أن منه طريقاً ينحدر منه إلى تلك الغيضة، أو يمكّن بابك أن يخرج من ذلك الطريق؛ فصيَّر على كلّ طريق وموضع من هذه المواضع عسكراً فيه ما بين أربعمائة إلى خمسمائة مقاتل. ووجّه معهم الكُوهبانيّة ليقفوهم على الطريق، وأمرهم بحراسة الطريق في الليل لئلا يخرج منه أحد».

II - أسر بابك ومقتله:

أخيراً أسر القائد أبو سعيد بابكاً الذي كان متخفياً في أحد الأماكن، فأحضره إلى الأفشين الذي أرسله إلى المعتصم.

نقل المسعودي تفاصيل تسليم بابك إلى المعتصم، ومن ثم ذبحه وشق بطنه وصلب جسده في سامراء ليكون عِبْرة لمن اعتبر، فكتب:[1]

«فسار الأفشين ببابك وتنقل بالعساكر، حتى أتى سُرَّ من رأى، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين. وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامراء. وبعث إليه بالفيل الأشهب، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون، وكان فيلاً عظيماً قد جُلِّل بالديباج الأحمر والأخضر، وأنواع الحرير الملون، ومعه ناقة عظيمة بختية قد جللت بما وصفنا. وحمل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر منسوجة بالذهب قد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر، ودرّاعة دونها، وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك[2] بألوان مختلفة، وقد نظّم على القلنسوة كثير من اللؤلؤ والجوهر.

وألبس بابك الدرّاعة الجليلة، وألبس أخوه الأخرى، وجعلت القلنسوة على رأس بابك، وعلى رأس أخيه نحوها. وقدّم إليه الفيل، وإلى أخيه الناقة، فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال: ما هذه الدابة العظيمة؟ واستحسن الدراعة، وقال: هذه كرامة ملك عظيم جليل، إلى أسير فقد العز ذليل، أخطأته الأقدار، وزالت عنه الجدود، وتورطته المحن، إنها لفرحة تقتضي ترحة.

وضرب له المصاف صفين في الخيل والرجال والسلاح والحديد والرايات والبنود، من القاطول إلى سامراء، مدد واحد متصل غير منفصل، وبابك على الفيل وأخوه وراءه على الناقة، والفيل يخطر بين الصفين به، وبابك ينظر إلى ذات اليمين وذات الشمال، ويميّز الرجال والعدد، ويظهر

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص٦٦-٦٨.

(٢) السفاسك: الأطراف أو القطع.

الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم غير مستعظم لما يرى من كثرتهم، وذلك يوم الخميس لليلتين خَلَتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

ولم يرَ الناس مثل ذلك اليوم، ولا مثل تلك الزينة. ودخل الأفشين على المعتصم فرفع منزلته، وأعلى مكانه، وأتى ببابك فطوّف به بين يديه، فقال له المعتصم: أنت بابك؟ فلم يجب، وكررها عليه مراراً، وبابك ساكت.

فمال إليه الأفشين وقال: الويل لك! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت؟

فقال: نعم أنا بابك.

فسجد المعتصم عند ذلك، وأمر بقطع يديه ورجليه.

قال المسعودي: ورأيت في كتاب «أخبار بغداد» أنه لما وقف بابك بين يديه يكلمه ملياً، ثم قال له: أنت بابك؟

قال: نعم، أنا عبدك وغلامك، وكان اسم بابك الحسن، واسم أخيه عبد الله.

قال: جرِّدوه، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة، وقطعت يمينه، وضرب بها وجهه، وفعل مثل ذلك بيساره، وثلث برجليه. وهو يتمرغ في النطع[1] في دمه، وقد كان تكلم بكلام كثير يرغّب في أموال عظيمة قبله، فلم يلتفت إلى قوله، وأقبل يضرب ما بقي من زنديه وجهه.

وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل من القلب ليكون أطول لعذابه، ففعل. ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده فصلب.

ثم حُمل الرأس إلى مدينة السلام، ونصب على الجسر. وحمل إلى خراسان بعد ذلك، يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره، وعظم شأنه، وكثرة جنوده، وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملّة وتبديلها.

وحمل أخوه عبد الله مع الرأس إلى مدينة السلام، ففعل به إسحاق بن إبراهيم أميرها ما فعل بأخيه بابك في سامراء. وصلبت جثة بابك على خشبة طويلة في أقاصي سامراء، وموضعه مشهور إلى هذه الغاية يعرف بخشبة بابك، وإن كانت سامراء في هذا الوقت قد خلا منها سكانها، وبان

(١) النطع: بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس.

عنها قاطنها، إلاّ يسيراً من الناس في بعض المواضع بها».

III - خلاصة:

هكذا قتل بابك الخرمي زعيم الخرمية الذي شغل الجيوش الإسلاميّة طوال عقود من الزمن، وكان كل من قتلهم في عشرين سنة مائتين وخمسين ألفاً وخمسماية إنسان، وتغلب على القادة التالية أسماؤهم:(١)

- يحيى بن معاذ.
- عيسى بن محمد بن أبي خالد.
- أحمد بن الجنيد الذي أسره.
- زريق بن علي بن صدقة.
- محمد بن حميد الطوسي.
- إبراهيم بن الليث.

وأُسر معه ثلاثة آلاف وثلاثمائة إنسان، وأنقذ من كان في يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة. وأَسر الأفشين من عائلة بابك سبعة عشر رجلاً وثلاثاً وعشرين امرأة.(٢)

٥ - خروج الروم إلى زُبَطرة:

في السنة الثالثة والعشرين والمائتين خرج الإمبراطور البيزنطي تيوفيل إلى بلاد الإسلام وأوقع بأهل زبطرة(٣) وغيرها.

وسبب ذلك أن بابك، لما ضيّق الأفشين عليه وأشرف على الهلاك، كتب إلى تيوفيل يعلمه أن جميع عساكر المعتصم تقوم بمحاربته ولم تبق له أية قوات للدفاع عن أطراف بلاده. ومما قاله له:(٤)

«إن كنت تريد الغنيمة، فانهض سريعاً إلى ما هو حولك من بلاده فخذها، فإنك لا تجد أحداً يمانعك عنها».

تحرّك تيوفيل في مائة ألف مقاتل نحو بلاد الإسلام ووصف الطبري تحركه هذا ودخوله

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٣٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٠٣.

(٣) زبطرة: مدينة بين ملطية وسميساط في طرف بلاد الروم.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٠٣.

زبطرة وقتل الرجال فيها وسبي النساء، فكتب:(١)

«فذكر أن تيوفيل خرج في مائة ألف - وقيل أكثر - فيهم من الجند نيّف وسبعون ألفاً، وبقيّتهم أتباع حتى صار إلى زُبَطْرة، ومعه من المحمّرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب جماعة رئيسم بارسيس. وكان ملك الروم قد فرض لهم، وزوّجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره. فلما دخل ملك الروم زبطرة وقتل الرجال الذين فيها، وسبى الذراري والنساء التي فيها وأحرقها، بلغ النفير - فيما ذكر - إلى سامرّاء، وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة إلاّ من لم يكن عنده دابة ولا سلاح، واستعظم المعتصم ذلك».

وأغار تيوفيل أيضاً على ملطية وغيرها من حصون المسلمين، وسبى المسلمات ومثّل بمن أسر من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم.

٦ - فتح عمورية:

لما بلغ خبر غارة تيوفيل على بلاد الإسلام إلى المعتصم، استعظمه وكبر لديه. وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: «وامعتصماه»، فأجابها وهو جالس على سريره: «لبيكِ لبيك».(٢)

ونهض المعتصم فوراً للمسير إلى بلاد الروم. وصف ابن كثير تحرّك المعتصم نحو بلاد الروم، فكتب:(٣)

«فلما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير. ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه. وخرج من بغداد فعسكر غربي دجلة الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٥٠.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٥٧.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٠٤.

الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة. فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر راجعاً إلى بلاده، وتفارط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه. فرجعوا إلى الخليفة لإعلامه بما وقع من الأمر، فقال للأمراء أي بلاد الروم أمنع؟ قالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

ولما تفرّغ المعتصم من بابك لعنه الله وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه وتجهز جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء. وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقِرَب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله. وسار إلى عمورية في حجافل أمثال الجبال، وبعث الأفشين حيدر بن كاوس من ناحية سروج. وعبى الخليفة جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلها، وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب، فانتهى في سيره إلى نهر اللسي وهو قريب من طرسوس، وذلك في رجب من هذه السنة. وقد ركب ملك الروم في جيشه فقصد نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ. ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى، فجاؤوا في أثره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاءه الأفشين من خلفه فالتقيا عليه فيهلك. وإن اشتغل بأحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه. ثم اقترب من الأفشين فسار إليه ملك الروم في شرذمة من جيشه واستخلف على بقية جيشه قريباً له فالتقيا هو والأفشين في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان منها، فثبت الأفشين في ثاني الحال وقتل من الروم خلقاً وجرح آخرين. وتغلب على ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع الأوبة فإذا نظام الجيش قد انحل، فغضب على قرابته وضرب عنقه. وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسرّه ذلك وركب من فوره وجاء إلى أنقرة ووافاه الأفشين بمن معه إلى هناك، فوجدوا أهلها قد هربوا منه فتقووا منها بما وجدوا من طعام وعلوفة كثيرة».

أ - خطة المعتصم لفتح عمورية:

بعد أنقرة، وضع المعتصم خطة حربية لفتح عمورية تقضي بما يأتي:[1]

- فرّق جيشه إلى ثلاث فرق، فرقة للميمنة بقيادة الأفشين، وفرقة للميسرة بقيادة أشناس، وفرقة للقلب بقيادة الخليفة المعتصم.

- يكون بين كل فرقة والأخرى فرسخان.

- يجعل كل قائد لفرقته ميمنة وميسرة وقلباً ومقدمة وساقة.

- إحراق وتخريب كل القرى التي تمرّ بها الفِرَق، مع أسر كل سكانها ومصادرة الغنائم منها.

ب - محاصرة عمورية وفتحها:

سارت الفِرَق الثلاث نحو عمورية التي تبعد سبع مراحل عن أنقرة، فوصلتها أولاً فرقة أشناس صحوة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان من السنة ثلاثة وعشرين ومائتين، فدارت حولها دورة ثم تمركزت على ميلين منها. ووصلت فرقة المعتصم صبيحة الجمعة فدارت حول المدينة ثم نزلت قريباً منها. وفي اليوم التالي وصلت فرقة الأفشين.

وكانت عمورية مدينة عظيمة ومتسعة جداً، ولها سور منيع فيه أبراج عالية، وقد تحصّن أهلها تحصناً شديداً وعززوا أبراجها بالرجال والسلاح.

قسّم أمير المؤمنين سور المدينة بين قادته، فأعطى لكل منهم عدداً من الأبراج يتناسب مع عدد جنده، ونزل بفرقته مقابل مكان في السور كان قد هدمه السيل سابقاً وبُني بناءً ضعيفاً من دون أساس، أرشده إليه أحد الجواسيس من داخل المدينة. ونصب المعتصم المجانيق مقابل هذا المكان من السور.[2]

وأمر المعتصم فضرب السور في ذلك المكان فتصدع وهدم قسم منه. فلما رأى أهل عمورية تهدم السور وضعوا عليه الخشب، ملاصقاً لبعضه، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسّر. فعلقوا خشباً غيره فتصدع أيضاً.[3]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٠-٤١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٠٥.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٣٩.

نقل ابن كثير تفاصيل الحصار وأوامر المعتصم خلاله وصولاً إلى فتح عمورية، فكتب:[1]

«فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بتصدع السور، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم. فلما اجتازوا بالجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما ممن أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان - لأمير سموه من أمراء المسلمين - فحملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب مناطس نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً في ذلك الوقت ما كان. فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع، وأن يوقفا تحت حصن مناطس فينثر عليهما الدراهم والخلع، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما. ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعاً بذلك. وألح عليهم المسلمون في الحصار، وقد زاد المعتصم في المجانيق الكثيرة والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب. ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها، أعمل المجانيق في مقاومة السور. وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويجيء بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق. ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام. ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك. وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب من السور، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة، فبعث المعتصم من نادى في الناس: إنما ذلك سقوط السور. ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، لكن لم يكن ما هدم يسع الخيل

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٠٥-٣٠٦.

والـرجـال إذا دخـلـوا. وقـوي الحصـار وقـد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه، فضعف ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصـار، فـذهـب إلى مـنـاطس فسـألـه نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون في حفظه.

فـلـمـا يئس مـنـهـم خـرج إلى المعـتـصـم لـيـجتمع به. فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة، فركب المسلمون نـحـوهـا فـجـعـلـت الـروم يشيرون إلـيـهـم ولا يـقـدرون عـلـى دفاعهم. فلم يلتفت إليهم المسلمون، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبِّرون. وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم، وقد حشروهم في كنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم. ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب، وهو مـنـاطس في حصـن مـنـيـع. فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه مناطس فناداه المنادي ويحك يا مناطس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك. فقالوا: ليس بمناطس ههنا مرتين. فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس هذا مناطس هذا مناطس. فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصـن وطـلـعـت الـرسـل إلـيـه فـقـالـوا لـه: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين. فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل، فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً عظيمة وغنائم لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حـمـلـه. وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك، وبـإحـراق مـا هـنـالك مـن المجانـيـق والـدبـابـات وآلات الحرب لـئـلا يتقوّى بها الروم على شيء من حرب المسلمين. ثم انصرف المعتصم راجعاً إلى ناحية طرسوس في آخر شوال من هذه السنة.(١) وكانت إقامته على عمرية خمسة وعشرين يوماً».

(١) أي سنة ٢٢٣ هـ.

وحدّد ابن خلدون مدة حصار عمورية بخمسة وخمسين يوماً: «من سادس رمضان إلى آخر شوال».[1]

أما المسعودي، فنقل أن المعتصم أراد، بعد سقوط عمورية، المسير إلى القسطنطينية لفتحها براً وبحراً، فأتاه ما أزعجه من خروج العباس بن المأمون عليه ومبايعته من قبل كثيرين.[2]

وهكذا، افتتح المعتصم عمورية وأخذ بثأر المرأة الهاشمية التي نادته: «وامعتصماه».

٧ - قتل العباس بن المأمون:

في السنة الثالثة والعشرين والمائتين كان العباس بن المأمون مع عمه المعتصم في غزوة عمورية، وكان عجيف بن عنبسة قد انتقده لأنه لم يأخذ الخلافة بعد أبيه حين مات في طرسوس، ولامه على مبايعته لعمه المعتصم.[3]

ولم يزل عجيف يسعى لدى العباس حتى أقنعه بأن يقتل عمه المعتصم، على أن يأخذ عجيف له البيعة من الأمراء. وبالفعل كلف عجيف الحارث السمرقندي فأخذ البيعة للعباس من جماعة من الأمراء في الباطن.

وأكمل بن كثير الرواية، فكتب:[4]

«فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد. فقال العباس: إني أكره أن أعطِّل على الناس هذه الغزوة. فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يقتله فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا. فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم واجتهد بالعزم، واستدعى بالحارث السمرقندي

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٦١.
(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص٧٠.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٤٦.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٠٦-٣٠٧.

فاستقره فأقرّ له بجملة الأمر، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسماهم له. فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس بن المأمون، فقيده وغضب عليه وأهانه، ثم أظهر له أنه قد رضي عنه وعفا عنه، فأرسله من القيد وأطلق سراحه. فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرته في مجلس شرابه واستخلى به حتى سقاه واستحكاه عن الذي كان قد دبره من الأمر، فشرح له القضية، وذكر له القصة، فإذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندي. فلما أصبح استدعى بالحارث فأخلاه وسأله عن القضية ثانياً فذكرها له كما ذكرها أول مرة. فقال: ويحك إني كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلاً بصدقك إياي في هذه القصة. ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيد وسلم إلى الأفشين. وأمر بعجيف وبقية الأمراء الذين ذكرهم فأحيط بهم، ثم أخذهم بأنواع النقمات التي اقترحها لهم، فقتل كل واحد منهم بنوع لم يقتل به الآخر، ومات العباس بن المأمون في منبج فدفن هناك. وكان سبب موته أنه أجاعه جوعاً شديداً، ثم جيء بأكل كثير فأكل منه وطلب الماء فمنع منه حتى مات. وأمر المعتصم بلعنه على المنبر وسماه اللعين. وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً».

٨ - انتفاضة مازيار صاحب طبرستان:

كان مازيار بن قارن بن ونداد هرمز صاحب طبرستان على خلاف مع القائد عبد الله بن طاهر والي خراسان، فلا يحمل إليه الخراج بل يحمله إلى المعتصم الذي يرسله إلى عبد الله والي خراسان.

فلما ظفر الأفشين ببابك الخرمي، طمع في ولاية خراسان، وظن أن تحرك مازيار ضد الخليفة قد يدفع هذا الأخير لتكليفه بمحاربة مازيار ولتوليته خراسان. لذلك راح الأفشين يحرّض مازيار على الانتفاضة.(١)

وبالفعل انتفض مازيار واسمه «محمد بن قارن» وحمل الناس على بيعته كرهاً وأخذ رهائنهم وعجّل جباية الخراج، وخرّب سور

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٥٠.

آمل وسور سارية وقتل من أهلهما الكثير. ونقل الباقين منهم إلى جبل بين البلدتين حيث حبسهم، وكان عددهم عشرين ألفاً.(١)

وخرّب مازيار أيضاً سور طميس وبنى خندقاً منها حتى البحر بطول ثلاثة أميال كانت الأكاسرة قد بنته لتمنع غارة الترك على طبرستان. فزع أهل جرجان فهرب منهم قسم إلى نيسابور.(٢)

كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر يأمره بقتال مازيار، فسيّر إليه من نيسابور عمه الحسن بن الحسين بن مصعب في جيش كبير لحفظ جرجان، فسار إلى حيث بنى الخندق الذي أصبح يفصل بينهما.(٣) كما أرسل عبد الله مولاه حيان بن جبلة إلى قومس فعسكر على جبال شَروين.

المعتصم من جهته أرسل القادة التالية أسماؤهم في جند إلى المنطقة، وهم:

- محمد بن إبراهيم بن مصعب ومنصور بن الحسن إلى الري.
- أبا الساج إلى دنباوند.

هاجم جيش الحسن الخندق فاستولى على معسكر سرخستان وأسر أخاه شهريار الذي قتله الحسن، كما أسر سرخستان وقتله الحسن أيضاً وأرسل رأسه إلى عبد الله بن طاهر.

وقام أحد قادة عبد الله واسمه حيّان باستمالة أحد قادة مازيار واسمه قارن الذي سلمه الجبال ومدينة سارية حتى حدود جرجان.(٤)

ولما بلغ أهل سارية ذلك وثبوا على عامل مازيار فهرب منهم وفتح الناس السجن وأخرجوا من فيه.

وبلغ قوهيار أخا مازيار الخبر فأرسل إلى الحسن يطلب الأمان وأن يملك على جبال أبيه وجدّه ليسلم إليه مازيار، فقبل الحسن ذلك.

ركب الحسن من معسكره بطمس وجاء إلى موعد قوهيار في خرماباذ وسط جبال

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٦٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٥١.

(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٧١.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٦٥.

مازيار، فجاءه قوهيار بأخيه مازيار فقبض عليه الحسن وأرسله مع اثنين من قادته إلى مدينة سارية.

وقيل، وفق ابن خلدون، إن الذي غدر بالمازيار هو ابن عم له كان يتوارث جبال طبرستان والمازيار يتوارث سهلها. لكن المازيار، عندما ولاه الحسن بن سهل طبرستان، انتزع الجبل من يده فحقد عليه.[1]

سُلم المازيار إلى المعتصم فأطلعه على الكتب التي أرسلها إليه الأفشين يحرضه فيها على الانتفاضة، فقام المعتصم بضربه حتى مات وصلبه إلى جانب بابك الخرمي.[2] وكان ذلك السنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة.

٩ - عصيان منكجور نسيب الأفشين:

كتب ابن الأثير عن عصيان أحد عمال الأفشين واسمه منكجور في أذربيجان ومقتله:[3]

«لما فرغ الأفشين من بابك وعاد إلى سامراء استعمل على أذربيجان، وكان في عمله، منكجور، وهو من أقاربه. فوجد في بعض قرى بابك مالاً عظيماً ولم يعلم به المعتصم ولا الأفشين، فكتب صاحب البريد إلى المعتصم وكتب منكجور يكذبه فتناظرا فهمّ منكجور ليقتله فمنعه أهل أردبيل فقاتلهم منكجور. وبلغ ذلك المعتصم فأمر الأفشين بعزل منكجور فوجّه قائداً في عسكر ضخم. فلما بلغ منكجور الخبر خلع الطاعة وجمع الصعاليك وخرج من أردبيل فواقعه القائد فهزمه. وسار إلى حصن من حصون أذربيجان التي كان بابك خرّبها فبناه وأصلحه وتحصن فيه فبقي به شهراً. ثم وثب به أصحابه فأسلموه إلى ذلك القائد فقدم به إلى سامراء فحبسه المعتصم واتهم الأفشين في أمره. وكان قدومه سنة خمس وعشرين ومائتين، وقيل: إن ذلك القائد الذي أنفذ إلى منكجور كان بُغا الكبير وأن منكجور خرج إليه بأمان».

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٦٦.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص٧١

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٥٦-٥٧.

١٠ - عصيان مقدم الأكراد جعفر:

في السنة الرابعة والعشرين عصى بأعمال الموصل أحد مقدمي الأكراد واسمه جعفر بن فهرَجس، وتبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم. استعمل المعتصم عبد الله ابن السيد الأزدي على الموصل وأمره بقتال جعفر.[(١)]

كتب ابن الأثير عن القتال ضد جعفر:[(٢)]

«فسار عبد الله إلى الموصل وكان جعفر بماتعيس قد استولى عليها فتوجه عبد الله إليه وقاتله وأخرجه من ماتعيس. فقصد جبل داسن[(٣)] وامتنع بموضع عالٍ فيه لا يرام والطريق إليه ضيق. فقصد غبد الله إلى هناك وتوغل في تلك المضائق حتى وصل إليه وقاتله فاستظهر جعفر ومن معه من الأكراد على عبد الله لمعرفتهم بتلك المواضع وقوتهم على القتال بها رجالة، فانهزم عبد الله وقتل أكثر من معه. وممن ظهر منهم إنسان اسمه رَباح حمل على الأكراد فخرق صفهم وطعن فيهم وقتل وصار وراء ظهورهم وشغلهم عن أصحابه حتى نجا منهم من أمكنه النجاة. فتكاثر الأكراد عليه فألقى نفسه من رأس الجبل على فرسه وكان تحته نهر فسقط الفرس في الماء ونجا رباح.

فلما بلغ ذلك المعتصم أمر إيتاخ بالمسير إلى جعفر وقتاله، فتجهز وسار إلى الموصل سنة خمس وعشرين. وقصد جبل داسن وجعل طريقه على سوق الأحد فالتقاه جعفر فقاتله قتالاً شديداً فقتل جعفر وتفرق أصحابه فانكشف شره وأذاه عن الناس.

وقيل: إن جعفراً شرب سماً كان معه فمات. وأوقع إيتاخ بالأكراد فأكثر القتل فيهم واستباح أموالهم وحشر الأسرى، والنساء، والأموال إلى تكريت، وقيل: إن إيقاع إيتاخ بجعفر كان سنة ست وعشرين والله أعلم».

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٦٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٥٧-٥٨.

(٣) داسن: جبل عظيم في شمال الموصل من الجانب الشرقي لدجلة.

١١ - نكبة الأفشين:

كان الأفشين من أهل أشروسنة، لكنه نشأ في بغداد عند المعتصم وعظمت منزلته عنده. وعندما حاصر الأفشين بابك كانت تأتيه هدايا من أهل أرمينيا وأذربيجان فيوجهها إلى بلده. وقد وقعت جفوة بين الأفشين والقائد عبد الله بن طاهر الذي راح يشكوه للمعتصم.

وعندما انتفض مازيار تبين للمعتصم أن الأفشين هو الذي دفعه إلى ذلك. وجاءت قضية عصيان منكجور، نسيب الأفشين، لتزيد من الجفوة بينه وبين المعتصم.

وعزم الأفشين على أن يعمل طعاماً كثيراً ويدعو المعتصم وقادته، ويدسّ السمّ في الطعام. بلغ الخبر المعتصم الذي أمر بإحضاره فسجنه في الجوسق.

ثم انتهى الأفشين بأنه على دين المجوسية.

أخيراً، أمر المعتصم بقطع الطعام والشراب عنه إلاّ القليل حتى مات.(١)

١٢ - خروج المبرقع:

في السنة السابعة والعشرين والمائتين خرج على المعتصم أبو حرب المبرقع اليماني في فلسطين.

لخص ابن خلدون خبر المبرقع الذي اجتمع إليه نحواً من مائة ألف، لكنه قتل مع عشرين ألفاً منهم، فكتب:(٢)

«كان هذا المُبَرْقَع يُعرف بأبي حرب اليماني وكان في فلسطين، وأراد بعض الجند النزول في داره فمنعه بعض النساء فضربها الجندي. وجاءت فشكت إليه بفعل الجندي، فسار إليه وقتله، ثم هرب إلى جبال الأردن، فأقام بها واختفى يُبَرْقع على وجهه. وصار يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويعيب الخليفة ويزعم أنه أمويّ، واجتمع له قوم من تلك الناحية وقالوا هو السُفْيانيّ. ثم أجابه جماعة من رؤساء اليمانية منهم ابن بهيس وكان مُطاعاً في قومه وغيره فاجتمع له

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٦٠-٦٥.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٧٢-٥٧٣.

مائة ألف. وسرّح المعتصم رجاء بن أيوب في ألف من الجند، فخاف عن لقائه لكثرة من معه، وعسكر قبالته ينتظر أوان الزراعة وانصراف الناس عنه لأعمالهم. وبينما همّ في الانصراف توفي المعتصم وثارت الفتنة بدمشق، فأمره الواثق بقتل من أثار الفتنة والعود إلى المبرقع. ففعل وقاتله فأخذه أسيراً وابن بيهس معه، وقتل من أصحابه عشرين ألفاً وحمله، وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين».

١٣ - وفاة المعتصم:

في السنة السابعة والعشرين والمائتين توفي المعتصم يوم الخميس لثمان عشرة مضت من ربيع الأول ودفن في سامراء. فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ويومين. وكان عمره عند وفاته ثمانياً وأربعين سنة.

١٤ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - خلال الحملة على الزطّ، اعتمد القائد عجيف بن عبسة نظاماً سريعاً للبريد ونقل المعلومات عن ساحة القتال يومياً إلى الخليفة. كما عمد عجيف إلى سد مجاري الأنهار التي تموّن المدينة التي يتحصن بها أخصامه بالمياه، الأمر الذي منع عنهم الماء فاستسلموا إليه بعد أن أمّنهم.

وهكذا أحسن هذا القائد في تنظيم وسائل اتصاله، التي تعتبر حالياً عصب الجيوش خلال الحروب، وفي استخدام اللوجستية للضغط على عدوه، فانتصر عليه.

ب - أكثر المعتصم من استخدام الجند الترك في جيشه بهدف إنهاء سيطرة القادة والجنود الفرس على مقدّرات الخلافة. لكن هؤلاء ضايقوا أهل بغداد فأبعدهم عنها وبنى لهم مدينة سامراء الشهيرة.

لكن هؤلاء الترك سيسيطرون لاحقاً على مقدرات الخلافة، ويتحكمون بالخليفة نفسه، ويتمكنون من تغيير الخلفاء وفرض رأيهم عليهم، وأحياناً قتلهم.

لقد سبق وأوردنا مطالعة عن اعتماد الدول على جيوش من المرتزقة الذي يجب التنبه إليه كي لا يثور هؤلاء عليها أو يسيطرون على ساحتها، فيتحكمون بقادتها

وأهلها. وهذا ما سنلمسه في الأجزاء الآتية من موسوعتنا هذه.

ج - سيّر المعتصم جيشاً كبيراً بقيادة أبرز قادته الأفشين لقتال بابك الخرمي، فأحسن هذا القائد في اتخاذ تدابير تمهيدية لمعركته ضد الثائر الخطر ومنها:

١ - إعادة بناء الحصون التي خرّبها الخرمي بين أردبيل وزنجان.

٢ - تركيز حاميات في هذه الحصون.

٣ - حماية الطرق والمسالك في بقعة العمليات.

٤ - جمع الميرة من سكان المنطقة.

٥ - إعتراض السرايا التي كان يرسلها بابك، بقصد النهب والتخريب، وإيقاع الهزيمة بها وقتل عناصرها.

٦ - اصطناع عملاء له في بلاد بابك من خلال الإحسان إليهم وتأمينهم بعد القبض عليهم. وراح هؤلاء يزودونه بمعلومات دقيقة عن الوضع العسكري وطبيعة أرض العمليات، الأمر الذي سهّل إخضاع الثائر الكبير.

٧ - تأمين طريق القوافل من أردبيل إلى بغداد وحمايتها، وتطبيع الأوضاع في المنطقة التي كان يسيطر عليها بابك، الأمر الذي أمّن أهلها ورفع من معنوياتهم.

د - عندما وجّه الخليفة المال والنفقات لجند الأفشين بمواكبة سرية يقودها القائد «بغا الكبير»، حاول بابك اعتراضها والاستيلاء عليها ومنعها من الوصول إلى جيش الأفشين. نقل هذا الخبر أحد الجواسيس إلى الأفشين الذي نصب فخاً لبابك وضع فيه بعض الجند فيما المال والنفقات في مكان آخر. ووقع بابك في الفخ ونجت القافلة من قبضته.

وهنا نعود للتأكيد أن «الحرب خدعة». كما نؤكد على أهمية عمل الجواسيس الذين يُزرعون في صفوف العدو.

هـ - عاد بابك ونصب فخاً غير محكم ومدروس للأفشين الذي تنبه إليه فلم يقع في حبائله. فعند اللجوء إلى الخدعة في القتال، ينبغي إحكامها جيداً كي لا تعطي نتائج معاكسة.

و - يلاحظ من دراسة تفاصيل الصراع بين الأفشين والخرمي أن المبادرة كانت بيد بابك الذي كان يقوم بالفعل محافظاً على حرية عمله. أما الأفشين، فكان في وضع

المدافع عن مواقعه. ضمن هذا الإطار تمكن بـابك مـن اعتراض قـافـلـتين لـلأفشين والاستيلاء عليهما ومصادرة الميرة والطعام وقتل جنودهما. وهذا أمر طبيعي كونه، وخلال عمليات حفظ الأمن وإخضاع الثورات الداخلية، تعتمد الجيوش النظامية الوسائل التقليدية في الميدان اللوجستي، فتكون بذلك معرّضة لأعمال القرصنة والغريّة التي يشنّها الثوار على مفارزها وقوافلها.

ز - خلال العمليات التحضيرية الهادفة إلى فتح البذّ، اعتمد الأفشين استراتيجية هجومية فاعلة، وأحسن التخطيط وتنفيذ العمليات الآتية:

١ - عند سيره إلى البذ، شاهد كردوساً لبابك، فلم يصطدم به حفاظاً على سرية تحركه، وكون مهمته الأساسية تقضي بفتح البذ وليس التصدي لوحدات عدوه المنعزلة.

٢ - انتقل إلى المدينة بحذر وباتخاذ جميع تدابير الحماية والحيطة خوفاً من الوقوع في الكمائن أو التعرض للهجمات في أرض جبلية تكثر فيها الوديان والسفوح.

كما أبقى جيشه على تعبئة كاملة خلال التخييم والانتقال حفاظاً على حرية عمله مقابل خصم يُحسن التحرك في أرض المعركة المتعرّج.

٣ - عند وصوله إلى روذ الروذ، ركّز وحداته في حصون قديمة أعاد تحصينها على رؤوس الجبال، وحفر خنادق تصل مراكزه ببعضها البعض، وأقفل جميع المسالك إليها باستثناء مسلك واحد حصّنه وركّز عليه حامية قوية. وهكذا أقام جهاز حصار متكامل مؤمّناً حرية عمله وسلامة جنوده وأمنهم وسيطرتهم على ما جاور مراكزهم من الأرض.

٤ - عندما أرسل بابك فرقة للتحرش بوحدات الأفشين بقصد إخراجهم من تحصيناتهم لملاحقته؛ لم يقع هذا الأخير في الفخ المنصوب له. لكنه عاد ونصب كميناً لهذه الفرقة فقام بمطاردتها إلى خارج جهازه الدفاعي.

٥ - اعتمد طريقة قرع الطبول في إيصال الأوامر لقادته الذين تنتشر وحداتهم في أماكن متباعدة على رؤوس الجبال، فأمّن بذلك اتصاله الدائم معهم، وبالتالي تطبيق

مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل».

٦ - عند تقدُّم جيشه في أحد الوديان، اعتمد استراتيجية تركيز مفارز قتالية على رؤوس الجبال المشرفة على الوادي المعني منعاً لتعرُّض الجيش في انتقاله إلى مفاجآت. كما كان يعمد إلى اجتياز الوادي بالكراديس دون أن يزجّ كامل جيشه بداخله، مؤمناً بذلك مبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل».

٧ - اعتمد طريقة تحريك كراديسه يومياً نحو البذّ متخذاً جميع احتياطات الحماية، وذلك تهديداً للمدينة وإظهاراً للقوة. وخلال تراجعها عن المدينة، اعتمد طريقة استراتيجية ناجحة إذ كان كل كردوس يتراجع بحماية الكردوس الذي يليه.

٨ - عندما هاجم أحد كراديسه المدينة المحاصرة خلافاً لأوامره بعدم مهاجمتها، ورغم أنه كاد جنده أن يصعدون الأسوار، رفض إرسال المدد إليه، نظراً لأن أحد كمائن بابك كان يتحضّر لمهاجمة الكردوس المعني من الوراء. فتحديد زمان المعركة النهائية هو أمر منوط بالقائد العام الذي ينبغي ألاّ يُجرّ إليه إثر تصرّف أحد معاونيه غير المسؤول.

ونحن نرى أن انضباط الوحدات في القتال وتقيّدها بأوامر قيادتها العامة هو الذي يؤمّن لها النصر، لأن هذه القيادة تملك وحدها جميع المعطيات اللازمة لإدارة المعركة.

ح - أحسن الأفشين إدارة الهجوم العام على مدينة البذ، فتمكن من محاصرة جيش الخرمي، والانتصار النهائي في المعركة، وقتل جميع عناصر بابك، وإحراق قصورهم وبيوتهم.

وعندما فر بابك ولجأ إلى وادٍ كثير الشجر، حاصره وأرسل مفرزة في كل طريق تدخله، فتمكّن من أسره وأرسله إلى المعتصم الذي قتله.

ط - نقل المؤرخون أن ما دفع المعتصم إلى فتح عمورية هو صيحة أسيرة هاشمية: «وامعتصماه».

فحماية العِرض والعائلة هو أهم الدوافع إلى العمل العسكري.

جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» أن: «الدافع الأبرز والأعمق، الذي

يحرك الإنسان ويدفعه للتطوع في خدمة بلاده، هو واجب الدفاع عن العائلة والممتلكات والأرض ضد الاعتداءات الخارجية. ويتطوّر هذا الدافع ليشمل الأقرباء والذين يجمعهم مع المتطوع المصير نفسه والهدف والتطلعات والمستقبل. إنه التعلق بالحضارة والتراث والتقاليد والإنجازات، وبالوطن، أرض الأجداد».(١)

ونظراً للإساءة الكبيرة، اختار المعتصم أمنع المدن البيزنطية لمهاجمتها وفتحها وهي عمورية. ولتحقيق ذلك، اعتمد استراتيجية تعبئة القوى وحشدها وتزويدها بآلات ووسائل النقل والحصار تحقيقاً لمبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل». كما نظَّم جيشه في ميمنة وميسرة وقلب، وسار نحو المدينة المذكورة مؤمِّناً حماية وحيطة جيشه.

وخلال سير الاقتراب من هدفه اعتمد سياسة الأرض المحروقة بهدف دبّ الرعب في نفوس الروم وعدم ترك قوى معادية وراءه حماية لمؤخرات جيشه.

لوجستياً، طبّق المعتصم استراتيجية تموين الجيش من مناطق عدوه ومدنه التي مرّ بها، والتي صادر كل ما فيها، ثم أحرقها.

وبوصوله إلى عمورية، أحكم الطوق حولها وركّز رمايات منجنيقاته على مكان ضعيف من سورها كان قد كشفه له أحد جواسيسه.

ط - أحسن المعتصم إدارة المعركة حول عمورية فخطط ونفّذ ما يأتي:

١ - لما ألقى الجيش الإسلامي القبض على رسول من مناطس نائب عمورية إلى ملك الروم، استغلّ وضعه إذ اطّلع على الرسالة ودار بالرسول حول سور المدينة مظهراً أنه التحق بجيشه طوعاً، الأمر الذي حطّ من معنويات الحامية.

٢ - وعندما حال الخندق المحفور حول المدينة دون وصول جند المسلمين إلى أسوارها، عمل على ردم الخندق بجلود الذبائح المحشوة تراباً، محققاً بذلك حرية عمل جيشه أي «المبدأ الثاني للحرب».

(١) ريحانا، د. سامي، عميد ركن، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦، ص١٩.

٣ - ركّز رمايات منجنيقاته على الناحية الضعيفة من السور فهدمها وأمّن طريقاً إلى داخل المدينة محققاً بذلك مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل».

إن حسن إدارة المعتصم للمعركة وتطبيقه مبادئ الحرب وقواعد الفن العسكري مكّناه من فتح عمورية والاستيلاء عليها وإخضاعها لحكمه عليها.

ملحق رقم ٣
معلومات عن القائد طاهر بن الحسين

كتب ابن كثير:(١)

«وفي هذه السنة(٢) توفي طاهر بن الحسين بن مصعب تائب العراق وخراسان بكمالها، وُجد في فراشه ميتاً بعد ما صلّى العشاء الآخرة والتفّ في الفراش، فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمّه فوجداه ميتاً. فلما بلغ موته المأمون قال: لليدين وللفم الحمد لله الذي قدّمه وأخّرنا. وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع للمأمون فوق المنبر. ومع هذا ولّى ولده عبد الله مكانه وأضاف إليه زيادة على ما كان ولاّه أباه الجزيرة والشام نيابة فاستخلف عبد الله على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين، ثم توفي طلحة فاستقل عبد الله بجميع تلك البلاد. وكان نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وكان طاهر بن الحسين وهو الذي انتزع بغداد والعراق بكاملها من يد الأمين وقتله واستوثق الأمر للمأمون كما ذكرنا في سنة خمس وتسعين. وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له، ثم نظر إليه المأمون واغرورقت عيناه فقال له طاهر، ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فلم يخبره. فأعطى طاهر حسيناً الخادم مائتي ألف درهم حتى استعلم له مما بكى أمير المؤمنين فأخبره المأمون، وقال: لا تخبر أحداً وإلاّ أقتلك. إني ذكرت قتله لأخي وما ناله من الإهانة على يدي طاهر، ووالله لا تفوته مني. فلما تحقق طاهر

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٢) سنة ٢٠٧ هـ.

ذلك سعى في النقلة من بين يدي المأمون، ولم يزل حتى ولآه المأمون خراسان وأطلق لـه خـادمـاً مـن خـدامـه. وعـهـد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئاً يريبه أن يسمّه، ودفع إليه سمّاً لا يطاق. فلما خطب يوم الجمعة ولم يدع للمأمون سمّه الخادم في كامخ[1] فمات من ليلته. وقد كان طاهر هذا يقال له ذو اليمينين، وكان أعور بفرد عين.

واختلف في معنى ذو اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلاً بشماله فقدّه نصفين، وقيل لأنه ولّي العراق وخراسان. وقد كان كريماً ممدحاً يحب الشعراء ويعطيهم الجزيل، ركب يوماً في حرّاقة[2] فقال فيه شاعر:

عَجِبْتُ لِحَرَّاقَةِ ابْنِ الحُسَيْن
لا غَـرِقَـتْ كَـيْـفَ لا تَـغْـرَقُ
وَبَـحْـرَانِ مِـنْ فَـوْقِـهـا وَاحِـدٌ
وَآخَـرُ مِـنْ تَـحْـتِـهـا مُـطْـبِـقُ
وَأَعْـجَـبُ مِـنْ ذَلِـكَ أَعْـوَادُهـا
وَقَـدْ مَـسَّـهـا كَـيْـفَ لا تُـورِقُ

فأجازه بثلاثة آلاف دينار. وقال إن زدتنا زدناك. قال ابن خلكان: وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في بعض الرؤساء وقد ركب البحر:

وَلَمَّا امْتَطى البَحْرَ ابْتَهَلْت تَضَرُّعاً
إلَـى الـلـه يَـا مُجْري الرِّياحِ بِلُطْفِهِ
جَعَلْتَ النَّدا مِنْ كَفِّهِ مِثْلَ مَـوْجِه
فَـسَـلِّـمْـهُ وَاجْعَلْ مَوْجَهُ مِثْلَ كَفِّهِ

وقال القاضي ابن خلكان: مات طاهر ابن الحسين هذا يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين، وكان مولده سنة سبع وخمسين ومائة. وكان الذي سار إلى ولده عبد الله بن طاهر وهو بأرض الرقة يعزّيه في أبيه ويهنّيه بولاية تلك البلاد، القاضي يحيى بن أكثم عن أمر المأمون».

(١) الكامخ: وعاء توضع فيه المخللات التي تستعمل لتشهّي الطعام (كلمة فارسية).
(٢) حراقة: سفينة فيها مرامي يرمى منها العدو.

ملحق رقم ٤
سيرة الخليفة المعتصم

كتب ابن كثير:[١]

«هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي. يقال له المثمّن لأنه ثامن ولد العباس، وأنه ثامن الخلفاء من ذريته، ومنها أنه فتح ثمان فتوحات، ومنها أنه أقام في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وقيل ويومين. وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون سنة. ومنها أنه خلّف ثمانية بنين وثماني بنات، ومنها أنه دخل بغداد من الشام في مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون بطرسوس. قالوا: وكان أمياً لا يحسن الكتابة، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتّاب غلام فمات الغلام فقال له أبوه الرشيد: ما فعل غلامك؟ قال: مات فاستراح من الكتاب، فقال الرشيد: وقد بلغ منك كراهة الكتاب إلى أن تجعل الموت راحة منه؟ والله يا بني لا تذهب بعد اليوم إلى الكتّاب. فتركوه فكان أمياً، وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة. وقد أسند الخطيب البغدادي من طريقه عن آبائه حديثَيْن منكرَيْن أحدهما في ذم بني أمية ومدح بني العباس من الخلفاء. والثاني في النهي عن الحجامة يوم الخميس. وذكر بسنده عن المعتصم أن ملك الروم كتب

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص٣١٣-٣١٥.

إليه كتاباً يتهدده فيه فقال للكاتب اكتب: قد قرأت كتابك وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. قال الخطيب: غزا المعتصم بلاد الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، فأنكى نكاية عظيمة في العدو، وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً وسبى مثلهم، وكان في سبيه ستون بَطْريقاً. وطرح النار في عمورية في سائر نواحيها فأحرقها وجاء بنائبها إلى العراق وجاء ببابها أيضاً معه وهو باقٍ حتى الآن على أحد أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر. وروي عن أحمد ابن أبي داؤد القاضي أنه قال: ربما أخرج المعتصم ساعده إلي وقال لي: عض يا أبا عبد الله بكل ما تقدر عليه، فأقول إنه لا تطيب نفسي يا أمير المؤمنين أن أعض ساعدك، فيقول: إنه لا يضرني. فأكدم بكل ما أقدر عليه فلا يؤثر ذلك في يده. ومر يوماً في خلافة أخيه في مخيم الجند فإذا امرأة تقول: ابني ابني، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: ابني أخذه صاحب هذه الخيمة. فجاء إليه المعتصم فقال له: أطلق هذا الصبي، فامتنع عليه فقبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده، ثم أرسله فسقط ميتاً وأمر بإخراج الصبي إلى أمه. ولما ولي الخلافة كان شهماً وله همة عالية في الحرب ومهابة عظيمة في القلوب، وإنما كانت نهمته في الإنفاق في الحرب لا في البناء ولا في غيره.

وقال القاضي أحمد بن أبي داؤد: تصدق المعتصم على يدي ووهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم. وقال غيره: كان المعتصم إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل. وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: دخلت يوماً على المعتصم وعنده قينة له تغنيه فقال لي: كيف تراها؟ فقلت له: يا أمير المؤمنين أراها تقهره بحذق، وتجتله برفق، ولا تخرج من شيء إلاّ إلى أحسن منه، وفي صوتها قطع شذور، أحسن من نظم الدر على النحور. فقال: والله لصفتك لها أحسن منها ومن غنائها، ثم قال لابنه هارون الواثق ولي عهده من بعده: اسمع هذا الكلام. وقد استخدم المعتصم من الأتراك خلقاً عظيماً كان له من المماليك الترك قريب من عشرين ألفاً. وملك من آلات الحرب والدواب ما لم يتفق لغيره. ولما

حَضَرَتْه الوفاة جعل يقول: لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت. وقال: إني أحدث هذا الخلق، وجعل يقول: ذهبت الحيل فلا حيلة. وروي عنه أنه قال في مرض موته: اللهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي.

كانت وفاته في سُرّ من رأى في يوم الخميس ضحى لسبع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة - أعني سنة سبع وعشرين ومائتين - وكان مولده يوم الإثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة، وولي الخلافة في رجب سنة ثمان عشرة ومائتين. وكان المعتصم أبيض أصهب اللحية طويلها مربوعاً مشرب اللون، أمه أم ولد اسمها ماردة، وهو أحد أولاد ستة من أولاد الرشيد، كل منهم اسمه محمد، وهم أبو إسحاق محمد المعتصم، وأبو العباس محمد الأمين، وأبو عيسى، وأبو أحمد، وأبو يعقوب، وأبو أيوب».

الفصل الثامن
العمليات العسكرية حتى نهاية العصر العباسي الأول

بعد وفاة المعتصم بويع ابنه هارون بن محمد بن هارون ولقب «الواثق بالله»، وذلك في اليوم الذي كانت فيه وفاة المعتصم من السنة السابعة والعشرين والمائتين للهجرة.(١)

وبويع وهو ابن إحدى وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وتكنّى بأبي جعفر. واتخذ وزيراً له محمداً بن عبد الملك.

وكان الواثق كثير الأكل والشرب، واسع المعرفة، متفقداً لرعيته، وعادلاً. وفي عهده سيطر الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبي داؤد، فكان لا يصدر أمراً إلاّ بعد أخذ رأيهما.

ومع تسلمه الخلافة، ثار أهل دمشق بأميرهم وحاصروه وعسكروا في مرج راهط. وكان رجاء بن أيوب بالرملة في قتال المبرقع، فرجع إليهم بأمر الخليفة الواثق فقاتلهم وهزمهم وأثخن فيهم وقتل منهم نحواً من ألف وخمسمائة، وقتل من جنده ثلاثمائة.(٢)

١ - غزوات المسلمين في جزيرة صقلية:

في السنة الثامنة والعشرين والمائتين سار الفضل بن جعفر الهمداني في أسطول بحري ونزل في مرسى مسينا وأرسل سراياه فغنموا غنائم كثيرة. واستأمن أهل بابل الذين انضموا إليه.

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص٧٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٧٣.

وقاتل الفضل طوال سنتين فاشتد القتال عليه فلم يستطع احتلال إحدى مدن الجزيرة المهمة،[1] فأرسل فرقة من جنده استدارت خلف جبل مطل على المدينة، فصعدت الفرقة الجبل وهاجمت المدينة من الناحية المقابلة للجهة التي هاجمها منها جيش الفضل.

وفيما كان أهل المدينة منصرفين إلى جند الفضل، هاجمهم المسلمون من الوراء ودخلوا المدينة التي انهزمت حاميتها وافتتحها المسلمون.[2]

وفي السنة نفسها فتحت أيضاً مدينة مسكان.

وفي السنة التالية تقدم أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية داخل صقلية فبلغ مدينة «شرة» حيث جرى قتال شديد مع حاميتها وسكانها من الروم الذين انهزموا وقتل منهم، وفق ابن الأثير، ما يزيد على عشرة آلاف رجل، فيما استشهد من المسلمين ثلاثة رجال.[3]

وفي السنة اثنتين وثلاثين ومائتين حاصر الفضل بن جعفر مدينة مسينا في صقلية، حصاراً نقل تفاصيله، وصولاً إلى تسليم المدينة سلماً، ابن الأثير الذي كتب:[4]

«وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة مَسِّيني فأخبر الفضل أن أهل مسّيني كاتبوا البطريق الذي في صقلية لينصرهم فأجابهم وقال لهم: إن العلامة عند وصولي أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني فإذا رأيتم ذلك ففي اليوم الرابع أصل إليكم فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة. فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال. فلما رأى أهل مسينا النار أخذوا في أمرهم وأعد الفضل ما ينبغي أن يستعد به وكمن الكمناء وأمر الذين يحاصرون المدينة أن

---

(١) لم يذكر ابن الأثير اسم المدينة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٧٥.

(٣) المرجع نفسه.

ملاحظة: ينبغي أخذ الأرقام التي جاء بها مؤرخو العرب بتحفظ نظراً لميلهم إلى تضخيم خسائر الأعداء وتقليل خسائر المسلمين.

(٤) المرجع نفسه، ص٧٥-٧٦.

ينهزموا إلى جهة الكمين فإذا خرج أهلها قاتلوهم فإذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم. فلما كان اليوم الرابع خرج أهل مسينا وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق فانهزم المسلمون واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ولم يبق بالبلد أحد إلاّ خرج. فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين من خلفهم ووضعوا فيها السيف فلم ينْجُ منهم إلاّ القليل. فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة فأجابهم المسلمون إلى ذلك وأمّنوهم فسلّموا المدينة».

وفي السنة أربع وثلاثين ومائتين صالح أهل «رغوس» المسلمين وسلموا مدينتهم إليهم، فأخذ المسلمون منها ما أمكن حمله قبل أن يهدموها.

وفي السنة خمس وثلاثين ومائتين، هاجمت فرقة من المسلمين مدينة قَصريانة(1)، فغنموا غنائم كثيرة وأحرقوا المدينة وقتلوا قسماً من أهلها.

وكان الأمير على صقلية للمسلمين محمد بن عبد الله بن الأغلب الذي كان مقيماً في مدينة بالرم(2). وكان يرسل الجيوش والسرايا منها إلى أرجاء الجزيرة فتفتح المدن والحصون وتغنم وتعود إليه.(3)

٢ - إخضاع قبائل الحجاز:

في السنة الثلاثين والمائتين، وجه الواثق قائده «بُغا الكبير» إلى الحجاز، حيث أعاد إخضاع قبيلتي سُليم وهلال اللتين كانتا تعيثان فساداً في المنطقة.

وسبب ذلك أن بني سُليم كانوا قد فسدوا بنواحي المدينة وتسلطوا على أموال الناس وأوقعوا بجماعة من قبيلتي كنانة وباهلة. كما استحوذوا على ما بين المدينة ومكة من القرى والمفاصل، فبعث عامل المدينة لقتالهم محمداً بن صالح.

(١) قصريانة: مدينة كبيرة في جزيرة صقلية على سفح جبل يشتمل سورها على زرع وبساتين وعيون كثيرة.
(٢) بالرم: أكبر مدن صقلية، وسورها شاهق ومنيع ومبني من حجر.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٧٦.

نقل الطبري رواية عن قتال محمد بن صالح لبني سُليم وانتصار هؤلاء عليه، فكتب:[(١)]

«ذكر أن بدء ذلك كان أن بني سُليم كانت تطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاءوا. ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالحجاز بناس من بني كنانة وباهلة، فأصابوهم وقتلوا بعضهم، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين، وكان رأسهم عُزيزة بن قطّاب السُّلَميّ. فوجّه إليهم محمد بن صالح بن العباس الهاشميّ؛ وهو يومئذ عامل المدينة؛ مدينة الرسول ﷺ حمادَ بن جرير الطبريّ - وكان الواثق وجّه حماداً مسلحةً للمدينة لئلا يتطرّقها الأعراب، في مائتي فارس من الشاكرية - فتوجه إليهم حمّاد في جماعة من الجند ومَن تطوّع للخروج من قريش والأنصار ومواليهم وغيرهم من أهل المدينة؛ فسار إليهم فلقيتْه طلائعهم. وكانت بنو سليم كارهة للقتال، فأمر حماد بن جرير بقتالهم، وحمل عليهم بموضع يقال له الرّوَيْثة[(٢)] من المدينة على ثلاث مراحل. وكانت بنو سليم يومئذ وأمدادها جاؤوا من البادية في ستمائة وخمسين، وعامة مَن لقيَهم من بني عَوْف من بني سليم، ومعهم أشهب بن دُوَيكل بن يحيى بن حِمْيَر العوفيّ وعمه سلَمة بن يحيى وعُزيزة بن قطّاب اللَّبيدي من بني لبيد بن سُليم، فكان هؤلاء قوّادهم، وكانت خيلهم مائة وخمسين فرساً. فقاتلهم حماد وأصحابه. ثم أتت بني سليم أمدادها خمسمائة من موضع فيه بَدْوهم؛ وهو موضع يسمّى أعلى الرويثة، بينها وبين موضع القتال أربعة أميال. فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت سودان المدينة بالناس؛ وثبت حمّاد وأصحابه وقريش الأنصار، فصلوا بالقتال حتى قُتل حمّاد وعامة أصحابه؛ وقُتل مِمَن ثبت من قريش والأنصار عدد صالح، وحازت بنو سليم الكُراع والسلاح والثياب. وغلُظ أمر بني سُليم، فاستباحت القرى والمناهل؛ فيما بينها وبين مكة والمدينة؛ حتى لم يمكن أحداً

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٧٨.

(٢) الرويثة: ماء لبني عجل بين طريق الكوفة والبصرة لجهة مكة.

أن يسلك ذلك الطريق؛ وتطرّقوا مَن يليهم من قبائل العرب».

عندما بلغ خطر بني سليم هذا المبلغ قرر الواثق محاربتهم وإعادة إخضاعهم، فأرسل القائد «بغا الكبير» الذي أخضعهم، كما أخضع بني هلال وبني مرة وغفار ومزارة وأشجع وثعلبة وكلاب ونُمير في اليمامة.

نقل ابن خلدون أخبار حملة «بغا الكبير» على الحجاز حيث أخضع القبائل المذكورة أعلاه، فكتب: (١)

«فبعث الواثق «بغا الكبير»، وقدم المدينة في شعبان فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم خمسين رجلاً وأسر مثلها. واستأمنوا له على حكم الواثق، فقبض على ألف منهم ممن يعرف بالفساد فحبسهم بالمدينة وذلك سنة ثلاثين. ثم حج وسار إلى ذات عِرْق وعرض على بني هلال مثل بني سُليم فأخذ من المفسدين منهم نحو ثلاثمائة رجل وحبسهم بالمدينة وأطلق الباقين.

ثم خرج بغا إلى بني مُرَّة فنقب أولئك الأسرى الحبس وقتلوا الموكلين فاجتمع عليهم أهل المدينة ليلاً ومنعوهم من الخروج فقاتلوهم إلى الصبح ثم قتلوهم. وشق ذلك على بغا. وكان سبب غيبته أن فزارة وبني مرّة تغلبوا على فَدَك فخرج إليهم وقدّم رجلاً من قوّاده يعرض عليهم الأمان، فهربوا من سطوته إلى الشام واتبعهم إلى تخوم الحجاز من الشام، وأقام أربعين ليلة ثم رجع إلى المدينة بمن ظفر منهم.

وجاءه قوم من بطون غِفار وفزارة وأشجع وثعْلَبة فاستخلفهم على الطاعة. ثم سار إلى بني كلاب فأتوه في ثلاثة آلاف رجل، فحبس أهل الفساد منهم ألفاً بالمدينة وأطلق الباقين. وأمره الواثق سنة اثنين وثلاثين بالمسير إلى بني نُمَيْر باليمامة وما قرب منها لقطع فسادهم، فسار إليهم ولقي جماعة الشريف منهم فحاربهم وقتل منهم خمسين وأسر أربعين. ثم سار إلى مرّة وبعث إليهم في الطاعة فامتنعوا وساروا إلى جبال السند وطف اليمامة، وبعث سراياهم فأوقع بهم في كل ناحية. ثم سار إليهم في ألف رجل فلقيهم قريباً من أضاخ فكشفوا مقدمته وميسرته وأثخنوا في عسكره بالقتل والنهب.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٥٧٤-٥٧٦.

ثم ساروا تحت الليل وهو في أتباعهم يدعوهم إلى الطاعة، وبعث طائفة من جنده يدعون بعضهم وأصبح وهو في قلة، فحملوا عليه وهزموه إلى معسكره. وإذا بالطائفة الذين بعثهم قد جاؤوا من وجهتهم، فلما رآهم بنو نُمَير من خلفهم ولوا منهزمين وأسلموا رجالهم وأموالهم ونجوا على خيلهم ولم يفلت من رجالتهم أحد. وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وأقام بمكان الوقعة واستأمن له أمراؤهم فقيّدهم وحبسهم بالبصرة. وقدم عليه واجن الأشروسني في سبعمائة مقاتل مدداً، فبعثه إلى أتباعهم إلى أن بلغ تَبالَة من أعمال اليمن ورجع. وسار بغا إلى بغداد بمن معه منهم وكانوا نحو ألفي رجل ومائتي رجل، وكتب إلى صالح أمير المدينة أن يوافيه في بغداد من عنده منهم فجاء بهم وسلموا جميعاً».

٣ - تبادل الأسرى مع الروم:

في السنة الحادية والثلاثين والمائتين جرت عملية تبادل الأسرى بين المسلمين والروم. وكان الخليفة الواثق قد عقد لأحمد ابن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم وأمره بحضور تبادل الأسرى مع الروم.(١)

وجاء الروم بأسراهم والمسلمون بأسراهم، والتقوا على نهر اللامس.(٢)

وكان ذلك بطلب من الإمبراطور ميخائيل بن تيوفيل الذي أرسل رسلاً إلى الخليفة الواثق يسأله أن يفادى بمن في يده من أسرى المسلمين، فوجه الواثق خاقاناً ومن معه للتبادل.

وذهب خاقان إلى بلاد الروم وأتى ملكهم وعرف عدد الأسرى المسلمين قبل الفداء، فأمر الواثق بافتدائهم.

وصف ابن الأثير عملية تبادل الأسرى، فكتب:(٣)

«فلما كان في عاشوراء سنة إحدى وثلاثين اجتمع المسلمون ومن معهم من

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٧٧.
(٢) نهر اللامس: على سلوقية قريباً من البحر.
(٣) ابن الأثير، مرجع اسبق، جزء ٦، ص ٨٨.

الأسرى على النهر وأتت الروم ومن معهم من الأسرى وكان النهر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر ويأتي كل أصحابه. فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبّروا وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا حتى فرغوا. وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً والنساء والصبيان ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة نفس، وكان النهر مخاضة تعبره الأسرى، وقيل: بل كان عليه جسر».

أما الطبري فقد نقل عن السندي مولى حسين الخادم أنه قال:[1]

«عقد المسلمون جسراً على النهر وعقد الروم جسراً، فكنا نرسل الرومي على جسرنا، ويرسل الروم المسلم على جسرهم، فيصير هذا إلينا وذاك إليهم».

وكان الفداء في أربعة أيام.

٤ - عمليات أخرى:

وجرت في عهد الواثق عمليات أخرى كانت محصورة نذكرها في ما يأتي:[2]

- في السنة التاسعة والعشرين والمائتين سجن الواثق الكتّاب وألزمهم دفع أموال كثيرة. وسبب ذلك أنه أُخبر عن نكبة البرامكة من قِبَل جده هارون الرشيد وعن أسبابها، فأراد التشبّه به.

- في السنة الحادية والثلاثين والمائتين خرج محمد بن عبد الله الخارجي التغلبي في ثلاثة عشر رجلاً في ديار ربيعة، فخرج إليه غانم بن أبي مسلم بن أحمد الطولي فقتل من الخوارج أربعة وأسر محمد بن عبد الله وأرسله إلى سامراء.

- وفي السنة نفسها قدم وصيف التركي من ناحية أصفهان والجبال وفارس في خمسمائة نفس، وذلك في طلب الأكراد لأنهم كانوا قد أفسدوا في تلك النواحي. وقد انتصر على الثائرين وحبسهم فأجيز بخمسة وسبعين ألف دينار.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٨٦.

(٢) عن ابن الأثير والطبري وابن كثير وابن خلدون.

- وفي السنة نفسها غزا أحمد بن سعيد ابن سلم الباهلي شاتياً، فأصاب الناس ثلج ومطر فمات منهم مائتا نفس وأُسر نحوهم وغرق بنهر البدندون خلق كثير. ورغم ذلك غزا أحمد بلاد الروم فغنم نحواً من ألف بقرة وعشرة آلاف شاةٍ.

٥ - وفاة الخليفة الواثق:

في السنة الثانية والثلاثين والمائتين توفي الخليفة الواثق بالله أبو جعفر بن محمد المعتصم في ذي الحجة، وكانت علته الاستسقاء. وقيل إنه لما حضرته الوفاة جعل يردد هذين البيتين:[١]

«الموتُ فيه جميعُ الناس مشتركُ
لا سوقَة منهم تبقى ولا مَلِكُ
ما ضرَّ أهلَ قليلٍ في تَفا قُرِهِمْ
وليسَ يُغني عَنِ الأملاكِ ما مَلَكوا»

ولما توفي صلّى عليه أخوه المتوكل ودفن بالهاروني[٢] بطريق مكة؛ وكان عمره حينذاك اثنتين وثلاثين سنة.

وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام.

وبويع بالخلافة بعده أخوه المتوكل على الله جعفر بن المعتصم فانتقلت الخلافة العباسية من عصرها الأول إلى عصرها الثاني.

٦ - الدروس والعِبَر والنتائج:

أ - بعد أن سيطر الأسطول الإسلامي على شرق البحر المتوسط، اعتمد القادة العرب استراتيجية غزو جزره بحراً، فقام الفضل بن جعفر بغزو جزيرة قبرص عام ١٢٨ هـ.

وعندما لم يتمكن من فتح إحدى مدن الجزيرة بهجوم جبهي، عمد إلى استراتيجية مفاجأة العدو من الوراء إذ سيّر فرقة من جيشه في مسلك جبلي صعب العبور وهاجمها من الخلف فتمكن من فتحها.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٢٩.
(٢) الهاروني: قصر.

لذلك نعود للتأكيد على أن «الأرض هي حليفة الجيش الذي يحسن استعمالها واستغلالها».

ب - وخلال محاصرته مسينا وصمودها في وجهه، تمكّن الفضل من اكتشاف رسالة من بطريق صقلية إلى أهلها تعلن عن وصول جيش لنجدتها بعد إيقاد نيران طيلة أيام ثلاثة على أحد الجبال كإشارة لأهلها.

أحسن الفضل استغلال هذا السرّ، فأمر مفرزة من جيشه بإيقاد النيران، وأعد الكمائن لمفاجأة أهل المدينة لدى خروجهم منها لملاقاة جيش البطريق الذي يفترض أن يهاجم المسلمين من الوراء. وقد وقع أهل المدينة في الفخ فتمكن من فتحها.

وهنا نؤكد على أهمية الاستعلام عن العدو وضرورة وضع معلومات أجهزة الاستخبارات العسكرية عنه بتصرف القيادات العملانية، وعدم إهمال أي أخبار أو إشارات، بل تحليلها ومقاطعتها مع غيرها، واستغلالها لمصلحة الجهد العملاني العام.

ج - نلاحظ أن الخلافة العباسية كانت، خلال المرحلة التي يعالجها هذا الجزء من الموسوعة، مضطرة للقتال على جبهات عدة، وهي:

- جبهة آسيا الصغرى ضد الإمبراطورية البيزنطية.
- جهة جزر البحر المتوسط.
- جبهة شمال أفريقيا ضد قبائل البربر.
- الجبهة الشرقية أي ما وراء النهر.
- الجبهة الداخلية ضد الثائرين على السلطة المركزية.

ورغم صعوبة الحرب على جبهات عدة، فإن الخلافة العباسية كانت، خلال نهاية العصر العباسي الأول، ما تزال منيعة الجانب وقوية وتملك آلة عسكرية فاعلة. لذلك تمكنت من تحقيق الانتصارات على مختلف الجبهات التي ذكرت، ولا سيما على الجبهة الداخلية إذ إنها أخضعت جميع الخارجين عن سلطتها، ومنهم قبيلة بني سليم التي ذكرنا العمليات ضدها في هذا الفصل الأخير.

إن انتصارات الجيوش العباسية خلال هذه المرحلة تؤكد أن العصر العباسي الأول كان عصر القوة والفتوحات.

لقد سجل التاريخ العسكري أمثلة عديدة عن جيوش خاضت الحرب على أكثر من جبهة، فأدى بها ذلك إلى هزيمة كبرى. فعندما تضطر القيادة العسكرية إلى الحرب على جبهات عدة، عليها اعتماد استراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية» كي لا تضطر إلى نشر جيوش على مساحات واسعة فتطول خطوط تموينها وتصعب قيادتها.

وتقضي المناورة بالخطوط الداخلية تنفيذ العمليات كالآتي:

- اختيار الخصم الأقوى وتوجيه الجهد الرئيسي نحوه.
- تثبيت الأخصام الباقين بأقل عدد ممكن من القوى بهدف منعهم من حسم المعركة لمصلحتهم.
- مهاجمة الخصم الأقوى بقوة وعنف لوضع جيشه خارج القتال.
- العودة لمهاجمة باقي الأخصام تباعاً، وابتداءً من الأقوى إلى الأضعف.

ملحق رقم ٥
سيرة القائد عبدالله بن طاهر[1]

هو عبد الله ابن القائد طاهر بن الحسين. توفي في نيسابور في ربيع الأول السنة ٢٣٠هـ، وكان أمير خراسان وإليه الحرب والشرطة والسواد والري وطبرستان وكرمان وخراسان وما يتصل بها. وكان خراج هذه الأعمال ثمانية وأربعون مليون درهم. وكان عمره يوم وفاته ثمانياً وأربعين سنة.

ومن أخباره نذكر أنه لما ولي خراسان استناب في نيسابور محمد بن حميد الطاهري فبنى داراً وخرج بحائطها في الطريق. فلما قدمها عبد الله جمع الناس وسألهم عن سيرة محمد فسكتوا، فقال بعض الحاضرين: سكوتهم يدل على عمل سوء سيرته، فعزله عنهم وأمره بهدم ما بنى في الطريق. وكان يقول: ينبغي أن يبذل العلم لأهله وغير أهله فإن العلم أمنع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله. وكان يقول: سمن الكيس ونبل الذِكر لا يجتمعان أبداً. وكان له جلساء منهم الفضل بن محمد بن منصور فاستحضرهم يوماً فحضروا وتأخر الفضل ثم حضر فقال له: أبطأت عني، فقال: كان عندي أصحاب حوائج وأردت دخول الحمام فأمره عبد الله بدخول حمامه. وأحضر عبد الله الرقاع التي في حقه فوقع فيها كلها بالإجابة وأعادها ولم يعلم الفضل وخرج من الحمام، واشتغلوا يومهم. وبكّر أصحاب الرقاع إليه فاعتذر إليهم فقال بعضهم: أريد رقعتي فأخرجها ونظر فيها فرأى خط عبد الله فيها فنظر في الجميع فرأى خطه فيها، فقال

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٢١-٣٢٢.
ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص٨٢-٨٣.

لأصحابه: خذوا رقاعكم فقد قُضيت حاجاتكم واشكروا الأمير دوني فما كان لي فيها سبب. وكان عبد الله أديباً شاعراً.

وكان أكثر الناس بذلاً للمال. وأكثر الشعراء في مراثيه عند وفاته.

كتب ابن كثير عن عبد الله بن طاهر ما يأتي:[1]

«ولما ولاه المأمون نيابة الشام ومصر صار إليها وقد رسم له بما في ديار مصر من الحواصل، فحمل إليه وهو في أثناء الطريق ثلاثة آلاف ألف دينار، ففرقها كلها في مجلس واحد. وأنه لما واجه مصر نظر إليها فاحتقرها وقال: قبّح الله فرعون، ما كان أخسه وأضعف همته حين تبجَج وتعاظم بملك هذه القرية، وقال: أنا ربكم الأعلى. وقال: أليس لي ملك مصر. فكيف لو رأى بغداد وغيرها».

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص٣٢٢.

ملحق رقم ٦

لائحة الصوائف إلى بلاد الروم(١)

والقتال معهم (في العصر العباسي)

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
١٣٢-١٣٧	-	لم يكن فيها صوائف للانشغال بالثورة العباسية وما تلاها.
١٣٨	العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس	دخل ملطية عنوة وغلب أهلها وهدم سورها.
١٣٩	صالح بن علي والعباس بن محمد	توغلا في أرض الروم
١٤٠	عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام والحسن بن قحطبة	سارا في سبعين ألفاً من المقاتلة إلى ملطية فنزلاها وعمّرا ما كان خربه الروم منها وأسكناها أربعة آلاف من الجند.
١٤٦	جعفر بن حنظلة البهراني	-
١٤٩	العباس بن محمد والحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث	- - -
١٥١	عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام	-
١٥٢	عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام	-
١٥٣	معيوف بن يحيى الحجوري	وصل إلى حصن من حصون الروم وأهله نيام، فسبى وأسر. ثم قصد اللاذقية الخراب فسبى منها ستة آلاف.

(١) عن ابن الأثير، مرجع سابق، الأجزاء ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠.

السنة هـ	القائـــد	الإنجازات العسكريـة
١٥٤	زفر بن عاصم الهلالي	
١٥٨	معيوف بن يحيى	اقتتل مع العدو.
١٥٩	العباس بن محمد	بلغ أنقرة وفتح مدينة للروم.
١٦١	ثمامة بن الوليد	نزل بدابق وجاشت الروم مع ميخائيل في ثمانين ألفاً فأتى عمق مرعش فقتل وسبى وغنم. وأتى مرعش فحاصرها وقتل من الروم عدداً كبيراً.
١٦٢	الحسن بن قحطبة في ثمانين ألف مرتزق سوى المقطوعة	بلغ حمّة أذرولية وخرب في بلاد الروم ولم يفتح أي حصن.
١٦٤	عبد الكبير بن عبد الحميد	لاقاه ميخائيل البطريق في تسعين ألفاً، فعاد من دون قتال.
١٦٥	هارون الرشيد ابن الخليفة المهدي في خمسة وتسعين ألفاً	أوغل في بلاد الروم فلاقى الروم وهزمهم. بلغ الرشيد خليج القسطنطينية.
١٦٨	يزيد بن البطال	فيها نقض الروم الصلح. حارب الروم وظفر بهم وغنم الكثير.
١٦٩	معيوف بن يحيى	غزا درب الراهب. دخل إلى الحديثة (في الطبري: الحدث).
١٧٠	سليمان بن عبد الله البكائي وقيل إن الرشيد غزا الصائفة	–
١٧٢	إسحاق بن سليمان بن علي	–
١٧٥	عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح	بلغ أقريطية. أصابهم برد شديد سقط منه كثير من الجنود.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
١٧٨	معاوية بن زفر بن عاصم (الصائفة)	غزا الشاتية سليمان بن راشد.
١٨٠	محمد بن معاوية بن زفرة بن خازم	–
١٨١	غزا الرشيد أرض الروم غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم	افتتح حصن الصفصاف. بلغ أنقرة وافتتح مطمورة.
١٨٢	عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح	بلغ أفسوس (مدينة أصحاب الكهف).
١٨٧	القاسم بن الرشيد	دخل أرض الروم فأناخ على قرّة وحاصرها. وجه العباس بن جعفر فحاصر حصن سنان ثم رحل عنه صلحاً.
١٨٨	إبراهيم بن جبرائيل	دخل أرض الروم من درب الصفصاف فخرج إليه نقفور ملك الروم فاقتتلا وقتل من الروم ٤٠٧٠٠ شخص.
١٩٠	غزا الرشيد الصائفة	–
١٩١	هرثمة بن أعين	بنى طرسوس وسير إليها جنداً من أهل خراسان (٣٠٠٠) ثم أرسل ألفاً من المصيصة وألفاً من أنطاكية.
٢١٥	غزو المأمون بلاد الروم	سار على طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم إلى دابق فإنطاكية فالمصيصة وطرصوس. افتتح حصن قرّة وهدمه. افتتح حصون ماجدة وسندس وسناذ.
٢١٦	عاد المامون إلى بلاد الروم	كان ملك الروم قد قتل ١٦٠٠ من أهل طرصوس والمصيصة. فتح هرقلة. وجّه أخاه المعتصم فافتتح ٣٠ حصناً ومطمورة.

السنة هـ	القائـــد	الإنجازات العسكرية
٢١٧	عاد المأمون إلى بلاد الروم	فتح عجيف.
٢٢٣	سار المعتصم إلى بلاد الروم بعد أن قام ملك الروم بهجوم عام ونادت امرأة هاشمية: «وامعتصماه»	فتح عمورية.
٢٣١	أحمد بن سعيد بن سلم الباهلي	غزا شاتياً.
٢٣٧	علي بن يحيى الأرمني	-
٢٤٢	-	سار علي بن يحيى الأرمني إلى بلاد الروم شاتياً.
٢٤٥	علي بن يحيى الأرمني	بعد أن أغارت الروم على سميساط وقتلوا وسبوا خلقاً كثيراً، قام بالردّ على غارتهم.
٢٤٦	عمرو بن عبد الله	غزا الأقطع فأخرج سبعة عشر ألف رأس. وغزا قريباس وأخرج خمسة آلاف رأس.
	الفضل بن قارن	افتتح حصن إنطاكية.
	بلكاجور	غنم وسبى كثيرين.
	علي بن يحيى الأرمني	أخرج خمسة آلاف رأس.
٢٤٨	وصيفاً التركي	غزا في اثني عشر ألف رجل. افتتح حصن فرورية.
٢٤٩	جعفر بن دينار	افتتح حصناً ومطامير.
٢٥١	بلكاجور	فتح مطمورة وغنم غنائم كثيرة وأسر جماعة من الروم.
٢٦٦	سيما خليفة أحمد بن طولون على الثغور الشامية	غزا بلاد الروم فلاقاه أهل هرقلة في أربعة آلاف فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل عدد كبير من الطرفين.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٢٦٨	الفرغاني	غزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً.
٢٧٢	بازمار	-
٢٧٤	بازمار	أوغل في أرض الروم فأوقع بكثير من أهلها وقتل وغنم وسبى وأسر وعاد سالماً إلى طرسوس.
٢٧٩	بازمار أحمد العجيفي	بلغا شكند. توفي بازمار خلال الصائفة.
٢٨١	طفج بن خف	غزا الصائفة من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون فبلغ طرابزون وفتح ملورية. غزا المسلمون أيضاً الروم فدامت الحرب ١٢ يوماً وانتصر فيها المسلمون.
٢٨٥	راغب مولى الموفق	غزا بالبحر فغنم مراكب كثيرة فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب وفتح حصوناً كثيرة.
٢٨٨	نزار محمد	فتح حصوناً كثيرة وعاد ومعه الأسرى.
٢٨٨	غلام زرافة	فتح مدينة إنطاكية عنوة فقتل خمسة آلاف رجل وأسر مثلهم واستنقذ من الأسرى خمسة آلاف. واستولى على ستين مركباً حمل فيها كل ما غنم من الأموال والمتاع والرقيق. قدر نصيب كل رجل بألف دينار.
٢٩٤	ابن كيغلغ	غزا الروم من طرصوس فأصاب منهم أربعة آلاف سبي. ثم غزا مرة أخرى فبلغ شكند فقتل الكثير من الروم.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٢٩٧	القاسم بن سيما	-
٢٩٨	القاسم بن سيما	-
٢٩٩	رستم أمير الثغور	غزا الصائفة من ناحية طرصوس[١] فحصر حصن مليح الأرمني، ثم دخل بلده وأحرقه.
٣٠٢	بشر الخادم والي طرصوس	غزا بلاد الروم ففتح فيها وغنم وسبى وأسر مائة وخمسين بطريقاً، وكان السبي نحواً من ألفي رأس.
٣٠٤	مؤنس المظفر	سار إلى ملطية وغزا فيها، وفتح حصوناً كثيرة للروم.
٣٠٥	جني الصفواني	غنم ونهب وسبى.
٣٠٦	بشر الأفشيني	افتتح حصوناً عدة وغنم وسلم.
٣١٠	محمد بن نصر الحاجب	غزا قاليقلا. دخل أهل طرصوس ملطية فظفروا.
٣١١	مؤنس المظفر ثمال	فتح حصوناً عدة. غزا بحراً فغنم ٢٠٠ ألف رأس والكثير من الذهب والفضة.
٣١٤	أهل طرطوس	غزوا صائفة فغنموا وعادوا.
٣١٥	ثمال	غزا بلاد الروم وغنم غنائم كثيرة.
٣١٧	-	ضعفت الثغور عن مقاومة الروم لا سيما ملطية وميافارقين وآمد وأرزن فطلبوا من الخليفة المقتدر بالله نصرتهم، لكنه عجز عن ذلك.
٣١٧	مفلح الساجي	التقى في قتال مع الدمستق الذي هُزم ودخل مفلح وراءه إلى بلاد الروم.

(١) طرطوس: يكتبها بعض المؤرخين طرسوس.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٣٢٦	كان تبادل الأسرى بين المسلمين والروم فأطلق سراح ٦٣٠٠ من المسلمين.	-
٣٣٠	الثملي	دخل بلاد الروم من ناحية طرصوس فقتل وسبى وغنم وأسر بضعة من بطارقتهم المشهورين.
٣٣٧	الأمير سيف الدولة الحمداني	سار إلى بلاد الروم واقتتل معهم فانهزم وأخذ الروم مرعشاً وأوقعوا بأهل طرصوس.
٣٣٩	سيف الدولة	غزا بلاد الروم فأوغل فيها وفتح حصوناً كثيرة وسبى وغنم. ولما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه المضائق فهلك من كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً - واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجاسيف الدولة في عدد يسير.
٣٤٥	سيف الدولة	سار في جيوش إلى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة وفتح حصوناً عديدة وسبى وأسر وأحرق وخرّب وأكثر القتل فيهم. ورجع إلى اذنة وأقام فيها حتى جاءه رئيس طرصوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً وعاد إلى حلب. رد الروم بمهاجمة ميافارقين وإحراقها. كما سار الروم في البحر فأوقعوا بأهل طرصوس وقتلوا منهم ١٨٠٠ رجل وأحرقوا القرى التي حولها.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٣٤٨	-	غزت الروم طرطوس والرها فقتلوا وسبوا وغنموا.
٣٥٠	نجا (غلام سيف الدولة)	دخل بلاد الروم غازياً من ناحية ميافارقين فغنم وسبى وأسر وعاد سالماً.
٣٥١	-	استيلاء الروم على مدينة حلب ثم عودتهم عنها. (لكنهم لم يستولوا على القلعة). كما فتح الروم حصن دلوك وثلاثة حصون مجاورة.
	سيف الدولة	سيّر حاجبه في جيش إلى بلاد الروم مع أهل طرطوس، فغنم وعاد سالماً.
شوال ٣٥١		سار نجا غلام سيف الدولة في جيش إلى حصن زياد حيث هزم الروم.
		أسر الروم الشاعر أبا فراس الحمداني من منبج.
		سار الروم في أسطول إلى جزيرة اقريطش فردهم المسلمون عنها.
٣٥٢	أهل طرصوس نجا (غلام سيف الدولة)	دخلوا بلاد الروم غازين فوصلوا قونية وعادوا.
٣٥٤	-	فتح الروم المصيصة وطرطوس.
٣٥٥	-	خرج الروم وقصدوا مدينة آمد وحاصروها وقاتلوا أهلها فقتلوا منهم ٣٠٠ وأسروا ٤٠٠ من دون أن يتمكنوا من فتحها. ثم قصدوا إنطاكية وقاتلوا أهلها فلم يتمكنوا من فتحها.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٣٥٧	-	وصلت قوة كبيرة من الروم إلى إنطاكية، فقتلوا وغنموا وسبوا ١٢ ألفاً من المسلمين.
٣٥٨	-	دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد، فسار إلى طرابلس وأحرق بلدها وحاصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها. وقصد حمص، وكان أهلها قد أخلوها، فأحرقها ورجع إلى بلاد الساحل فنهبها وخربها. أقام شهرين في بلاد الشام يخرب حيث يشاء.
٣٥٩	-	ملك الروم مدينة إنطاكية، وأنفذ ملكهم جيشاً إلى حلب. وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة يحاصر فيها قرعويه فانسحب عنها، فملك الروم المدينة وحاصروا القلعة ووقعوا هدنة مع قرعويه. وأرسل ملك الروم جيشاً إلى ملاذكرت من أعمال أرمينيا فحاصرها وملكها عنوة.
٣٦١	-	أغار الروم على الرها ونواحيها وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين وغنموا وسبوا واحرقوا وخربوا البلاد.
٣٦٢	هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان	كانت وقعة بينه وبين الدمستق بناحية ميافارقين بسبب غزو هذا الأخير ديار ربيعة وبكر. انتصر المسلمون وأسر الدمستق وتوفي في الأسر.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٣٨٢	-	نزل ملك الروم في أرمينيا وحاصر خلاط وملاذكرت وأرجيش.
٤١٦	-	خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلّورية المجاورة لصقلية. وشرعوا ببناء المساكن بانتظار وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت ملكهم. بلغ الخبر المعزّ بن باديس، فجهز أسطولاً من أربعمائة سفينة وحشد فيه جيشاً كبيراً من المتطوعين. سار الأسطول الإسلامي، فلما قرب من جزيرة قوصرة القريبة من بر أفريقيا، هبّت عليه ريح شديدة أغرقته فغرق أكثر ركابه ولم ينج سوى القليل منهم.
٤٢١	-	خرج ملك الروم من القسطنطينية في ٣٠٠ ألف مقاتل إلى الشام فبلغ حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس. ثم اختلف الملك مع بعض قادته فقفل عائداً فلاحق المسلمون جيشه يقتلون ويستولون على العتاد وأخذوا من الملك ٤٠٠ بغل محملة مالاً وثياباً. ومات كثير من الروم عطشاً ونجا الملك مع بعض جنده.

الإنجازات العسكرية	القائد	السنة هـ
ملك الروم مدينة الرها. وكان لها قائدان مسلمان مع كل منهما برج حصين، هما ابن عطير وابن شبل. راسل ابن عطير أرمانوس ملك الروم وباعه حصته من الرها بعشرين ألف دينار وعدة قرى وسلمه برجه فدخل الروم الرها وملكوها وقتلوا المسلمين فيها، وهرب منها ابن شبل. سمع نصر الدولة الخبر فسيّر جيشاً إلى المدينة فحاصرها وفتحها عنوة وقتل أكثر حاميتها.	-	٤٢٢
احتل الروم قلعة أفامية بالشام وغنموا ما فيها وسبوا أهلها، وساعدهم في ذلك حسان ابن المفرج الطائي.		٤٢٢
كان أبو الهيجاء بن ربيب الدولة يملك قلعة «بركوى»، فاختلف مع خاله فأرسل خاله إلى الروم وأطمعهم فيها فسيّر ملكهم جمعاً كثيراً فملكوها.		٤٢٥
استنجد ابن وثّاب النميري، الذي جمع جمعاً من العرب وغيرهم، بالروم في الرها فأنجدوه بجيش كبير، فقصد بلد نصر الدولة بن مروان ونهب وخرّب. لكن ابن مروان جمع جموعاً وأراد مهاجمة الرها فاعتذر منه ملك الروم وأهداه هدية قيّمة فتراجع عن مهاجمتها.	نصر الدولة بن مروان	٤٢٦

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٤٢٦	شبل الدولة بن صالح بن مرداس	هاجم الروم ولاية حلب فتصدى لهم صاحبها شبل الدولة فاقتتلوا فانهزم الروم فتبعهم وغنم غنائم كثيرة.
٤٢٧	ابن وثاب وابن عُطير	تصالح ابن وثاب وابن عطير صاحبا الرها وأمدهما نصر الدولة بجيش كبير فحاصرا الرها وافتتحاها عنوة وقتلا ٣٥٠٠ رجل وغنما ما فيها وسبيا خلقاً كثيراً.
٤٣٢	الدزبري	هاجم جمع من بني جعفر بن كلاب ولاية فامية ونهبوا قرى عدة، فخرج عليهم جمع من الروم وقاتلوهم وأوقعوا بهم. جهز الدزبري في حلب جيشاً وسيره إلى بلاد الروم حيث التقى بجيش لهم بين مدينة حماه ومدينة فامية واشتد القتال بينهم فانتصر المسلمون وهزم الروم وقتل منهم كثيرون وأسر ابن عم الملك فبذل في فدائه مالاً جزيلاً وعدةً وافرة من أسرى المسلمين.
٤٣٥	-	أخرج ملك الروم الغرباء من المسلمين والنصارى وغيرهم من القسطنطينية وذلك بسبب محاولتهم إيقاع الفتنة بين الملك والشعب. وهكذا خرج منهم حوالي ١٠٠ ألف إنسان.
٤٣٩	المعزّ بن باديس صاحب أفريقيا	سير أسطولاً إلى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد سالماً.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٤٤٠	إبراهيم ينال صاحب همذان	غزا بلاد الروم فظفر بهم وغنم بعد أن بلغ ملاذكرت وأردن وقاليقلا وطرابزون. لقيه جيش للروم والأبخاز يبلغ ٥٠ ألفاً فاقتتلوا قتالاً عنيفاً وكانت بينهم وقائع عدة كانت الحرب فيها سجالاً إلى أن انتصر المسلمون أخيراً فأكثروا القتل في الروم. وأسروا جماعة من بطارقتهم منهم قاريط ملك الأبخاز الذي بذل في نفسه ٣٠٠ ألف دينار وهدايا بمائة ألف. وقيل إن غنائم المسلمين حملت على عشرة آلاف عجلة، وأن في جملة الغنائم ١٩ ألف درع.
٤٤٦	طغرلبك صاحب أذربيجان	سار إلى أرمينيا وقصد ملاذكرت فحاصرها ونهب ما جاورها من دون أن يتمكن من فتحها. بلغ في غزوته أرزن الروم وعاد إلى أذربيجان.
٤٥٦	السلطان ألب أرسلان	سار بجيش كبير مع الوزير نظام الملك وحاصروا بضعة قلاع للروم وملكوها وأسروا عدداً كبيراً من الروم.
٤٦٢	-	أقبل ملك الروم من القسطنطينية بجيش كبير إلى الشام فاحتل منبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهم، ثم عاد إلى بلاده.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٤٦٣	-	خرج ملك الروم أرمانوس في ٢٠٠ ألف مقاتل إلى بلاد الإسلام فبلغ ملاذكرت، فلاقاه السلطان ألب أرسلان فانهزم الروم وقتل منهم كثيرون. وأُسر ملك الروم فافتدى نفسه بمليون وخمسماية ألف دينار وأطلق الأسرى من بلاد الروم.
٤١٠	نصر بن محمود بن مرداس	افتتح مدينة منبج وملكها من الروم.
٤٢٦	تتش بن ألب أرسلان	قصد الساحل الشامي فافتتح طرطوس وبعضاً من الحصون وعاد إلى دمشق.
٤٣٥	سليمان بن قتلمش صاحب قونية واقصرا	سار إلى بلاد الشام فملك مدينة إنطاكية وكانت بيد الروم منذ السنة ٣٥٨ هـ.
٤٨١	-	فتح الروم مدينة زويلة من أفريقيا (وهي قرب المهدية) وأحرقوها بعد أن نهبوها.
٤٩١	-	الحروب الصليبية (لن نذكرها هنا كونها سترِوى في الجزئين الخاصين بها).
٥٣١	-	أرسل الفرنجة طالبين مساعدة ملك الروم ضد أتابك زنكي، فتجهز وسار بحراً إلى مدينة إنطاكية فأرسى أسطوله فيها. ثم سار إلى مدينة نيقية فحاصرها وملكها. سار بعدها إلى أذنة والمصيصة فحصرهما وملكهما. ثم ملك عين زربة عنوة وتل حمدون التي حمل أهله إلى جزيرة قبرص.

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
٥٣٢	–	وصل ملك الروم إلى الشام فملك بزاغة (على ستة فراسخ من حلب) بعد حصار طويل فقتل من أهلها وأسر وسبى. ثم سار إلى حلب فقاتله أهلها قتالاً شديداً قتل خلاله عدد كبير من الروم فعادوا خاسرين. ثم ملك الروم قلعة الأثارب التي استعادها أتابك زنكي. ثم حاصر شيزر فقصدها زكي فتراجع عنها الروم فلاحقهم وأوقع بكثيرين ممن تأخر منهم.
٥٣٧	–	خرج من الروم عسكر كثير إلى الشام فحاصروا الفرنجة في إنطاكية فصالحهم صاحبها، فسار ملك الروم إلى طرابلس فحاصرها، ثم تراجع عنها.
٥٤٤	–	اختلف رجار الفرنجي صاحب صقلية وملك الروم فجرت بينهما حروب كثيرة دامت سنين فانشغل بعضهم ببعض عن المسلمين. وكان القتال براً وبحراً والنصر كان لصاحب صقلية حتى وصل أسطوله أحياناً إلى القسطنطينية فأسر جماعة من الروم.
٥٥٩	–	خرج ملك الروم من القسطنطينية في جيش كبير وقصد بلاد الإسلام التي بيد قلج أرسلان وابن دانشمند. =

السنة هـ	القائد	الإنجازات العسكرية
		= اجتمع التركمان في تلك البلاد وأخذوا يغيرون على أطراف جيشه ليلاً فكثر القتل في الروم حتى بلغ عشرات الألوف، فعاد إلى القسطنطينية بعد أن ملك المسلمون منه حصوناً عدة.
٥٦٨	مليح بن ليون الأرمني (يعمل لصالح نور الدين زنكي)	هزم عسكر الروم في القسطنطينية بعد أن استولى على المصيصة وطرطوس. أكثر القتل في الروم وأرسل مليح إلى نورالدين كثيراً من غنائمهم وثلاثين أسيراً من أعيانهم.
٦٠١	غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان	ملك بلاد الروم التي كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان فانسحب هذا الأخير إلى القسطنطينية حيث أكرمه ملك الروم وتزوج بابنة أحد البطارقة الكبار. وحاول غياث احتلال قونية فلم يتمكن من ذلك إلاّ بعد مساعدة أهلها له ضد ابن أخيه.
٦٠٣	غياث الدين	حاصر إنطاكية وهدم عدداً من أبراجها، فأرسل من فيها من الروم يستنجدون بالفرنجة في جزيرة قبرص. ثم اختلف الفرنجة والروم فاقتتلوا فسلّم الروم إنطاكية للمسلمين واجتمعوا معهم على قتال الفرنجة، فملك المسلمون المدينة.

تقييم جدول الصوائف والشواتي:

أ - لم تكن الصوائف تحصّل كل سنة، خصوصاً في السنين التي تحصل أحداث داخلية في أرجاء الخلافة الإسلاميّة. فعلى سبيل المثال وخلال انطلاق الثورة العباسية لم ترسل أية صائفة أو شاتية.

ب - مع بداية العصر العباسي الثاني وخلال العصر العباسي الأول كانت الصوائف دائمة وسنوية إلى بلاد الروم حيث كانت المبادرة بيد المسلمين نظراً لسياسة القوة التي اتبعها الخلفاء العباسيون خلال العصر العباسي الأول. وقد جرى خلال هذا العصر فتح العديد من الحصون والمدن في بلاد الروم. واضطر الروم إلى مصالحة المسلمين الذين كانت انتصاراتهم شبه دائمة.

ج - كانت الغزوات الشتوية قليلة بسبب الطقس البارد والظروف المناخية في بلاد الروم التي لم يتعود عليها العرب في بلادهم الدافئة.

د - من الخلفاء الذين غزوا بأنفسهم بلاد الروم تميّز المأمون والمعتصم. فالمأمون افتتح حصوناً ومدناً عديدة أبرزها هرقلة السنة ٢١٦هـ. أما المعتصم، فبعد نداء المرأة الهاشمية: «وامعتصماه»، سار إلى بلاد الروم فافتتح عمورية وهي من أهم مدنهم.

هـ - وفي العصر العباسي الثاني لم تعد الصوائف تحصل سنوياً. فعلى سبيل المثال سيرت فقط في السنوات ٢٥١ - ٢٦٦ - ٢٦٨ - ٢٧٢ - ٢٧٤ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٢٨٥ - ٢٨٨ - ٢٩٤ هـ الخ.

و - في عهد سيف الدولة الحمداني جرت معارك شديدة مع الروم في السنين ٣٣٧ - ٣٣٩ - ٣٤٥ - ٣٥٠ - ٣٥١ هـ. لكن الحرب كانت سجالاً بين الفريقين الإسلامي والرومي رغم أن هذه المعارك حصلت في العصر العباسي الثالث.

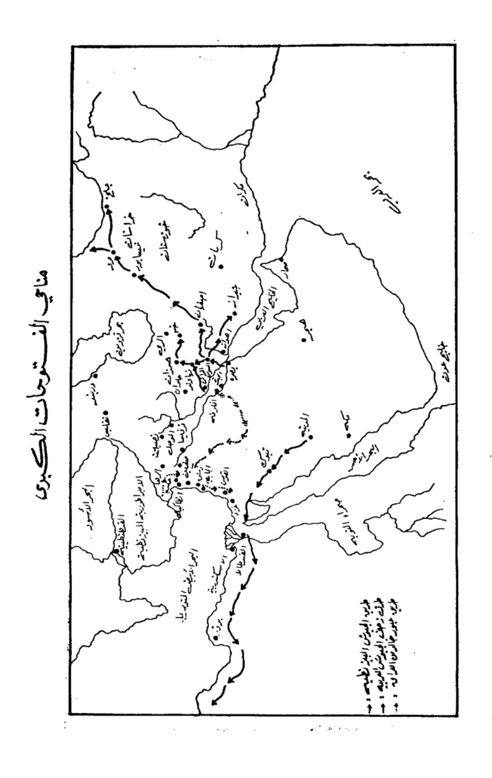
ز - خلال العصر العباسي الثالث أصبحت المبادرة بيد الروم إذ إننا نلاحظ في الجدول أنه، ومنذ العام ٣٥٤ هـ بدأ الروم يهاجمون بلاد الإسلام ويدخلونها غازين فيفتتحون المدن لا سيما المصيصة وطرطوس وطرابلس وقلعة عرقا وحمص وغيرها.

وهكذا تمكّن الروم من نقل القتال من بلادهم إلى بلاد الشام التي كانت فعلياً بلاداً إسلامية منذ عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

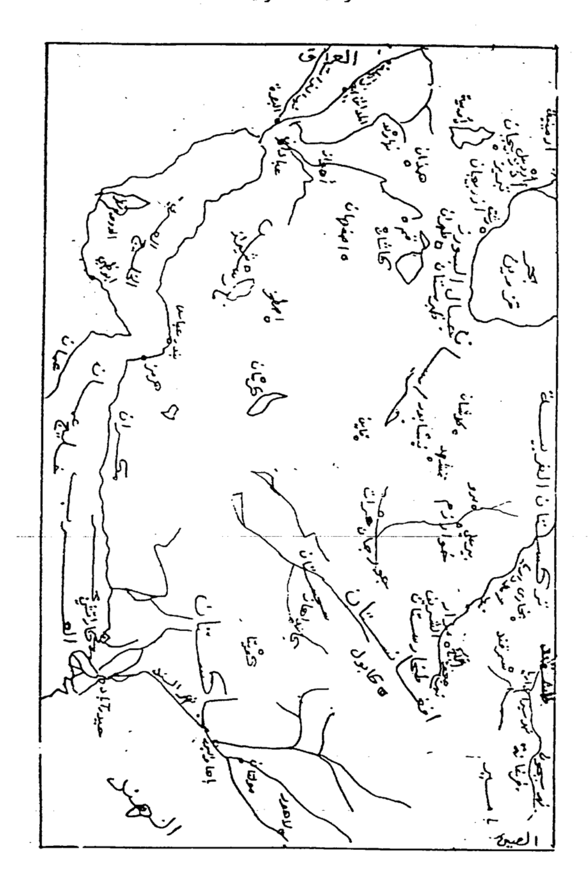
ح - وبقي الوضع كذلك إلى السنة ٤٩١ هـ حين انتقل الصراع مع المسلمين من الروم إلى الفرنجة، إذ بدأت الحملات الصليبية تصل تباعاً إلى الشرق. لذلك تراجع الصراع بين الروم والمسلمين ليحل محله صراع بين المسلمين والفرنجة لم نذكره في الجدول إذ إنه سيرد بتفاصيله في الجزئين ١٦ و١٧ المخصصين للصراع ضد الصليبيين في هذه الموسوعة.

لكننا أوردنا بعض الوقائع، لا سيما تلك التي تحالف الروم خلالها مع بعض الزعماء المسلمين لمحاربة الفرنجة، والتي تحالف بعض القادة المسلمين مع الفرنجة أو الروم لمحاربة قادة مسلمين آخرين. المثال النموذجي على ذلك حصل السنة ٥٤٤ هـ، والسنة ٦٠١ هـ، والسنة ٦٠٣ هـ.

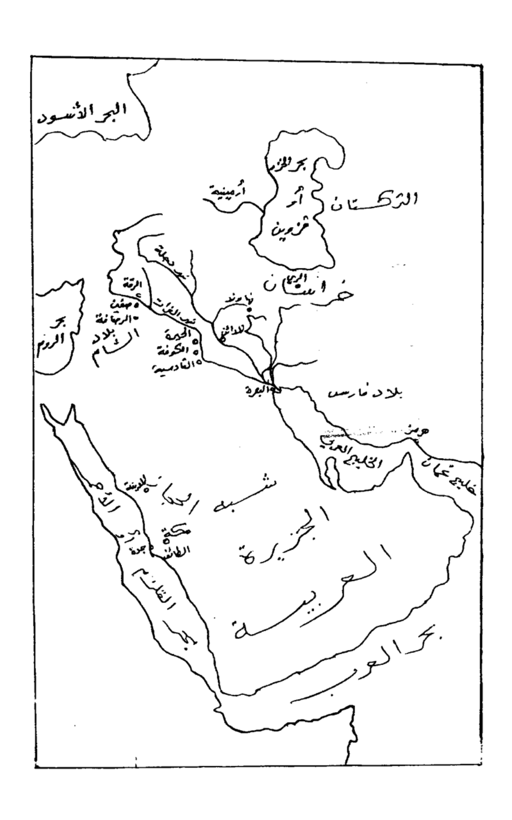
(انظر الجدول).


مناطق الفتوحات الكبرى

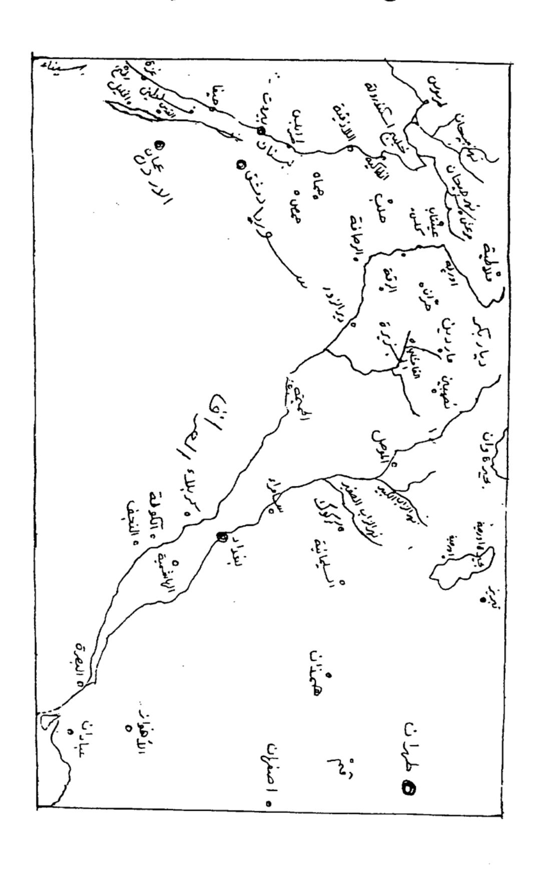
الولايات الشرقية



بلاد فارس


البحر الأسود
بحر الخزر
أو
قزوين
أرمينية
التركستان
خراسان
الريحان
نهاوند
نهر دجلة
نهر الفرات
الرقة
صفين
الرهافة
بحر
الروم
بلاد
الشام
الحيرة
الكوفة
القادسية
المدائن
البصرة
بلاد فارس
هرمز
الخليج العربي
خليج عمان
شبه
الجزيرة
العربية
مكة
الطائف
جدة
البحر الأحمر
بحر العرب

المواقع والمدن خلال العصر العباسي الأول



فهرس الجزء (١٠)

الخرائط:



Bibliotheca Alexandrina
0587026